جيرار ديباردیو

مفعماً بالحياة

(حوارات)

تأليف: لوران نيومان

ترجمة: ابراهيم فياض

منشورات وزارة الثقافة – المؤسسة العامة للسينما

في الجمهورية العربية السورية – دمشق ٢٠٠٧

عنوان الكتاب في اللغة الأصلية

GERARD DEPARDIEU VIVANT
Par
LARENT NEUMANN

مقدمة المترجم

ماذا يمكن للمرء أن يتكلم أو أن يصف شخصية كشخصية جيرار ديباردیو؟ شخص بهذا التنوع، والإنتاج الغزير، في مجال عمله كممثل وفي مجالات أخرى متعددة، لا تمت بصلة، إلى المجال الفني... إفراطه في كل شيء: في التمثيل، في الشراب، في السفر، في الحركة وفي قيادته للدراجة النارية... مفرط في كل شيء كما يصف نفسه. ولا يملك قارئ سيرته، إن كان معجباً به أو كان يكرهه حتى، سوى الإعجاب، أو الدهشة بهذا الإنسان الظاهرة!

وبالفعل نحن أمام ظاهرة بشرية، فنية، بكل تناقضات حياته الشخصية والعملية... وأنا شخصياً، كمشاهد لبعض أفلامه، وقبل أن أقدم على ترجمة هذا الكتاب، أعترف بأني لم أكن أحبه، بالمعنى البسيط للكلمة، ولم يكن يمثل لي رمزاً من الرموز الفنية، التي كنت استحسنها وأحترمها وأتابعها بشغف، وقد زاد سخطي على بعض مواقفه، بعد أن بدأت في ترجمة الكتاب، ولكن، أقول ولكن، لم أملك سوى الإعجاب، ولا أقول الاحترام، بهذه الطاقة التي يتمتع بها هذا الإنسان، وبالفعل يمكن أن يكون أنموذجاً وعبرة ودرساً للكثيرين، ممن يؤمنون بالفطرة الأولى للإنسان، وبالعناد والتصميم على الوصول، على الرغم من انعدام أي خلفية ثقافية أو فكرية سابقة.. ولكنه الإصرار والإصرار والاستفادة من تجارب الآخرين، ومن الحياة، وهي المدرسة الكبيرة، كما يقال..

من أين أبدأ، وماذا أقول في طفل بريء في التاسعة من عمره، ينخرط بين الجنود، في القاعدة الأمريكية في مسقط رأسه، شاتورو، يتبادل وإياهم تجارة الويسكي والدخان والقمصان.... الخ. ماذا أتحدث عن عشير الغانيات وهو في أول سني مراهقته، يساكنهن، يدافع عنهن عند الضرورة، وأخيراً يملأن ساعديه بالوشم... ماذا أتحدث عن الفراغ العاطفي وانعدام الحوار في أسرته وتعدد أفرادها، وفي تأمله لوالده الإنسان البسيط، لكنه الفنان الكبير في مجاله، وهو يطرق صفائح الحديد في ورشته، واعتزازه بذلك الأب، وأيضاً عن حرمانه من أي تربية منزلية، ثم عن محاولته، التي لم تتكرر، أن يكون الأول في صفه، وضجره السريع من هذا الأمر، ورجوعه إلى المقعد الأخير كي يتأمل الجميع، على سابق عهده.. وماذا يمكن القول في وصف مدير مدرسته له حين قال: «سيكون ديباردیو، إما قاطع طرق أو ممثل». ولا يمكن أن أترك فترة طفولة ديباردیو، دون أن أذكر أنه، وهو في السابعة من عمره، أخذ دور القابلة وساعد والدته، وبمفرده وعلى مرأى من والده المخمور، في ولادة اثنين من أخوته.... وأخيراً وهو في السادسة عشرة، وبعد كل الذي ذكر، والتسكع والضجر والسمعة السيئة في مدينته.. أخيراً تأتي شرارة الحظ، عن طريق أحد زملائه «ذوي التربية الصالحة»، حين يعرض عليه أن يرافقه إلى باريس للمشاركة في حضور دروس في المسرح.... وهكذا كان. ومن هنا بدأت مرحلة التعويض عمّا فات، وبدأت عقد النقص تتفاعل، ولكن بشكل إيجابي، وأصبح كما يصف نفسه، كالاسفنجة التي تمتص كل شيء، وتخرجه على طريقتها الخاصة.. من هنا بدأ مشوار الحياة مع ديباردیو والتقاءه بالصدفة أم بغيرها بعمالقة الفن، من مخرجي مسرح وسينما، إلى ممثلين عظام، وقفوا جميعهم إلى جانبه، وقد أحسنوا فهم شخصيته، وفرادته، وأسندوا إليه أدواراً تليق بمثله، كإنسان بري غير مدجن، مع هامة جسدية هائلة... وكانت أدواره الأولى، في السينما أو في المسرح، وحتى في مرحلة متقدمة من

حياته المهنية، أدوار الإنسان السوقي، الداعر، أحد أفراد العصابة، أو رئيسها... و ولكنه كان ناجحاً، بل ملفتاً في كل هذه الأدوار... ربما لأنها حقيقته... ولقد تم دمغه، ولفترة طويلة في الإعلام، بأنه داعر السينما الفرنسية الأول، وذلك من أول أفلامه البارزة (راقصات الفالس)... لكنه بدأ يقرأ ويطلّع على الكتب السماوية والروايات، ويرتاد الأماكن الثقافية بمعونة زملاءئه في التمثيل وبمعونة زوجته، المثقفة الكبيرة، والتي كانت تحضر شهادة الدكتوراه في علم النفس، وذات الأصول النبيلة، وقد استمر زواجهما اثني عشر عاماً بكل منغصاته، وانتهى بالطلاق، كبرهان ساطع على التناقض الصارخ بين الزوجين...

وماذا يمكن أن نتحدث عن علاقته بابنه البكر غييوم، وقد فاحت في الصحف روائح فضائحها وما تبادلاه من شتائم، ولن نغفل كتاب غييوم بعنوان (الاعتراف بكل شيء) وفيه ما فيه من تعريض بوالده، وظلمه لوالدته وغيابه المستمر عن البيت، ومسببات كل ذلك في النتائج التي أوصلت غييوم نفسه إلى محاولة الانتحار وإدمانه المخدرات، وأخيراً بتر قدمه، إثر حادثة على الدراجة النارية... وقد وصف والده في هذا الكتاب، بأنه ذو طبع كطبع الخنزير، وأنه حقود ومتردد ومضطرب وبخيل في حياته الخاصة....

وسط هذا التنوع والتجريب في حياة ديبارديو، لا يمكن أن ننسى أنه أمضى عامين من حياته متردداً على جامع باريس، يقرأ القرآن ويتوضأ، كأي مسلم، متأثراً بوجدانية صوفية بـ «كوكب الشرق أم كلثوم»، بعد أن حضر إحدى حفلاتها في باريس وكان برفقة أصدقاءه المسلمين... ديبارديو، هذا، يتابع في مرحلة لاحقة تلاوة مقاطع من كتاب «الاعترافات» للقديس أوغسطين، في أماكن العبادة كالكنائس والجوامع وينوي أن يكرر الشيء ذاته، في كنيس يهودي. ثم ماذا عن علاقته بكبار المخرجين والكتاب، وهنا أمامنا الكثير من التفاصيل، ولكن لنأخذ إحداها مثالاً على علاقته مع الكبار... مارغريت دوراس، الكاتبة الكبيرة والمخرجة لأفلام سينيمائية. يسأله الصحفي لوران نيومان: هل كانت دوراس تعاملك كخادم عندها... يرفض جيرار بشدة هذا التوصيف، ويعترف: صحيح أني كنت أنظف، أحياناً، مرحاضها، وصحيح أنها كانت تستدعيني إلى منزلها لإعادة طلاء غرفة نومها،.... ولكني كنت أتبادل معها أحاديث ثقافية!!

علاقة ديبارديو برؤساء الجمهورية الفرنسية: ميتران، شيراك، وصداقته لهما. ثم رأيه وبإعجابه البالغ بالجنرال ديغول وصداقته مع كلود ابنة شيراك... ثم علاقته بإخوته بعد أن هجر بيت الأهل باكراً، وأصبح لا يلتقيهم إلا نادراً.. أيضاً علاقته برجال الأعمال والصناعة، ووصفه لنفسه بأنه رجل أعمال فاشل، رغم امتلاكه لمواصفات رجل الأعمال، في تعدد أنشطته وممتلكاته: مزارع شاسعة للكرمة، في فرنسا وفي الجزائر والمغرب (وفي هاتين الاخيرتين يعمد إلى استئجار الأراضي)، ومصانع الخمور وتصديرها إلى جميع أنحاء العالم، وامتلاكه لفنادق ومطاعم، وشركة إنتاج للأفلام، كل هذا مع فريق من المختصين في شتى الاختصاصات القانونية والفنية يحيطون به ويشرفون على حسن سير أعماله... وفيما هو لا يتورع عن التذكير باستمرار أنه قبل كل شيء «وسيط» أي سمسار، وتنسحب هذه الصفة على كل جميع أعماله وأنشطته المتنوعة. وأيضاً شراكته، لأحد الصناعيين الكبار، في التنقيب عن النفط في كوبا.. وكل هذا باسم الصداقة واكتشاف الجديد!! وعلاقته بفيديل كاسترو وحديثه عن كوبا...

ولكن ماذا عن رأي ديباردیو في السِنما الفرنسية، وبأعلام الموجة الجديدة من أمثال تروفو وغودار، ولن يتردد المرء حين يؤكد، بما يعرفه عن ديباردیو، بأن هذا الأخير لا يتفق مع الآراء والأسلوب الذي يطرحه أصحاب هذه الموجة الجديدة، وفي أفلامهم وفي ندواتهم، لا بل أكثر من ذلك، فهو يدافع عن حريته في اختيار التمثيل في الأفلام الكوميدية الهابطة فنياً والناجحة شعبياً.

آراؤه في الحياة، وضرورة توفر التجارب لدى كل إنسان، وفي الفن وفي السياسة ودهاليزها، في الرياضة، وفي علاقته بالنساء، أثناء التمثيل، وفي حياته الخاصة... كل ذلك نجده في هذه الحوارات، التي نجح فيها المحاور، في اكتشاف خفايا وخبايا هذا الإنسان الفريد.

في الحقيقة، نحن أمام ظاهرة بكل تناقضاتها وتشعباتها، ولأنها ظاهرة فهي لا تتكرر في الحياة كثيراً..

أخيراً أهدي هذه الترجمة لوالدتي وجولييت ولور وآلان...

إبراهيم فياض

اللاذقية، نيسان ٢٠٠٦

يتوافق هذا الكتاب – وقد أحسن الاستماع فيه إليّ – مع ما كنت أفكر فيه لحظتها.

أتاحت لي هذه الحوارات، مع لوران نيومان، استعادة بعض ذكريات حميمة، ونبش أخرى قبيحة. لكنها جاءت بلا أي مجاملة من الطرفين، كما كنت آمل.

أفسح لي هذا الكتاب الأمل، وأنا في نهاية الخامسة والخمسين، أن لا أبدو مثل غول مخيف أو إنسان مثالي في سلوكه.

رغبت فقط في أن أتحدث عن أناس أحببتهم وأحبوني من دون أي إزعاج على الرغم من ميلي إلى المبالغة أحياناً، وعلي أن أعترف بهذا.

لوران، أنا ممتن لك على ما أنجزته بإخلاص في هذا العمل، الذي لم يكن سهلاً أبداً. لك شكري وصداقتي.

جيرار ديباردیو

- فاتحة -

«مفعماً بالحياة »

«الاعتدال شيء قاتل. لا نجاح من دون مبالغة»
أوسكار وايلد

- لوران نيومان: لقد مضت نحو أربع سنوات على محاولتي إقناعك بإنجاز هذا الكتاب. لكن وقبل الدخول في صلب الموضوع، لماذا قبلت أخيراً من حيث المبدأ، بعد تردد طويل، حواراً طويلاً كهذا، لماذا؟ لماذا الآن؟

- جيرار ديباردیو: بداية أقول إن إصرارك هو الذي دفعني لاتخاذ القرار، بل يجب القول عنادك. (يضحك)، وبصراحة كنت أظن أنك ستنتهي إلى السأم من الموضوع. وافقت أيضاً من أجل أبنائي، من أجل روكسان وجولي وغييوم، ومن أجل أصدقائي.... كنت أرغب شخصياً في تأليف الكتاب، لكني أفتقد إلى الوقت تماماً. غير أني أمسك بالقلم أحياناً، بدافع غريزي بالتأكيد. سأوفر الوقت اللازم ذات يوم، بالتأكيد...

-: حين نقرأ ما يكتب عنك، عن مهنتك وحياتك الخاصة المعقدة يتكون لدينا انطباع بأن ثمة «ديباردیو غامض»، ولطالما بدت صورتك العامة مشوشة، وربما رغبت أيضاً من خلال هذا الكتاب، في أن تزيل بعض الغموض، وأن تطرح بعض الحقائق...

-: أن أقول حقيقتي، نعم بالتأكيد، لكني لم أوافق على العمل في هذا الكتاب، لتبرير أفعالي أو لدعوة الآخرين إلى محبتي، وأنا بأمانة كاملة لا أحب أن ألّمع صورتي. مثلما كان يقول بيتر هندكه: «لا أعرف أي شيء عن نفسي مسبقاً، أمارس مغامراتي عند روايتها». أعرف أنك ستطرح أسئلة ستضطرني لاستماع ما لم أكن أود سماعه بالضرورة، لهذا السبب أيضاً قبلت أسلوب هذه الحوارات.

-: سبق لك أن أمسكت بالقلم عام ١٩٨٨ كي تسجل بعض الأمور الحميمة إلى قلبك من خلال كتابك (حروف طائرة)، وبطريقة تراسلية خاطبت أهلك (ديه ديه ولاليت)، زوجتك اليزابيت، فرانسوا بيرييه، باتريل ديوير، جان كارميه وموريس بيالا...

-: نعم، كان كتاباً شخصياً، لا بل كتاب حب كذلك. لكني لم أنجزه بمفردي، فقد ساعدني كثيراً أوليفييه دازا، بمعنى آخر أعانني في إظهاره للنور. احتضار والدتي أثار فيّ الرغبة إلى الكتابة.... (صمت طويل). احتضار والدتي.... (صمت) ووالدي الذي توفي بعدها بشهرين. كانت وفاة لاليليت بالنسبة إليه مفاجأة حقيقية وشيئاً غير مناسب. لم يتخيل لحظة أنها يمكن أن تغادره وإلى الأبد. بدأت في هذا الكتاب عند وفاتها وانتهيت منه عند رحيل والدي.

-: ولكن ماذا يبرر اليوم إسراعك في إنجاز كتابنا هذا؟

-: لا أدري. لأنك عرفت من دون شك كيف تقنعني بالأمر. ولأني، من دون ريب، آخذ بالحسبان، وأنا على أعتاب الشيخوخة، المعاناة التي ألاقيها في سرد المشاكل الحقيقية، وانتقاء الكلمات المعبّرة عن أحاسيسي. كم هو صعب تدوين الأحاسيس...

-: صعب أن تقول «أنا أحبك»؟

-: نعم، من دون شك. فرانسوا تروفو كانت لديه العقدة ذاتها. كم تكون الأمور ميسرة داخل الاستديو السينمائي أو على خشبة المسرح حين يكون النص جميلاً، وحين يكون كل شيء جاهزاً سلفاً. وكل ما أقوله للمقربين، أقوله بضمير حي، نابع من القلب ومن أعماقي، وأحياناً، لضرورة الأشياء، لا أوفق في التعبير. وإن فكرنا في الأمر، ربما يكون معك حق في أن كتابة الأشياء أسهل من روايتها، ثم أني كلما كبرت في السن أدركت ما قد فاتني، وفي الحقيقة، الأشياء الأساسية التي فاتتني هي التي كنت أحبها.

-: شيء مرعب ما تقوله...

-: ربما، ولكنها الحقيقة. إنها ذاتها المكونات الأساسية لحياتي. لقد أضعت كل ما أحببته. (صمت، يشعل جيرار سيجارته الأولى).

-: قبل أن آتي على ذكر الأعزاء على قلبك، أحب أن أعرف كيف هي أحوالك هنا، في هذه اللحظة، الآن.

-: أحوالي على ما يرام. نعم أنا في أحسن حال. لكن لم تعد لديّ تلك الطاقة كما كنت في الثلاثين أو الأربعين من العمر، ولا أقول طاقتي في العشرين، لأنها لم تكن تبلورت بشكل طبيعي. لم يكن لديّ ثقافة، ثقافتي كانت من الآخرين، كانت من الشارع. لم أكن مراهقاً أبداً. منذ الطفولة كنت راشداً، بكل حسنات ذلك الرشد وسيئاته. تجربتي الأولى كراشد كانت وأنا في الثامنة من عمري.

-: أي نوع من التجارب كانت؟

-: في ليلة بيضاء تركت البيت، هكذا، من دون أن أخبر أهلي، متجهاً إلى احتفالات الفورين وأمضيت الليلة كلها،بصحبة الجنود الأمريكيين، في القاعدة العسكرية في شاتورو[1]. كنت في الثامنة وكنت مشدوداً إلى الفضاء الواسع، وكان هذا الفضاء الواسع بالنسبة إليّ هو الشارع. كنت في الثامنة حين أدركت أنه عليّ أن أكون راشداً كي أنعتق من العائلة، من المدرسة، من تلك الغرفتين في شارع مارشال جوفر حيث كنا نعيش. وبالمصادفة كان أهلي لا يحظرون أي شيء عليّ. كان يمكن أن أفعل ما أشاء تماماً. وحين تكون في سن كهذه ومن دون أية موانع فستعبر من الطفولة إلى سن الرشد مباشرة. أصبحت مراهقاً في وقت متأخر جداً.

-: هل تريد القول، إنك تركت مرحلة الطيش باكراً جداً؟

(١) شاتورو: احدى المدن الصغيرة في فرنسا، مسقط رأس جيرار ديباردیو. (المترجم)

-: آه، نعم! كان هذا منذ زمن بعيد. (يضحك). لنقل إني حالياً أمنح نفسي، أحياناً، ترف العيش من دون مبالاة. لكن المضجر في الأمر، أني كنت أعي تماماً أن هذه اللامبالاة ستغدو كريهة للمقربين مني ولي شخصياً. أنظر، حين أقرأ اعترافات القديس أوغسطين (يضع يده على الكتاب فوق مكتبه) فإني أعثر على الأشياء التي في ذاتي.

-: أهو الإيمان؟

-: لا، ليس الإيمان. أنا أؤمن بالله مع أني أجهل أي إله هو. لكن لا يمكنني القول إن لدي إيماناً. لقد فهمت بمعونة القديس أوغسطين، حين رأيت شجاعته في تقديم البرهان على إكماله المسيرة، فهمت بأني أنا أيضاً كائن حي. ربما لم تعد لدي طاقة ابن الثلاثين، ولكنني أنبض بالحياة! وسأكون مدعياً حقاً إن قلت إن أحوالي جيدة. وفي الحقيقة، كي تقول الحقيقة، هذا هو السؤال الذي لم أطرحه على نفسي أبداً.

-: باستطاعتك أن تفهم أن الآخرين يطرحون هذا السؤال على أنفسهم ! ففي تموز ٢٠٠٠ تحملت تركيب خمسة أسلاك معدنية في جسمك (ثلاثة في التجويف الصدري واثنان في فخذك) في مشفى فوش سوريزن بإشراف البروفسور جيل دريفوس. لن أتحدث عن الحوادث التي تعرضت لها على الدراجة النارية، ولا عن مشاكلك في تعاطي الكحول، ولا عن طلاقك، ولا عن حالات يأسك على صحة ولدك غييوم.... فهذا كثير على إنسان واحد!

-: لكن لا! أحوالي جيدة جداً، وكل ما ذكرته يشكل جزءاً من هذه «الحال الجيدة»، وهذه هي الحياة! وبالمقابل تشكل هذه «الحال الجيدة» جزءاً مني. إنها مشكلة بيني وبين ضميري، بيني وبين شكوكي. الكحول، مثلاً، وما ينطوي عليه من مخاطر، كنت باستمرار أعتقد أني لست كحولياً. وحقيقة أنا اليوم أطرح الأسئلة، أقول لنفسي إني في الحقيقة كحولي ربما (يشعل جيرار سيجارة الجيتان الثانية).

-: إنه لأمر جديد أن تتقبل هذا الأمر. فمنذ عشر سنوات كنت ترفض هذه الحقيقة معلناً أن باستطاعتك التوقف عن الشراب متى شئت.

-: نعم هذا صحيح، ولكني أعرف اليوم أن الشراب مشكلة. ربما لأني بعد ثمانية وعشرين عاماً من المعالجة النفسية أصبحت أواجه بعض الحقائق بسهولة أكثر.

-: تقول ثمانية وعشرين عاماً من المعالجة!

-: أجل ثمانية وعشرين عاماً! حتى أني شهدت وفاة اثنين من أطبائي النفسيين، أحدهما لعب دوراً رئيسياً في حياتي واسمه فرانسيس، رجل رائع من أتباع فرويد وعضو في المعهد. وقد توصل بمفرده إلى أن يكشف لي أشياء عن نفسي ذاتها. ولكن التحليل النفسي لم ينه أبداً مشكلة الكحول عندي. ولهذا السبب، من دون شك، كنت دائماً أقرر عدم الكتابة عن نفسي. بعضهم يكتب عن نفسه كي يمجدها. عدد لا يحصى من الروايات أو من السير الذاتية، تلك التي يكشف فيها أصحابها عن خفايا حياتهم الخاصة، وأنا أسمّي هذا النوع من الكتابة بالكتابة الإسهالية. شخصياً ليس لدي ذلك النمط من التفكير المنظم المفترض في مثل هذه الأنواع من الكتابة. سأكتب حين أكون واضحاً مع نفسي، لكن لم تأت الساعة بعد.

-: صرحت في مناسبات عدة أنك كنت قاب قوسين من الموت، وأنك أبصرت ذلك «البصيص الناعم الأبيض» الشهير. إن تجربة كهذه تغير في حياة الإنسان حتماً، أليس كذلك؟

-: خرجت من تلك التجربة إنساناً مختلفاً، مع يقينيات جديدة وحلول جيدة كذلك. لكني عدت للغوص من جديد ومن دون تردد، عدت للسقوط مجدداً في مشاغل الحياة اليومية متجاهلاً ذاك «البصيص الناعم» والذي كان يصفه القديس أوغسطين بأنه يساعد على الإيمان. وبأمانة أقول بأنه كانت هناك لحظات تمنيت فيها لو كان عندي ذاك الإيمان الدائم. لكن للأسف إيماني متقطع، وإليك الأمر: إيماني، هو إيمان مشاهده متقطعة! (يضحك)، أو إن شئت إيمان متفرج متقطع. في الواقع عوائق الحياة اليومية المزعجة هي التي تدفعني شيئاً فشيئاً إلى نسيان ذلك البصيص الناعم الأبيض الذي أبصرته، وفي النتيجة هذه طبيعتي، وكما قال ميتران: الإنسان لا يتغير في عمر معين....

-: ما هي بالضبط تلك العوائق؟

-: طلاقي، أولادي...أشياء كثيرة! (يشعل السيجارة الثالثة). العوائق التي تعترضني هي بشكل أساسي، نتيجةً لأسلوبي في إدارة علاقاتي بمن أحبهم، بأولادي مثلاً. أصغي إليهم، أحاول مساعدتهم في تخطي احتياجاتهم المالية، على طريقتي في تصريف الأمور. ولكني أعرف أني بهذه الطريقة أكذب على نفسي، أظن أني بتقديمي لهم الهدايا والأموال، بأن الأمور ستنتهي، وأكسب حبهم وأكون في سلام مع نفسي، وأخفف من وطأة غيابي عنهم. لكن كل هذا هراء! وأعلم علم اليقين أن تصرفي على هذا النحو لن يسوّي الأمور. ولكانت الأمور أكثر بساطة، من دون ريب، لو أني كنت قاسياً معهم ومع نفسي، لكني لم أتوصل لذلك. تربيتي لم تكن بهذه الطريقة، ولم تكن هذه طريقتي في العيش. في الواقع أعرف تمام المعرفة، وفي اللاشعور، بأني سأواصل مع أبنائي الطريقة ذاتها التي عرفتها في بيت أهلي. ولشرح الأمور ببساطة أقول: أنا أحب أولادي، ولكن من دون شك ليس بالطريقة المثلى. أقدم لهم خدماتي، أساعدهم، أمنحهم الهدايا، أعطيهم المال، لكنها جميعاً لا تشكل الطريقة المثلى لقول «أنا أحبك».... هذا هو الأمر. ولكن أليس جميع الأهالي يرتكبون الأخطاء مع أولادهم، أليس كذلك؟

-: لا شك في ذلك، ولكن حين تردد هذا الكلام ألا تفكر بادئ ذي بدء بغييوم....

-: أجل، لقد آلمني هذا الأمر أكثر معه. كنت محظوظاً أكثر مع بناتي. (يضحك). كانت أخطائي أقل مع جولي (ابنة جيرار وأليزابيت ديباردیو) ومع روكسان (وهي الابنة التي ولدت عام ١٩٩٢ من علاقة بين جيرار وكارين سيلا). حظي كان أوفر معهن. ربما لأنهن يفهمنني بشكل أفضل، هن يمنحنني أجنحة.

-: هل توفر لديك الوقت لقراءة كتاب غييوم (الاعتراف بكل شيء – دار نشر بلون ٢٠٠٤)؟

-: لا لم أقرأ الكتاب بل تابعته، وفي الحقيقة لم أرغب في قراءته. اسمعني جيداً فأنا صادق فيما سأخبرك به: أتمنى من كل قلبي أن يجلب له هذا الكتاب كل الخير، لا بل أعتقد بأن هذا الكتاب كان خيراً عليه. أسفت تماماً لمشاركته مارك أوليفييه فوجيل في تأليف الكتاب. ثم أني تلقيت السباب من فوجيل لأني تجرأت وقلت ما قلته في هذا الموضوع، حين خاطبني: «ولكن ماذا تعرف عن حياتي؟ هل تظن بأني أنا أيضاً لم أعان؟» وفي ذلك اليوم أضعت

الفرصة علي في الصمت. في الحقيقة أنا لست آسفاً على شيء في هذا الكتاب، بل بالعكس فقد وجدت الأمر مدهشاً أن يستطيع غييوم إفراغ كل ما في صدره. إذا صدقنا أقوال المقربين الذين قرؤوا الكتاب، فليس ثمة ما هو أشد هولاً مما قاله في حقي. لي أخطائي، أخطائي كثيرة حتى أني لم أكن أبداً في مستوى تطلعاته. هو من قال هذا بكلماته وبصراحة تامة، لا بأس، لا شيء عندي لتكرار ما قلته حول هذا الأمر. ربما يكون هذا مؤشراً لانطلاقة جديدة بالنسبة إليه. سيتيح له هذا الكتاب، أخيراً، أن يكون هو نفسه، وأن يمضي إلى آخر الشوط مع ما في داخله، متخذاً مسافة ما من ذاته....أظن تماماً بأن غييوم هو شاعر، ليس كذلك المتأنق العبقري سيرج غينسبورغ، لا بل شاعر حقيقي، أنموذج حي. ثمة شيء من رامبو في غييوم! أعلم أن بعض أقوالي كانت خرقاء وقد أسيء فهمها. فإن كنت أقارنه برامبو فليس ذلك للنهاية المأساوية التي انتهى إليها الشاعر، أتمنى مخلصاً لغييوم أن يكون ما هو عليه وأن يمضي حتى النهاية مع ذاته. وفي جميع الأحوال النهاية هي مأساوية لكل البشر. جميعنا ننتهي في وضع أفقي، ويعلم الله إن كان من العسير أن ننتهي أفقياً في الأبدية!

أنا مثلاً، رأيت جدتي وهي تموت، كان العاملون في المشفى يودون إيلاءها أقصى عنايتهم، وأن يطيلوا في عمرها ما أمكنهم ذلك. لكن أخيراً صرفت الأطباء والممرضات، صرفت الجميع. بالنسبة لها كان أمراً طبيعياً أن تلتحق بالناس الذين أحبتهم طوال حياتها، لقد حانت ساعتها، ولو أني، شخصياً، كنت في النزاع الأخير، لما وددت المكابرة، ولكنت رغبت في الرحيل وأنا في كامل وعيي. حين أبصرت «الشعاع الناعم الأبيض»، والذي حدثتك عنه، أحسست وكأني سأفارق الحياة.... أحسست بكتفيّ محررتين من الأثقال....كذلك أذكر أني رأيت وجه أمي الساكن في لحظاتها الأخيرة. كانت جميلة، رائعة، هادئة. في المقابل كان يبدو على والدي الغم بشكل أكبر. (يشعل سيجارته الرابعة).

-: توفي والدك بسرطان مرعب، في مشفى ابن سينا Asricenne في بوبنيي عام ١٩٨٨ ولم ينقض سوى شهرين على وفاة لاليليت. أعلم أنك جئت لرؤيته مساءً بعد انتهاء موعد الزيارات، وأخبرني من رآكما لحظتها، من أطباء وممرضات، عن الاحترام الرائع بينكما.

-: يسعدني قولك هذا! ولكنك تعرف أن البورجوازيين هم في الغالب على درجة من الفظاظة، تذكرني هذه المرحلة من حياتي بنكتة رويتها لموريس بيالا عن تصوير فيلمه (الغرّ Le Garcu). كنت متجهاً للسباحة في بركة كيبيرون والشمس عند المغيب، ولم يكن هناك أحد سواي مع رجل آخر، بادرني قائلاً: «انظر كم هذا المنظر جميل»

-: نعم بالفعل إنه منظر جميل، أجبته

-: أنا أجده أكثر جمالاً مما لو بعثت حيّاً بعد موتي.

-: ما الذي تفهمه من " بعثت حيّاً؟

-: تم استئصال كبدي واستبدل بآخر. لازمني السرطان لمدة عامين. كنت أنتظر الموت. زوجتي كانت تنتظر موتي، أطفالي كانوا ينتظرون موتي....كنت قد حضّرت إذن كل شيء. وحين زرعت في أحشائي كلية جديدة تماماً، كان أفراد الأسرة جميعاً على قناعة بأن جسمي سيرفضها وبأن الكلية الجديدة لن تفعل فعلها.

باختصار كنت مشرفاً على الموت! وهاأنذا اليوم حي، مفعم بالحياة، وأستمتع بحياتي الجديدة عند الغروب الرائع للشمس. لن أتوقف عن القبل، لقد طلّقت وأنا في خير.

-:.....

-: «لا تقل شيئاً، استفد من غروب الشمس، تمتع يا صديقي! تمتع!» حسناً أنا مثله. أنا مفعم بالحياة وأتمتع بحياتي!

-: وهل كنت أنت أيضاً تعتقد بأنك على وشك الموت؟

-: الموت، أنا أبرمج الموت دوماً!

-: ماذا تعني بذلك؟

-: نعم، الموت، أنا أبرمج الموت على الدوام. لأني مفعم جداً بالحياة وحيّ للغاية ومستمتع تماماً....(ثم وبلهجة مازحة) أنا الكل في الكل! أناور كثيراً كي لا أتنبأ بالنتيجة الأخيرة، وأنا أعلم من زمن بعيد نهاية الفيلم. النهاية مسطّرة. كان عليّ من دون شك، أن أفر خفية ولكنها ليست طبيعتي، ولست من النوع الذي يرضى بأنصاف الحلول. فأنا أتصرف في كل شيء بإفراط وبذخ.

-: هنا مثلاً، وقد مضى علينا معاً ما يزيد على الساعة بقليل وهاأنت على وشك إشعال سيجارتك الجيتان الخامسة! أعتقد أن الأطباء شدّدوا في نصحك بالتوقف عن التدخين، أليس كذلك؟

-: أجل، والسيجارة لمن في حالتي ليست شيئاً حسناً. كما هي ليست جيدة لأي إنسان، كما يقال. ولكن على الرغم من السم الهاري الذي في داخلها إلاّ أنه يصعب الاستغناء عنها. سبق لي أن أقلعت عن التدخين مرتين، وفي كل مرة كان يزداد وزني إثني عشر كيلو! وزيادة في الوزن وفي مهنة كمهنتي يعد أمراً عظيماً، وهو ليس جيداً في كل الأحوال. وهكذا عدت إلى التدخين مجدداً، وللتخلص من هذه الكيلوات الزائدة عمدت إلى ممارسة الرياضة لفترة طويلة وأعرف أني خلالها كنت أدخن بشراهة، لأنه تعترضني في مهنتي أمور بالغة الحساسية تستنفر أعصابي كلها.

-: ليس هناك سوى التدخين، فأنت تعمل كثيراً وتنام قليلاً، وتشرب أحياناً بطريقة جنونية. وفي حال كحالك يعد هذا شيئاً من الانتحار، ولهذا السبب كان الموت مبرمجاً داخل رأسك.

-: (تنهيدة طويلة) لنقل أن...نعم هذا صحيح، فهذه الفكرة تجول في رأسي باستمرار، مثل لغز يطوف حولي، لكن ليس لها طابع المأساة. رغم كل ما فعلت في حياتي ورغم الأحداث التي واكبتها فهناك دائماً شيء ما يجعلني أفكر بالزوال وبلغز الموت هذا، غير أن هذا اللغز لا يخيفني، بل بالعكس، فأنا، كما أخبرتك مؤمن بالله، لكني أجهل أي إله هو، ومن دون شك ليس إلهاً واحداً أحداً. أو بالأحرى ليس هو على شاكلة ذلك الظهور الخارق الذي يتبدى في بعض المناسبات. في صباي كان الرجال هم أكثر من يثير هلعي. الرجال والطبيعة، الجبل مثلاً يخيفني. في الليل كنت أرى من مكان مرتفع هذه الكتل الصخرية الشبيهة بأناس لا حياة فيهم، وكان هذا بالنسبة إلي تجلياً للرب، وفي مثل تلك اللحظات، وأنت تعرف رحلة أوليس والمحن التي استطاع

تجاوزها. كانت تلك مخاوف طفل. إن تحديد المسير بالنسبة لي هو نوعٌ ما كعبور المحن. أما الموت فهو لا يخيفني.

-: ذكرت موضوع طلاقك من خلال لائحة المعوقات المزعجة لك...

-: سأخبرك الحقيقة. العائق الوحيد الحقيقي في حياتي هو أنا! أنا فقط. أنا! وطبعاً طلاقي هو أحد هذه العوائق المزعجة. في الطلاق ثمة انفعال وهذا الانفعال يجرّك أحياناً، في تناقض، إلى أمور بشعة، يثير فيك ردود أفعال لن تشرفك. أحسب أنه لو جرى الطلاق بطريقة أفضل لعشت اليوم، بلا ريب، مع الناس الذين أحبهم بشكل أفضل.

-: تأكد لي أنه من يوم إعلانك عن قصة حبك لكارين سيلا، وعن ولادة ابنتك روكسان عام ١٩٩٢، والصحافة تتابع بدقة حلقات حياتك الخاصة....

-: تضجرني الصحافة. ليس فقط الصحافة الشعبية، تضجرني لأن لدي إحساساً بأنها تقتل الأمل وتغتال الرجاء. تروي لك يوماً بيوم الأخبار السيئة، من دون إخبارك بالطريقة التي يمكن أن تستقيم فيها الأمور. قراءاتي للصحف تقل شيئاً فشيئاً، إنها تبعث القنوط في نفسي.

-: كلود دافي، مستشارك الصحفي وصديقك منذ خمس وعشرين سنة، أخبرني منذ فترة بأنك لا تترك فراشك صباحاً قبل أن تأتي على أخبار الصحف.

-: هذا غير صحيح تماماً حالياً. بدأت منذ فترة قصيرة في التفكير في نفسي. أتمنى أن أستيقظ على صوت العصافير. حتى أني لا أقرأ ما يكتب عني. وحتى المقابلات التي أجريتها لا أتذكرها. ما إن يطرح علي سؤال عن حياتي الشخصية، حتى لا أعود أتعرف إلى نفسي من جوابي. وليس هذا بالضرورة خطأ الصحفي الذي يدوّن أقوالي. أظنني أخرق ولا أعرف كيف أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن حقيقة مشاعري. كان من الأفضل لو صمت في مثل هذه الأحوال.

-: سنعود للحديث عن غييوم وأليزابيت وطلاقك... لكن أولاً أخبرني، لأني من باب التسلية أجريت الحسبة التالية: خلال خمس وثلاثين سنة من العمل الفني، اشتركت في مائة وستين فيلمٍ سينمائيٍ، وفي ثلاثين فيلماً تليفزيونياً وشاركت على المسرح في عشرين مسرحية. لم يصل أي ممثل فرنسي في حياته الفنية إلى هذا العدد لا غابان ولا ديلون. ألا يعد هذا حملاً ثقيلاً: المهنة، الشهرة، الصيت؟

-: إنه حمل ثقيل بكل تأكيد، لكني أبداً لم أفكر في مصطلحات المهنة. أختار أفلامي بغريزتي. في السابق كان الممثلون يرتبطون باستديو ما، أما أنا فالاستديو الخاص بي هو أنا. ما يهمني اليوم هم الناس الذين أقابلهم والقصص التي نرويها وبخاصة الإحساس بالسعادة من كل جديد.

-: أنا لا أصدق أنك تشعر بالسعادة مع كل فيلم....

-: أجل، أجل أؤكد لك. صحيح أني بدأت أفقد صبري شيئاً فشيئاً، وأني في هذه السن وهذه الخبرة، أرى الأشياء أسرع قليلاً من الآخرين. كلما زاد عمري قلّ وقتي. أقول أحياناً لأحد المخرجين: «حسناً هذه اللقطة موفقة، لا داعي لإعادتها خمساً وعشرين مرة!»

-: مائة وستون فيلمٍ، هذا إنجاز جبار! مع ذلك، حساباتي كانت كالتالي: وسطياً كنت تنجز من أربعة إلى خمسةً أفلام في السنة...

-: وفي بعض السنين كنت أنجز ستة أو سبعة أفلام. وبعد؟ أين هي المشكلة؟ المسألة برمتها، مسألة قدرة وطاقة، وهذا ما في الأمر. عليّ أن أمثل هذه الأفلام، ولكن يجب أن أرتقي بها وبإنتاجها وربط هذا بذاك، حتى ولو اضطررت لخوض معارك وتوفير ما يلزم من أموال، إنها حذاقة ولد سوقي، وهذا ما يعجبني في الأمر! ثم إنه لا يمكن مقارنتي بـ ديلون أو بـ غابان، ففي أيامهما كان إنتاج الأفلام أقل، وحتى لم تكن هناك عروض تليفزيونية أو كابلات أو ساتالايت أو مئات القنوات....

-: أريد أن أطرح السؤال بطريقة أخرى: حين تنجز مائة وستين فيلمٍ، وقد نلت عليها الكثير من الجوائز، ألا يحدث أن تخاطب نفسك في لحظة ما: «سأقلل من عدد الأفلام، وسوف أختار» ولكن لديّ انطباعاً بأن ما يجري معك هو عكس ذلك، بحيث أنه كلما مرّ عليك الزمن، زادت أفلامك...

-: كلا.....بل نعم. لدي شيء من نفاذ الصبر، وفي الرغبة في العمل في أكبر عدد ممكن من الأفلام. ومن جهة أخرى أظن بأن هذا يشبه حياتي الخاصة إلى حد ما، فحياتي الحقيقية هي في الأفلام وفي المسرحيات...

-: بعد تصوير خمسة أو ستة أفلام في السنة، هل يبقى لديك رغبة بالمزيد. سيكتفي الجمهور بالقول: «هيا لنشاهد آخر أفلام ديباردیو» كما كان يقال عن غابان أو بلموندو.

-: معك حق من دون شك، لكنها ليست مشكلتي، فالأمر يتعلق بالتوزيع وليس في الإبداع. علاقاتي كثيرة مع رجال الأعمال، لكني لست جان ماري ميسييه. أعمل حسب رغبتي، وأحياناً أعمل من دون مقابل، مجاناً بدافع رعاية الفنون والآداب. والشيء ذاته حين أرى مدى احتقار الفرنسيين لفيلم (فيدوك Vidocq) للمخرج بيتوف، وهو فيلم ساحر وممتع للغاية، جرى تصويره بالكامل في أمريكا، واليوم حين أرى الأمريكيين يمدون أمامه السجادة الحمراء، أجدني سعيداً لاشتراكي في هذه المغامرة.

-: تقول أن «حياتي الحقيقية هي في الأفلام»، ولكن في الواقع ألا تشعر بأنك أفضل حالاً في الشخصيات التي تؤديها أكثر من شخصية ديباردیو؟ وحين تصور هذا الكم من الأفلام، ألا تبحث عن مفر من حياتك الخاصة لتخلق منها حيوات أخرى؟

-: أنت تتكلم كطبيبي النفسي. ولكن أظن أن بعض ما ذكرته صحيح. أنا مثل أبي. كان ديه ديه صانع صفائح حديد، وزميل في جمعية الخراطة الفرنسية، وكانت أعظم إنجازاته جزمة إطفائي كان قد طرقها بيديه. وحين كنت أنظر إليه يعمل بأدواته ولحام الحديد والقناع على وجهه، فجأة يبدو لي وكأنه ليس أبي. كان عملاقاً، كان فناناً، وكانت تلك وسيلته للهروب من حياته اليومية. عشت طفولتي كلها وهذه الفكرة تتملكني. ولكن السينما، في حالتي، لا يمكن اختزالها كنوع من الهروب. أقرأ السيناريوهات بانتباه، وأتخيل شعرية الحياة على الشاشة وبعدها ألقي بنفسي في الماء من دون مزيد من الأسئلة...ذات يوم قالت أمي لأبي: «ولكن أخيراً يا ديه ديه، لماذا تعمل يوم الأحد، لو أنك تتقاضى أجراً لكان الأمر مقبولاً...» وكان أبي يجيبها: لكن لا يمكن أن

أتقاضى أجراً لأنه يوم أحد. وهكذا أنا، أعمل طوال الوقت، أتقاضى في بعض الأفلام أجوراً ضخمة وفي أفلام أخرى أعمل بالمجان. وأول فيلم لي مع مارغريت دوراس قبضت عليه صندوقاً من النبيذ، ولكنه كان من النوع الرديء! لم يكن لديها أية خبرة بالنبيذ!

-: إذن تكون أكثر سعادة حين تمارس عملك كممثل....

-: لست معتاداً على السعادة، ولا أملك أهلية السعادة، والبهجة لا أعرف ما هي. أحاول تفسير ذلك بمساعدة أطباء نفس منذ ثمانية وعشرين عاماً. الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أني مفرط في كل شيء. وأنا بشكل ما، شره للحياة.

-: تأكل بالمغرفة، وتشرب من الدّن، وتدخن كالمدخنة، وفي السينما تمثل في خمسة أو ستة أفلام في السنة. هذا لم يعد شراهة بل هو إفراط دائم.

-: أجل، إفراط. إفراط في كل شيء، شهية مسعورة للحياة. الحياة جميلة وأنا أفيد منها. صحتي كالحديد، بل أكثر لأني أبرأ سريعاً من كل ما يصيبني، معنوياً كان أم مادياً. لو أكل الاخرون نصف ما ألتهم لانفزرت بطونهم! وأنا أعلم أن هذه الطريقة في العيش سيكون لها نتائج وخيمة مع تقدمي في العمر. حين أقرر إنقاص وزني أكون على استعداد أن لا أقارب الطعام طيلة عشرة أيام! وحين أقرر ممارسة الرياضة أكون على استعداد للقيام بذلك عدة ساعات متواصلة في اليوم. وأخبرك أنه يصعب على الآخرين القيام بكل هذا، لا يستطيع أي إنسان أن يلحق بي، ومع ذلك يفضل ألا يحدث هذا. (يضحك). لكن التمتع بالوفرة لا يبعد الإنسان عن التأمل، وعن الاستمتاع ببساطة الحياة والاجتماع بالناس. كنت أمضي مع جانو (جان كارميه) ليالي بطولها في الحديث مع بعض المهلوسين للاستمتاع فقط. وأنا شخصياً تغمرني السعادة حين أمر بقرى توراتية تقريباً في أفريقيا والهند وفيتنام والصين وكمبوديا حيث يعيش الناس في أدنى درجات الفقر، ولا يوجد فيها شيء يذكر ولا يمر فيها إنسان أبداً. أماكن لا تتوقع وجودها ولا تتقن لغتها، وفجأة ومن النظرة الأولى تعشق أهلها، تماماً كما حدث بين كريستوفر كولومبس والهنود في أول لقاء بينهما. وحين صورت هذا المشهد في فيلم ١٤٩٢ للمخرج ريدلي سكوت وجدتني أنفجر غريزياً بضحك هستيري طويل، لم يكن ذلك مقرراً في السيناريو، مع ذلك قرر ريدلي الاحتفاظ باللقطة. كان شيئاً جميلاً، جميلاً كالولادة الجديدة، حيث ينهض الناس أخيراً بعد حياة طويلة من الخنوع والنوم. نعم كانت الأرض مدورة، وفي الجانب الآخر من الأرض، خلف البحار، لم يكن ثمة جحيم ولجج كما كانت تزعم الكنيسة.

-: حياتك المفرطة هذه، ليست وليدة الأمس...

-: هكذا أنا منذ صباي الباكر، لم أتغير، كبرت في السن ولم أتغير. المبالغة هي ذاتها، والثورة هي نفسها، كذلك الرغبات والأمنيات....

-: رفضت بشكل صريح منذ عشر سنوات هذه الكلمة «شره»....

-: نعم، لأن الآخرين كانوا يقولون: «أنت تعمل كثيراً، إذن أنت شره». ولكن لا! فأنا لا أعمل ولو كنت أعمل لما أنجزت هذا الكم من الأشياء. كنت أعمل حين كنت في فترة التدريب في المطبعة، وحين كنت منقذاً على الشواطئ. لكن في السينما أو في المسرح أنا لا أعمل. بل أعيش! حتى في بداياتي في مسرح جان لوران

كوشيه، لم أكن أفكر بالعمل. لو كنت فكرت للحظة واحدة في العمل لكنت توقفت. أنا مفعم بالحياة، وإليك الكلمة الصحيحة: مفعم بالحياة! لست شرهاً ولا أهرب من شيء. أنا مفعم بالحياة، عاشق للحياة...حتى التخمة. انظر، لدي الكثير من المشاكل في حياتي الخاصة، ولكن ليس لدي أبداً أي مشكلة في وسطي المهني.

-: مفعم بالحياة، أوافقك الرأي، ولكن هناك مبالغة أحياناً. أنت شبيه بالشخصيات التي ابتدعها الكتّاب الروس العظام كتولستوي وديستويفسكي.... كتب أحد الصحفيين قائلاً: «ديباردیو هو شكسبير المغالاة وعنف المشاعر، هو بلزاك الأسرار والمال والأعمال والأقاليم وشبكات الصداقة، هو هنري ميلر في جانبه العملاق والأبيقوري نسائياً وكحولياً وسفراً ومغامرات». ترى هل يناسبك مثل هذا الوصف؟

-: إنه متملق، لكنه صحيح تماماً. ربما ينقص هذا الوصف، الجانب الصوفي عند ديستويفسكي. في الأخوة كارامازوف هناك أليوشا وإيفان وديمتري، أنا هؤلاء جميعاً على أقل تقدير. أنا شغوف بالسلوك الروسي: المغالاة في المشاعر والعنف في الأحاسيس. نعم أنت على حق، فأنا أجد نفسي في بعض شخصيات تولستوي المغالية. في مسرحية بيتر هندكه (الناس الحمقى في طريقهم للفناء) أرادت إحدى الشخصيات أن تثبت أنها قادرة على الخداع بقناع الحب، أنا أيضاً قادر على ذلك، وربما لهذا السبب لم أذهب إلى الجندية. وحسب تشخيصي لوضع العسكر أقول أنهم مصابون بمرض الانفعال المفرط. لا يمكن تعبئتي حتى في الحرب الذرّية!

-: ما هي رغبتك اليوم؟

-: أرغب في الاستمرار. وغالباً ما ينسب إليّ بأني لا أستطيع أن أموت قبل أن أنهي الفيلم الذي أشارك فيه. كذلك لا أستطيع أن أموت بسبب وجود روكسان وجولي وغييوم ووالدتهما اليزابيت، وأيضاً كارول وأطفالها وأيضاً هناك كارين.... لكل هذه الأسباب جميعاً، مرّت الأمور في سلام بشأن الأسلاك التي زرعت في جسدي. بيكاسو هو الآخر كان يعمل طوال الوقت، (يشير إلى صور بالأبيض والأسود على الحائط فوق مكتبه لجياكوميتي في أثناء عمله الخلاّق) جياكوميتي كان يعمل طوال الوقت، براك كان يعمل طوال الوقت.... لم يَلُمْهُمْ أحد ولم يعاملوا كأناس شرهين! حسناً، انظر أنا أيضاً أعمل طوال الوقت، هذا ما في الأمر! وكما تعلم توفي والديّ وهما في ميعة الشباب. توفيا من دون أن يفهم أحدهما الآخر، وأنا لا أريد أن أموت من دون أن يفهمني الآخرون. ولهذا فأنا أتبع الطريق السليم وأتقدم، وليس فيما ذكرت أي مأساة. المأساة الوحيدة هي في عدم التوصل إلى التخاطب بالشأن اليومي. أنا مثل ورقة النشّاف: أمتص كل شيء وألفظه على طريقتي، ولم يحدث أبداً أن استيقظت مخاطباً نفسي «هيا، عليك إنجاز هذا العمل»، فقط أنجز أعمالي لا أكثر ولا أقل!

-: أين هو «منزلك» بالضبط؟ هل هو في هذا الفندق الخاص بالدائرة ١٦ في باريس؟ أم في المطعم الذي افتتحته العام الماضي في لافونتين غايون؟ أم في منزل كارول بوكيه؟ أم في مزارع الكرمة في آنجو؟

-: بيتي الحقيقي الذي تسألني عنه هو فوق دراجتي النارية (ماركة يماها ١٣٠٠ سنتم^{٣})، حيث أشعر حقيقة بأني على سجيتي وعلى حريتي في الهواء الطلق. أنام أحياناً في منزل كارول أو في الفندق، لكني في غالب الأحيان أنام فوق دراجتي، وأنام في مكتبي هذا وسط أغراضي وكتبي المفضلة....

-: ظننت أنك سئمت من غرف الفنادق إلى درجة عدم فتح الحقائب؟

-: الحالة هي نفسها باستمرار. تقريباً لم يعد لدي حقائب. منذ فترة أسافر ويداي في جيبي. أشتري أغراضي مباشرة. ولكن بالفعل، سئمت من غرف الفنادق. في الغالب يكون الفندق مناسباً في نهاية يوم من التصوير، وتكون وحيداً، لا أتحمل هذا الوضع، ثم أني أخاف من نفسي في غرفة الفندق. لا أكون في سلام مع جسدي، أمقت سماع أنفاسي وضجيجي الخاص.

-: عذراً إن طرحت هذا السؤال الشخصي عليك، ولكني أسمع جلبة في البيت؟ هل هناك أناس آخرون يعيشون هنا؟

-: نعم، نعم (يضحك). أؤجر البيت لآخرين، مجاناً. هل فاجأك الأمر؟

-: لا، ولكن من تؤجر الآن، إن لم يكن هذا تطفلاً مني؟

-: في هذه اللحظة توجد فانيسا، وهي طالبة شابة ومعها صديقها لوران وهو من أصل سينغالي. وهذا الأمر في تبدل. هنا استراحة السعادة، واحد يروح وآخر يجيء! (يضحك).

-: هل هذا ببساطة، حباً بالآخرين أم هو الخوف من الوحشة؟

-: أحب أن أكون وحيداً، لكني أيضاً أحب كثيراً سماع الضجة في المنزل، ضجة الحياة. العزلة لا تخيفني واللحظات التي عشتها في صحراء موريتانيا في أثناء تصوير فيلم (حصن ساغان) هي من أجمل لحظات حياتي. هناك بدأت أفهم، وشرعت في تطويع هذه الشراهة التي أتينا على ذكرها منذ قليل. كان الأمر صوفياً إلى حد ما، ليس في المعنى الديني للكلمة. أعني ببساطة الإصغاء للآخر والابتعاد عن التفكير في الشر، بل الاستغراق بأمور الحياة البسيطة، والسلام الداخلي والتسامي.

-: الهدوء، السلام الداخلي...هذه كلها لا تتلاءم مع طبعك على الإطلاق، فأنت القائل ذات يوم: «أحياناً أثير الفضائح والأفعال المجنونة، وأتصرف بنزوة نجم سينمائي لا لكسب امتيازات بقدر ما هي رغبة في بث الفوضى والإزعاج، فالممثل المتبرجز هو ممثل منته». هل ما ورد في أقوالك هذه يعبر عنك الآن؟

-: نعم، نعم على الرغم من سنواتي الخمسين أراها الآن صحيحة. أعشق بثّ الفوضى لاستجلاء الأفضل عند الآخرين، لبعث الحركة فيهم وخاصة الممثلين الشباب والمؤلفين الشباب والمخرجين الشباب. وفي الحقيقة كنت أمارس الشيء ذاته مع كبار السن! ليس بدافع الإثارة بل بدافع الحب وكنوع من المشاركة... أنا شخصياً إنسان مفرط في انفعالاتي، في المعنى النفسي للعبارة. أتمنى لو كنت سطحي التفكير. ساعدني التحليل النفسي في إقامة أفضل العلاقات مع الآخرين وفي ترجمة أحاسيسي ومشاعري إلى أفعال، وأسهم أيضاً في تهدئة خواطري. ترعبني عدم القدرة على التواصل، يخيفني الجهل...

-: هل تصبح أحياناً، على سبيل المجازفة، في غاية الإزعاج لمن يقطع عليك الطريق؟

-: نشأت وأنا أخاف أن أزعج أحداً. واستمراراً للهروب من الجهل والجمود، تعلمت وأنا فتىً صغير أن أكون كالحرباء. منذ صباي كنت أردد ما ينتظره الآخرون مني. كنت أدرك بالفطرة ما كان يود الآخرون سماعه وما كان يرغبون في رؤيته. كنت صاحب موهبة حقاً في هذا الشأن، وأعتقد بأن هذا الشيء هو الذي دفعني للعمل في السينما. وبدءاً من اللحظة التي يخاطر فيها المرء بنفسه، تبدأ بالضرورة الرغبة في الاستمتاع.

شخصياً، كانت لدي رغبة خاصة في إضحاك الآخرين وإبكائهم، أي التصرف بطريقة تنسي الناس بؤسهم اليومي. وأتذكر بداياتي في التمثيل وكم كنت مزعجاً للغاية، وبعد ثلاثين عاماً لا زلت أذكر أسماء النقّاد الذين أصابوني بسهام نقدهم. خذ مثلاً جان جاك غوتييه، وكنت حينها أؤدي دوري في مسرحية إدوارد بوند «الناجي Saved»، ذكر جان في مقال له يشرح فكرته في سرعة ودون تدقيق لأنه في الحقيقة كان يخلط بيني كممثل وبين الشخصية التي كنت ألعبها وهي قاتل أطفال. وفي السنة ذاتها مثّلت في (غالاباغوس) لجان شاتينيه، وكتب غوتييه نفسه: «شاهدت ولادة ممثل أمام ناظري».

-: هل لا زلت تقيم وزناً للنقد حتى اليوم؟

-: كلا. أعتقد بأني لم أعد أهتم بالنقّاد. ربما لأني كثير الأشغال. في الحقيقة هم على حق حين يفضلون الاهتمام بجولي أو بغييوم، جيل الشباب، على أي شيء آخر. وللأمانة أقول إن النقّاد ليسوا همي الرئيس.

-: جميع الفنانين بحاجة لمن يتحدث عنهم، ولا بأس بالكلام المعسول...

-: كلا، أنا شخصياً أمارس مهنتي لأعبر عن نفسي لا لأكون موضوع احتفاء. كنت أنشغل بالتفكير في فترة من حياتي عند قراءتي للنقد. والآن أقول، لقد مضى هذا كله منذ زمن بعيد. ومن جهة أخرى أخبرك بأن الصحفيين لم يسيئوا فهمي، لأن كتاباتهم، هي طبق الأصل عني، وعندي كل الحسنات وكل السيئات التي ألصقوها بي، وبما أن السيئات أكثر من الحسنات فمن النادر أن يأتي الوصف مجاملاً. (يضحك). من جهة ثانية أعتقد بأني أكثر تقديراً وشهرة في الخارج من فرنسا.

-: قال عنك بيرنار بلييه: «جيرار لا يهمه ديباردیو النجم...».

-: إنه يعرفني جيداً. فأنا لا يعنيني كوني ممثلاً ونجماً ومشهوراً، وليست سعادتي في كوني جيرار ديباردیو بل لأني أعيش، وأعيش بشكل جيد. أهيم بالحياة وأحب الآخرين إذ لا يمكنني أن أكون أنانياً.

الفصل الأول

قصة من فرنسا

«أيتها السماء، ماذا أقول له، ومن أين أبدأ؟»
راسين، فيدر (الفصل الأول، المشهد الثالث)

باريس، ٢٢ نيسان ٢٠٠٤، منزل جيرار ديباردیو، شارع لوكونت دوليل.

-: لوران نيومان: لقد مرّ أكثر من عشر سنوات بقليل على مشاركتك في كتابة سيرتك الذاتية، التي كان الصحفي الأمريكي بول شوتكوف يتمنى كتابتها بعنوان (ديباردیو، سلسلة كتاب الجيب). هل كان من الملائم وأنت آنئذ في الأربعين كتابة سيرتك الذاتية؟

- جيرار ديباردیو: هذا صحيح، صحيح كانت لدي ذكريات حينها، لكنها ربما لم تكن تستحق بعد التدوين، لكن بول كان عنيداً مثلك إلى حد ما. كان يريد كتابة سيرتي بأي ثمن كان، وفي تلك الأثناء، أعادت الصحف الأمريكية نشر مقابلة قديمة لي، كنت ارتكبت فيها خطأ حين ذكرت فيها حادثة اغتصاب، اغتصاب كنت شاهداً عليه حين كنت في التاسعة من عمري. بالطبع أراد بول أن يثبت أن تلك الحملة الصحفية المسعورة كانت تسعى فقط للنيل من سمعتي والحؤول دون حصولي على جائزة أوسكار أفضل ممثل عن دوري في فيلم (سيرانو دو بيرجراك). كان على قناعة تامة بما يقول، ولهذا وافقت أخيراً على التعاون معه في الكتابة..... تجدر الإشارة بأن الأمريكيين لديهم مواهب رائعة في كتابة السير الذاتية. كان يتقصّى معلوماته أينما كان، فكان يسأل الصحافيين ورؤساء التحرير عن السبب الجوهري لتحطيم سمعتي من دون محاكمة، وأخيراً توصل لأن يثبت بكل وضوح أن كل الذي جرى لم يكن سوى مونتاج غير دقيق صمّم لإلحاق الضرر بي. وأكثر من ذلك، أستطيع أن أقول لك اليوم وبكل هدوء، إني لو التقيت بذلك الصحفي من نيويورك ماغازين، والذي كان السبب في كل هذا الكم من الحقد، سأنتف له شعر ذقنه! لقد لمحته منذ فترة قريبة في أحد مهرجانات السينما، وبعد لحظة وجدته يتسلل هارباً، كلينت استوود ربّت على كتفي ضاحكاً وهو يقول: «انظر إنه ريتشارد كورليس من التايم ماغازين»، وأجبته: «انظر إليه كيف يهرب».

-: ما هي حقيقة حادثة الاغتصاب هذه؟

-: تضافرت فيها مجموعة أشياء، ومصادفات غريبة، وإن شئت أيضاً هي إدارة حقيقية لإلحاق الأذى بالآخرين. في البداية كان خطأ في الترجمة للمقابلة التي أجريتها في أثناء عملي في فيلم (راقصات الفالس) في السبعينيات، كذلك هي حماقة مني لأني لم أكن أحسب حساب أقوالي! تحدثت في تلك المقابلة عن حوادث الاغتصاب التي كانت تجري حين كنت طفلاً صغيراً، وهي لا تزال تجري، من دون شك، حتى الآن في الاحتفالات القروية، عندما يشكل الرجال عصابات مع بعض الفتيات المتراخيات، وهذا لا شأن له باغتصاب يتم في قطار الضواحي أو بتلك الفتيات المسكينات ضحايا الجسور والأنفاق في المدن. كلا، إنهن فتيات يشكّلن

جزءاً من العصابة. وفي إحدى أمسيات هذا العالم الصغير، جرعة واحدة يشربونها تزيد عن الحد المعهود فيصبح الجو حامياً، وهكذا... وهذا لا يبرر، لكن هذا النوع من القصص كان يحدث في شاتورو ومن دون شك في غيرها. طلب مني أن أصرح بأن هذه القذارات كانت أمراً طبيعياً: لكني لم أقل شيئاً من هذا القبيل: بل فقط قلت إنه شيء يتكرر باستمرار، ويا للأسف كانت تلك هي الحقيقة.

-: هل شاركت أم كنت شاهداً فقط على هذه الأمور، حين كنت شاباً صغيراً؟

-: لا، بالتأكيد! كيف تريد ذلك؟ كنت في التاسعة. كنت أعلم بوجودها، هذا صحيح. لكن هذه النزهات لم تكن تستهويني على الإطلاق. لم أكن حاذقاً فيها، حتى في مراهقتي كنت محباً للتأمل بصحبة الفتيات، في المقابل أعرف أن بعض الناس، تدفعهم مثل هذه القذارات إلى الضحك الشديد، وبالنسبة إليهم كانت الأمور بسيطة للغاية: الفتاة جزء من العصابة وافقت أم لا، لا يهم! تذهب إلى «الطبخة» لأنها جزء من العصابة. أعتقد بأنهم لم يحسبوا أي حساب لفضائحهم وهكذا الفتيات اللواتي كنّ يخضعن لهذا النوع من الانتهاكات، كنّ يبقين أغلب الأوقات داخل العصابات.

-: لماذا في اعتقادك أعادت الصحف الأمريكية نشر تلك المقابلة وعملت على إبرازها؟

-: بدأت الأمور في ٤ شباط ١٩٩١ قبل جائزة الأوسكار بعدة أشهر. كنت في سباق للانتهاء من تصوير فيلم (سيرانو دو بيرجراك) لجان بول رابينو، وكنت نلت حديثاً جائزة الغولدن غلوب Golden Globe كأفضل ممثل. كانت جائزة الأوسكار تدور بين جيريمي إيرونز وفيلمه (سر فون بيلوف) وبين كيفن كوستنر وفيلمه (رقص مع الذئاب) وروبرت دونيرو وفيلمه (المحررون) وريتشارد هاريبس وفيلمه (الحقل) وبيني. في ذلك الحين خصّني ريتشارد كورليس، الناقد السينمائي في التايم ماغازين، بمقابلة مطولة رجع فيها إلى مقابلة لي عام ١٩٧٨ وإلى حادثة الاغتصاب تلك. وعلى الفور استولت النيويورك بوست على القصة، كذلك الحركات النسائية في أمريكا، وبخاصة المنظمة الدولية للمرأة، واختلطت الأمور. وفي لندن أرسلت الديلي ميل إثنين من الصحافيين إلى شاتورو للتقصي عني ولجمع الأخبار عن فترة شبابي، وعادا بعدها للصحيفة بمقالة عنوانها: «ديباردیو: ترى هل هو أشهر مغتصب في فرنسا؟». استمرت الحملة الصحفية أسابيع عدة، وخسرت أنا الأوسكار....

-: ذكر البعض أنها كانت مؤامرة إعلامية من مجموعة تايم – وورنر مالكة تايم ماغازين، ومنتجة فيلم (سر فون بيلوف)....

-: كان هذا أيضاً رأي بول شوتكوف في نهاية بحثه. ما أعرفه هو أني اعتذرت وطلبت المغفرة، لكن ذلك لم يتحقق لي، ودفعوني إلى الحضيض، وخسرت الأوسكار. التقيت منذ أيام بـ ستيفن سبيلبرغ وعرضت عليه ما يجول في داخلي وقلت له «أحبكم وأود فعلاً أن أعمل معكم لكن لا أود المجيء إلى بلدكم، فما فعله بي الأمريكيون بقذاراتهم بدافع الإيديولوجيات الدينية السخيفة هو شيء مقرف».

-: لماذا التقيت بـ ستيفن سبيلبرغ؟

-: تناولنا الغداء سوية في باريس وكان معنا دانييل دوتوي. كان يريد معرفة رأيي في تان تان. أخبرته بأني لا أحب تان تان كثيراً، فالمرء مع تان تان يشعر بالفاشية والنزعة الاستعمارية. قهقه ضاحكاً! أنا لست مع

ذلك الفتى ابن السابعة عشرة، الذي يحسب نفسه شرطياً أو صحفياً يريد إصلاح كل العيوب. في النهاية أنا أفضّل الكابتن هاد دوك، والأستاذ عباد الشمس أو حتى كاستافيور. قال لي بعدها: «إذن لا تزال غاضباً من أمريكا؟» أجبته: «كلا، أنا لست غاضباً من أمريكا، بل من أساليب هوليود المزعجة لي!».

-: معاناتك مع هوليود شبيهة، إلى حد ما، بمعاناة جين سيبيرغ التي عزلت إثر اتهامها بممارسة الحب مع أحد أفراد الفهود السود، أو كما حدث مع انغريد بيرغمان التي استبعدوها بسبب علاقتها مع روبرتو روسيليني....

-: ثمة شيء من هذا. بيرغمان وروسيليني، في نظرهم، كانا يمارسان الخطيئة. وكان هذا الأمر شيئاً فوق الاحتمال لجماعة المحافظين في هوليوود. والآن وبعد أربعين عاماً، لم يتغير أي شيء في التزمت الأمريكي، وهذا يرعبني! حينما ذكرت كلمة «اغتصاب» انقضّت علي وسائل الإعلام الأمريكية وانهالت بسرعة وعنف، من دون أن تحاول معرفة ما حصل وفهم ما جرى. إنهم على استعداد، عن طريق هذه الحملات المشبعة بالكراهية، أن يدمروا أي إنسان، حتى رئيس الولايات المتحدة، انظر ماذا جرى مع بيل كلينتون! بسبب مداعبة خفيفة في المكتب البيضاوي، استدعى ذلك محكمة عليا. اضطر للتعبير عن ندمه على شاشة التلفزيون وأمام الملايين من الأمريكيين. في تلك الأثناء كان جورج بوش يكتشف أسلحة الدمار الشامل ويقدم براهين خاطئة معلناً الحرب رغماً عن القانون الدولي، من دون أن تتحرك مشاعر وسائل الإعلام الأمريكية الهائلة. إنه شيء عجيب، أليس كذلك؟ وسوف ترى كم سيعاني جون كيري، المرشح الديمقراطي للانتخابات الرئاسية، من جلاوزة بوش. وأنا متأكد أنه من الآن وحتى تشرين الثاني المقبل ستنبش وسائل بحثهم القذرة في حياته الخاصة. ينتابني شعور بأن الجماعة المحيطة ببوش قادرة على فعل كل شيء...

-: لكن شعبيتك لا تزال كبيرة في الولايات المتحدة...

-: هذه الشعبية هي انتقام لي. طلبت قنوات التلفزة الأمريكية بإلحاح شراء أعمالي (مونت كريستو، البؤساء، نابليون...) ويعرض من أعمالي ما يقارب المائة فيلم عبر شبكات الكابلات. ومنذ فترة قصيرة، أفردت صحيفة الصانداي تايمز سبع صفحات للحديث عن مطعمي. تعال للغداء في لافونتين غايون وسترى المكان مليئاً بالأمريكيين! تماماً بعد انتهاء مهرجان كان وخلال خمسة عشر يوماً (كانتن تارانتينو، فرانسيس فورد كوبولا وابنته صوفيا حجزوا طاولة لهم في المطعم) أليس في هذا أي دلالة؟ صحيح بأني لا أحب هوليود وتزمتها الكريه، لكني أحب أمريكا أو بالأحرى بعض أمريكا.

-: حين كنت أقرأ في سيرتك الذاتية التي كتبها بول شوتكوف ولاسيما ذلك الاستعراض الطويل لطفولتك في شاتورو، كنت أخاطب نفسي بأن الصحافة، ربما، شوهت صورتك حين جعلت منك سوقيّ السينما الفرنسية، ذلك الصبي القذر، السارق، المهاجم، الوجه المألوف عند القضاة ورجال الشرطة، لكني تساءلت إن كنت أنت لم تزد الأمر سوءاً من خلال مقابلاتك.

-: لكن لا. لا شيء من هذا. نشأت في بيئة فقيرة، ومنحني أهلي أهم شيء: الحرية. لم يحظروا أي شيء علي. والدي لم يكن يحسن الكتابة والقراءة. كان يعبّر عن نفسه بكلمات صوتية، كان، طيلة حياته، يوقّع

بالحرفين (د.د)، ولم يستطع مساعدتي في واجباتي المدرسية، وفي المقابل كان ذا موهبة عظيمة في العمل اليدوي. لاليليت بدورها، كانت منشغلة على الدوام بأمور البيت وبأطفالها الستة، والعناية بهم على مدار الساعة. أنا كنت تقريباً الطفل المرعب في الحي. لم تكن تربيتي سيئة، بل لم أتلق أي نوع من التربية. في إحدى المرات، ولم تتكرر، كنت الأول في صفي، أردت أن أثبت لأستاذ المدرسة بأن من كان معتاداً على المركز الأول في الصف، كان أكثر غفلة مني. لكني أدركت على الفور بأن مكاني في الدرجة الأولى سيضجرني. كنت أفضّل البقاء متوارياً، انظر إلى الآخرين.

-: هذا لم يمنع الصحافة الفرنسية منذ البداية، وبعد عرض فيلم بيرتران بلييه (راقصات الفالس) من وصفك بفتى السينما الفرنسية الشرير، الذي عاش حياة ماجنة وقام بالسطو والسرقة...

-: أعتقد أن صورة الفتى الشرير هذه تعود إلى فترة دروسي في المسرح مع جان لوران كوشيه، الذي شهد وصولي كقروي سيئ التهذيب، في السابعة عشرة من عمره تقريباً، صامت، قادر على التحكم بنظرته، مع عنف حقيقي مرتسم في عينيه، ووشم يغطي ساعديه، وشعر أشقر باهت.... أضف إلى هذا، أني كنت فاقداً للنطق تقريباً. لكن كوشيه، شخصياً، كان يفهمني. مثلاً كنت الوحيد الذي يسمح له بالتدخين خلال البروفات. كان يشعر بحاجتي إلى الفضاء وإلى الحرية. هو الذي أطلقني، وهو الذي أطلق لساني...

-: ولكن من جانبك ألم تمارس دور المتمرد ذي الشعر الطويل تخليداً لأسطورة الشاب الجانح الذي أنقذه عمله في التمثيل؟

-: الأمر أشد تعقيداً من هذا. كان الصحفيون يطرحون علي الأسئلة، لكن أجوبتهم كانت معدة سلفاً. كانوا قد ألصقوا بي مسبقاً إحدى الصفات وقيدوني في قالب ما. وبفطرتي كنت أدرك ماذا ينتظرون مني، وعلى الفور منحتهم ما أرادوا. هل كانوا يريدون صبي الشوارع القديم في شاتورو؟ أعطيتهم صبي الشوارع ذاك!

-: أخشى أن أخالفك الرأي أحياناً، فمثلاً في عام ١٩٧٧ أجريت مقابلتين مع صحيفتين مختلفتين والفاصل بينهما عدة أيام. ذكرت في صحيفة فرانس سوار ما يلي: «ماضيّ لا يشكل أي عبء علي»، وفي صحيفة ماري كلير أكدّت عكس ذلك حين قلت: «طفولتي المشاغبة، لا تبارحني، إنها كنسمة هواء وسط مشهد يدور في جميع الاتجاهات، لا هدف له سوى النجاح وتقديس المال». ترى أين هي الحقيقة؟

-: الحقيقة هي بالتأكيد، أن ماضيّ ينطق بحالي، لكن ذلك الماضي لا يعيقني عن متابعة طريقي، إنه حاضر هنا يساعدني على النجاح، وأحياناً يعينني كثيراً في أداء بعض الشخصيات. أنا الآن في الخامسة والخمسين وقريباً سأكون في السادسة والخمسين وأستطيع أن أخبرك بما حدث معي من أشياء. مثلاً حين كنت أتسكع في الشوارع وأنا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، كنت ألتقي بمعتوهين وبالبارجو V R P كما في فيلم دوراس (ناتالي غرانجيه) وبرجال يحترقون كالحطب على طريقة لينوفانتورا، يريدون أن أمارس معهم أشياء فاسدة. كان شيئاً مرعباً لكنه لم يؤذني أبداً وكانت أذيته أخف من أسئلة الصحافيين في بداياتي المهنية. لا شيء من حياتي السابقة جمدني أو أفزعني، بل بالعكس فالحياة كانت هكذا! وفي أيامنا هذه ينطلق الممثلون في عملهم مجردين من أية تجربة في الحياة. أغلبهم لا يعرف شيئاً عن الحياة، ولكن بالطبع هناك استثناء بينهم

كغييوم أو جان بول روف، صاحب سلسلة روبن الغابات، وهو رجل كريم من شمال فرنسا. إليك مثلاً، آلان ديلون، فهو قبل أن يعمل في مهنة التمثيل التي اشتهر بها، كان قد أدى خدمته الإلزامية في الهند الصينية، هذه الخبرة تمنح الإنسان قوة. إليك أيضاً، غابان، ريمبو، فانتورا هؤلاء الثلاثة، كانوا قد خبروا الحياة قبل أن يعملوا في السينما! واليوم لا يتم الاحتكام سوى لستار أكاديمي يضعون أولاداً في سن العشرين أمام كاميرات التلفزيون، ثلاثة اشهر يوهمونهم بعدها أنهم قد أصبحوا فنانين. شيء محزن! هل تذكر ذلك المشهد في فيلم (لباس السهرة) إذ كنت أقول: «سأمارس معك اللواطة، سوف تستمتع، محاولتك الأخيرة لن تستطيع مقاومة الإغراء، ولكن تكون بحاجة لطلب النجدة». على المرء أن يكون ذا خبرة كبيرة في الحياة ليقول أشياء كهذه. ما يزعجني أن الآخرين جعلوني على الفور مطابقاً للشخصيات التي كنت ألعبها. بعد انتهائي من العمل في فيلم (راقصات الفالس) شبهني الناس بجان كلود، وبقيت الدكتور بيرغ في تفكير الجمهور الواسع بعد عملي في فيلم (سبعة موتى على التوالي)، وبعد فيلم (لباس السهرة) اعتقد الجميع بأني بيديه!

-: هل صحيح أن الجمهور، في أعمالك الأولى في السينما، كان مضطرباً من العنف الذي كنت تمارسه، حتى إن بعض الصحفيين وصف ذلك «بالهمجية» و«الوحشية».

-: ولكن أنا هكذا. إن أزعجني قذر ما أدخلته في.... (يشد على قبضتيه وعلى أسنانه) ولو اضطررت لأن أموت. لا يهمني الخروج منتصراً من أية مواجهة، بل هي المواجهة ذاتها. تبادل اللكمات نوع من الانتشار.

-: لا بأس، أرى أن الأمور تعود ثانية وأنت متوتر...

-: ربما هي أقل صحة الآن ولكن أؤكد لك أني كنت هكذا. لا تنسى بأني كنت فاقد النطق تقريباً، وإلى اليوم لا ينبغي أن يعوّل علي كثيراً!

-: يجري التعامل معك اليوم كأحد المعالم الوطنية، وحتى يقال إنك تشكل جزءاً من الإرث الثقافي الفرنسي، وأنك تشكل جزءاً صغيراً من العلم بألوانه الأزرق والأبيض والأحمر. أتصور ليس من السهل، بأي ثمن كان، مقارنة هذه الصفات بصورتك عند الآخرين.

-: في هذا الأمر، معك كامل الحق. في فترة ما، كان هذا الأمر صعباً للغاية، ولكن هذا كله انقضى وانتهى كل شيء. أصبحت هادئاً، غييوم كذلك ينطقها بملء فمه. كم قلت له: «غييوم، يجب أن تكون هناك مسافة بينك وبين كل ذلك، ولا شيء حقيقي في كل ما ذكر، وأنت لست كما تصفك الصحف. أولاً أنت هو أنت، وكما أنت، وفي حال كحالك، أنت كائن فريد». شخصياً حين كنت في الحادية عشرة قابلت في السجن طبيباً نفسياً استطاع، ربما، إنقاذ حياتي من دون أن يدري، فقد قال لي: «يداك يدا نحّات» فتقمصت على الفور دور النحّات وأجبته: «أنا لا أتقن الرسم حتى!» لا يهم، أجابني مستطرداً: لا حاجة لك إلى الرسم، أنت تعرف كيف تجبل وكيف تشكّل... استعدت الإحساس ذاته حين قمت بدور رودان في فيلم (كاميل كلوديل) مع إيزابيل أدجاني، كذلك حين رأيت نساء فينيسيا لجياكوميتي بأشكالها الطولانية الرائعة، فمن تراب الأرض وعركه بين أصابعه يتوصل جياكوميتي إلى منح الحياة لمنحوتاته. رودان أيضاً كان مجدداً في فنه، كان يقيم الصقالات ليتمكن من النظر إلى منحوتاته من كل الزوايا ومن الأعلى كذلك، وهذا ما توصلت إليه الحواسب الآلية على

شكل صورة 3D ، وكان هو اكتشف هذا من القرن التاسع عشر. باختصار حاول ذلك الطبيب النفسي أن يفهمني هذا الأمر الأساسي: «كن كما أنت». وأظن أنه فتح أمامي آفاقاً، على طريقته الخاصة.

-: عودة إلى طفولتك. يقال أن الإنسان هو قبل كل شيء ذلك الطفل الذي كان. هل يلائمك مثل هذا التوصيف؟

-: أجل إنه يناسبني. في أعماق نفسي، ومنذ أيام شاتورو، لم أتغير، ولا أزال كما كنت. ويا للغرابة فالشيء الوحيد القادر على حملنا لهجر الطفولة هو المدرسة والتربية، وتصبح التربية شيئاً محبطاً إن لم يجد فيها المرء جزءاً من طفولته. طفل غير عنيد تماماً، هو طفل غير حزين تماماً. هو حزين حين يرى كل ما حوله حزيناً، يظل في كامل عبقريته حتى سن الرابعة أو الخامسة، ومن دواعي حظي أن منحني هذه القوة أن طفولتي لم تبارحني أبداً.

-: غالباً ما وردت هذه العبارة على لسانك: «كنت محظوظاً لأني ولدت في عائلة فقيرة، أميّة وتقريباً قروسطية». بماذا تفسر هذا الحظ؟

-: كنت محظوظاً في حريتي وفي الحلم الدائم. حين أصيب والدي في أنفه وبدأ يتكلم كغجري أو إسباني كان الأمر بالنسبة إلي، وأنا في تلك السن، كغربة شاملة وغرق مطلق في الأحلام. كان شيئاً جميلاً أني لم أكن سوى صبي صغير، كان بإمكاني أن أفعل ما أشاء وحينما أشاء. أخرج بلا توقيت، أعاشر من أريد، أختبر الحياة على طريقتي.... الحرية المطلقة. كان ذلك حظي وثرائي الحقيقي.

-: لنبدأ من البداية. ولدت في ٢٧ كانون أول ١٩٤٨ في شاتورو، في تلك المدينة الصغيرة في بيري، التابعة لإقليم زراعي مزقته الحرب والاحتلال الألماني (حيث وصلت قطارات اللاجئين من كافة أوروبا المحتلة). ترعرعت في ظل أسرة فقيرة، نخرها الكحول وعصفت بها كل الصدمات النفسية العاطفية...

-: لم أكن أحب فرنسا أيام طفولتي، فرنسا الطبقات، الفقراء من جهة والبرجوازيون من الجهة الأخرى. أنا ولدت بالتأكيد من جهة الفقراء، لكن لم يكن ينقصنا أي شيء. حتى في نهاية الشهر حيث لم يكن بحوزة أهلي فلساً واحداً، كان التجار يبيعوننا بالدين. كانت أمي ترسلني إلى بائع لحم الخيل والسلّة في يدي، أذكر هذا وكأنه حدث بالأمس، كان القصّاب يشبه نويل روكفير واسمه شافال. كنت أنتظر دوري وعيناي في حذائي، فجأة ينادي عليّ القصّاب أمام الجميع: «قل لوالدك أن يأتي ويدفع لي! – نعم، سيد شافال، سأقول له». لن أحدثك عن خجلي ومذلتي فيما عيون الزبائن مسمّرة علي. (يضحك) لكني لم أكترث للأمر، وحين يأتي دوري أطلب منه بصوت منخفض وأنا منزعج قليلاً: «٣٥٠ غرام من اللحم المفروم - كم؟» ويصيح هو بصوت عالٍ ليسمعه الجميع بوضوح: «٣٥٠ غرام من اللحم المفروم!»، وفي أول الشهر حين يقبض والدي راتبه أذهب وأصفي الحساب.

-: حدثني قليلاً عن أهلك، لو ديه ديه و لاليليت...

-: إنهم أناس غير عاديين. والدي كان حرفياً صانع صفائح حديد، ولد عام ١٩٢٣ في مونشو فرييه وهي قرية صغيرة. كان جميلاً وغييوم يشبهه كثيراً. كان أكثر ضخامة مني، رشيقاً مثل غييوم، عيناه زرقاوان مثل غييوم، أشقر مثله... لم يعرف سوى القليل جداً عن والده مارسيل ديبارديو. أعتقد أن جدي لوالدي أصيب بمرض في حرب

الخنادق في العام ١٤، توفي بعدها عام ١٩٣١. رأيت صورة له، كان شكل رأسه مضحكاً. حين وقعت هزيمة ١٩٤٠ فرّ والدي إلى سويسرا حيث أمضى جزءاً من الحرب داخل معسكر للاجئين.

لاليليت ترجع في أصولها إلى منطقة جورا، كان اسمها أليس ماريه ولدت مثل والدي عام ١٩٢٣ وترعرعت في سانت كلود. جدها كان يملك مصنعاً صغيراً لصنع الغلايين، وّفر لها والداها سوزان وكزافييه ماريه، طفولة مستقرة. والدها، المرشد العسكري، كان قد نقل في بداية الأربعينيات إلى قاعدة جوية بالقرب من شاتورو، ولحقت به، بعد فترة قصيرة، أمها أليس وأختها كوليت. لو ديه ديه هو الآخر رجع إلى شاتورو إبان الاحتلال الألماني، وهناك التقى والدي بـ لاليليت، وقعا في حب عاصف وتزوجا في ١٩ شباط ١٩٤٤، وكانا في العشرين من العمر.... أتذكر أيضاً جدتي لوالدي وكانت ساحرة الجمال مع نظرة شفافة. كانت السيدة بي بي في أورلي، وكنت أمضي بعض العطلات عندها في المطار، ومن هنا من دون شك، شغفي بالطائرات. كان يتناهى إلى سمعي أصوات من بعيد تعلن: «الانطلاق باتجاه بانكوك» بانكوك! لم أكن أعرف حتى أين هي بانكوك! كنت أذهب أحياناً إلى خالة بعيدة عن لاليليت، في إحدى المزارع حيث أقوم بحراسة البقرات مع البعض من DDASS. هذه بعض الأشياء التي لم تتغير في حياتي: أجد السعادة حيثما أتوجه، والآن أيضاً حين أكون في رحلة رسمية مع شيراك، أو في مزارع الكروم في آنجو أو في أحد المقاهي مع أصدقائي، أحس بالرضا أينما كان، وأعتقد بأن الناس يشعرون بذلك.

-: هل لهذا أي علاقة بالتربية؟

-: لا بل له علاقة بالحرية! ليس لي أي حكم مسبق تجاه أي إنسان، باستثناء السفلة والمزعجين. أرسل لي ذات يوم لوبين le pen كتاباً هدية استهله بكلمة إهداء «صديقي العزيز»: لكأننا كنا نرعى القطيع معاً! ألقيت الكتاب على الفور في سلة المهملات. قابلت في حياتي الكثير من شاكلته سواء من الشرطة ورؤساء العمال ونماذج بشرية كانوا يتصرفون مثل كابوس Kapos. ولا أزال اذكر أحد هؤلاء بشكل خاص، حين كنت أعمل منقذ شاطئ في غاروب على الشاطئ اللازوردي. كان يتكلم معي وكأني كلب أمامه، أمسكت برفش كبيرة طرفها حاد ورفعتها في وجهه مخاطباً إياه: «والآن إن حرّكت رأسك وتلفظت بكلمة واحدة، سأقطع رأسك». أرتج عليه ولم يحر جواباً. هل تعرف لماذا؟ لأنه كان يعلم بأني جاد في قولي!

-: لاليليت، أي نوع من النساء كانت؟

-: كانت امرأة قصيرة ورائعة، والدتها كانت مطببة كبيرة، وقد نشأ عن ذلك مشادات عنيفة في المنزل، لأن جدتي لوالدي كانت مشعوذة وتتنبأ بالمستقبل. كانتا تكرهان بعضهما، لأن جدتي لأمي كانت مريضة بالقرحة ولم تشفى منها وكانت تظن أن مشعوذة أخرى كتبت لها الأحاجي لإلحاق الضرر بها، ولك أن تتخيل ذلك المحيط، علماً أن جدتي هذه كانت هي الأخرى تتنبأ بالمستقبل. وقد قالت لي ذات يوم وكنت في الحادية عشرة: «ستصبح مشهوراً وسيعرف العالم كله اسمك ولن تتوقف أبداً». ويمكن القول إنه في عام ١٩٥٩ وفي شاتورو كان عليك أن تكون ساحراً كي تتنبأ بأمر كهذا!

-: كيف كانت حياتكم في تلك الفترة؟

-: في البداية كنا نسكن في ٣٩ شارع مارشال جوفر في حي الأملون في شاتورو. كنا نستأجر الطابق الأول ونعيش في تعاون مع أصحاب الشقة غاستون وميميت غوريا. بالطبع كانت كل عائلة في شقتها وفي تفاهم تام ومن دون أية صدامات ومن دون أن يغتاب أحدنا الآخر. لم نكن من طبقة اجتماعية واحدة، لكننا كنا نعيش جميعاً في وئام، وأمي كانت حاملاً على الدوام، ومع ذلك لم تنجب سوى ستة أطفال، وفي الحقيقة كان عددنا سبعة ولكن أحدهم توفي عند الولادة! والدي من جهته كان يعمل بجد طيلة الوقت حتى في أيام الآحاد. لم يكن يعرف كلمة «لا»، وأنا تعلمت هذا منه، وقد طال الوقت علي ولم أعرف كيف أقول «لا»، وحتى الآن لا يزال هذا المرض يلازمني....أظن بأن والديّ كانا يحبان بعضهما بصدق، ولكن كان ثمة شيء من المأساة في هذا الحب... تصور يا رجل أن جدي لوالدتي كان يتبادل القبل مع جدتي لأبي إميلين فولاتييه وكانوا ينادونها دينيز...

-: هل تريد القول أن والد أمك وأم والدك كانا عاشقين؟

-: نعم، وأعرف أن هذا شيء كالجنون، لكنها الحقيقة، وأنا لم أجرؤ مرة واحدة على التحدث في هذا الموضوع باستثناء طبيبي النفسي. وفي أحد الأيام عرفت لاليليت الأمر. أما لو ديه ديه فلم يكن يعلم عن الموضوع شيئاً. أظن بأن والدتي لم تستطع أبداً إخباره بهذه الحقيقة، وهذا ما خلق نوعاً من النفور بينهما، وفي الواقع تبخر الحب بين والديّ بسبب الأهل، إضافة إلى قصص الشعوذة والتنجيم بين المرأتين، والتنافس العائلي... كانت قصة حبهما تجنح نحو المأساة، ومع هذا كان بين الاثنين حب فريد. لاليليت لم تحب أي رجل آخر، ولو ديه ديه كان يعبد لاليليت، وشخصياً لست متأكداً أنهما تبادلا الحديث في ذلك، كانت تنقصهما الكلمات، كانت عائلة يعلو فيها الصراخ، لكن من دون أي حوار. أتذكر ذلك الصمت الثقيل اللانهائي، صمت يخيم على الحاضرين لدرجة أن ذهنهم ينشغل بأشياء أخرى. كان والدي يقضي ليالي بطولها لا يحرك شفتيه بكلمة، يجلس في كرسيه من دون حراك. فيما بعد قلدت سلوكه هذا في إحدى المسرحيات حين كنت أعمل مع كلود ريجي في مسرحية تناقش مرور الزمن. في الواقع أهلي لم يسكتوا، بل بالعكس فطريقتهما الخاصة في تبادل عبارات الحب كانت في إنجاب الأولاد! سبعة! وأنا شخصياً ولّدت أمي في حملها بكاترين....كنت في السابعة حين اتخذت دور القابلة، كان والدي مخموراً، وأنا أخرجت كاترين من بطن أمي، وفي السنة التالية تكرر الأمر مع أخي باتريك.... سبع سنوات، كان عمري سبع سنوات، أتدري معنى ذلك؟ فحين أقول لك أني انتقلت مباشرةً من الطفولة إلى الرشد، فهل تصدقني....

-: ولد آلان في أيلول ١٩٤٥، ثم هيلين في أيلول ١٩٤٧، وولدت أنت في كانون أول ١٩٤٨، ثم جاءت كاترين عام ١٩٥٥ وأخيراً جاء إيريك وفرانك وأصبحوا جميعاً إخوتك وأخواتك.

-: بصراحة أنا لم أعد أراهم أبداً تقريباً. هيلين تعيش مع زوجها باتريك بورديبه في بوجيفال على بعد خطوتين من منزل عائلتي، وقد تعاونت مع اليزابيت في تربية ولدينا جولي وغييوم. زوجها باتريك صديقي وقد عملنا معاً طويلاً، ولكني الآن أراهما أقل من السابق لا سيما بعد إجراءات طلاقي من أليزابيت. أخي آلان، لم أعد أراه، ولا أعرف أين هو! تكلمت مع هيلين بالهاتف منذ فترة قصيرة، وكانت تبكي على الطرف الآخر من

الخط، لأنها لم ترني منذ عشر سنوات... كانت تنشج وهي تخاطبني: «سماع صوتك يسليني، فأنا لا أعرف إن كنت لا تزال أخي أو أنك ذلك النجم السينمائي....؟»، ابنتها كانت تريد افتتاح بار وأرادت مشورتي، فطلبت منها أن ترسل لي الأوراق، كنت مستعداً لأن أعطيها مبلغاً صغيراً، لكنها رفضت في النهاية، كانت خائفة ومن جهة لم أكرر عرضي. في الحقيقة لا أعرف أي شيء عنهم، ولم أرهم منذ فترة بعيدة. إيريك تزوج من فتاة نيجيرية ولديه طفلان، وقد ذهبت لرؤيته في أثناء عملي في فيلم (الكولونيل شابير)، أعطيته مبلغاً من المال لأسعده، هكذا، واصطحبت ابنه دافيد عدة أيام إلى مكان التصوير، وبعد ذلك لم تصلني أخباره... ثم هناك فرانك الأكثر شاعرية بين أخوته. لم يرغب حتى في ذكر اسم عائلته، خشية أن يسأل عن صلته بي، لذا اتخذ اسم عائلة زوجته، وهو يعمل في الرسم المعماري....

-: أنا إن فهمت الأمر كما يجب أقول بأنك لم تر إخوتك خلال عشر سنين أو عشرين سنة، وإنك ستفاجئهم في أحد الأيام الجميلة محملاً بالهدايا على طريقة العم سام....

-: أنا في نظرهم رجل عالمي بامتياز، غادرتهم إلى بيتي الخاص في وقت مبكر جداً، عشت حياتي وعاشوا حياتهم، وحين يشاهدونني في التلفزيون أو في السينما، أظن أنهم يقولون فيما بينهم: «تفضلوا، هذا جيرار»، في الوقت نفسه أنا غريب عنهم باستثناء هيلين. لم يعد بيننا ذلك القاسم المشترك الكبير، لكنه الدم ذاته يجري في عروقنا، أنا شخصياً أشعر بالذنب بعض الشيء، لا أعرف كيف أجعلهم سعداء من دون أن أبدو أخرق. بين الحين والآخر أقدم بعض الهدايا إلى هيلين وأولادها، وكما تعلم من الصعب أن تعود بالإنسان ثلاثين أو أربعين سنة إلى الوراء.... أتذكر كم ارتفع رأس والدي فخراً حين منحني عمدة شاتورو لقب مواطن شرف المدينة، كان فخوراً بعودة الابن الضال.... جرى الاحتفال في دير قديم كان مأوى للدرك، حيث احتجزت ذات يوم، وقد أشار والدي ملمحاً إلى ذلك، حين خاطب كبار شخصيات المقاطعة: «هذا المكان لم يكن طيلة الوقت ديراً، إيه جيرار؟ أنت تعرف هذا المكان جيداً....» لسبب بديهي! (يضحك)

-: إذن كان يتمتع بحس السخرية.....

-: جان كارميه كان يعرف ديه ديه تمام المعرفة. كان فيه شيء من جاك تاتي، ولكن أكثر مأساوية منه. كان كوميدياً مع شدق كوليم هولدن، خطواته شبيهة بخطوات غاري كوبر. (فجأة يرن الهاتف المحمول.... يذكّر جيرار محدثه بشراء قطعة مجوهرات).

-: أخذت حب الأحجار الكريمة والحلي عن جدتي لوالدتي. كانت تصقل الماس والياقوت الأحمر. أحب كثيراً إهداء المجوهرات وهذا شيء جنوني لأنه مكلف للغاية. ليست الحلية بالضرورة عربون حب بل هذه ببساطة طريقتي الخاصة لأدعو الناس إلى اكتشاف أني أحب أجمل ما لديهم..... لكني ابتعدت عن موضوعنا.... أين وصلنا في الحديث؟

-: إلى شاتورو في الخمسينيات. أهلك وأجدادك... كثيراً ما قلت متفاخراً إنك لم تكمل دراستك، لكن إن كانت معلوماتي دقيقة فأنت أكملت دراستك بشكل طبيعي تماماً في مدرسة البلدة سان دونيز في شاتورو وحصلت على شهادة الابتدائية عام ١٩٦٢ قبل أن تدخل فترة التدريب في إحدى المطابع....

-: وزيادة على معلوماتك، كنت متقدماً على سني. حين تقدمت إلى فحص الشهادة الابتدائية كنت مع أستاذ المدرسة، لم يكن معنا أحد آخر. كنت في نظرهم تلميذاً يغش في الامتحان وصبياً أزعر، لأن الشرطة جاءت وأخذتني من المدرسة عدة مرات، كنت ارتكبت عدة أعمال نشل، ولكن انتبه: أنا لم أسرق سوى الأغنياء ولم أقترب من الفقراء أبداً، كنت مثل روبن الغابات. مهنتي الأساسية كانت التجارة مع الجنود الأمريكيين في مركزهم العسكري في شاتورو.

-: روجيه لوكاس، مدير المدرسة، كان يردد حينها هذه العبارة: «سيكون ديباردیو، إما قاطع طرق أو ممثلاً».

-: ربما قال «قاطع طرق» لكن «ممثل» لا أصدق أبداً أنه قالها، أو تراها شائعة كاذبة.

-: كيف عاصر أهلك بداياتك في التمثيل، أفلامك الأولى والشهرة؟

-: كان أمراً معقداً بالنسبة إليهم. السينما والعروض، كلها كانت أشياء غريبة عنهم تماماً. وأظن بأنهم تاهوا وسط هذا كله، وخاصة حين بدأ الصحفيون المتابعون للفضائح والباباراتزي تصوير لاليليت من دون علمها.... يا للمسكينة! احتارت ماذا تقول وماذا تفعل. بعد ذلك أصابها المرض وكانت مصابة بداء السكري وفقدت بصرها، خالفت التعليمات ثلاث مرات، والثالثة كانت قاضية. توفيت في عربة الإسعاف في أثناء نقلها إلى باريس، كنت خلالها أصور فيلم (مكان طريف للقاء) مع كاترين دونوف. ركبت أول طائرة للسفر إليها ولكننا أخطأنا الطريق فوق مون لوسون، واستأجرت سيارة استمريت في قيادتها ساعتين خلال الليل، وصلت المشفى مع تباشير الصباح، وكانت في مرحلة الغيبوبة. نقلت في سيارة الإسعاف، لكنها توفيت في الطريق قبل الوصول إلى باريس.... كانت شابة في التاسعة والخمسين...

-: والدك أيضاً توفي بعد أشهر قليلة...

-: بعدها بشهرين تماماً. مات مهموماً... كان مريضاً جداً، انتفخت بطنه كثيراً، وكنت أظن أنه يعاني من تشمع في الكبد. في الحقيقة كان مصاباً بسرطان الجهاز الهضمي. قال لي البروفسور لوسيان إسرائيل في مشفى ابن سينا في بوبينيي: «ماذا نفعل؟ قيل له إنه لن يتعافى من مرضه»، أجبته: «لا لم يقولوا له أي شيء». لاليليت كانت تعرف أنها ستموت، أما هو فلم يكن يعرف، ولم أستطع إخباره بذلك.... كنت أذهب لزيارته قدر المستطاع، مساءً بعد انتهاء موعد الزيارات. طلب مني أن أشتري له خفّين لأنه كان يصف نفسه بالمواطن العالمي. كان والدي شيوعياً، كان يبيع صحيفة الأومانيتيه في شوارع شاتورو.... كان يردد: «أنا لست حزبياً ولست فرنسياً، أنا مواطن عالمي».

-: هل كان يبيع الأومانيتيه في شاتورو مع وجود آلاف الجنود الأمريكيين المنتشرين في الشوارع.... إنه لأمر عجيب.

-: نعم فقد كان يقول لهم: «اتركوني في سلام! أنا مواطن عالمي، هذا كل شيء». هذا وينبغي أن نذكر الأمور في سياقها... من اختار لوتان، وإقامة قاعدة عسكرية في شاتورو (اعتباراً من نيسان ١٩٥١ فإن القاعدة الجوية لمارتينيري ستصبح مستودعاً هائلاً لاستقبال الطائرات ولوازمها من مصدرها في القاعدة الأمريكية في دايتون في أوهايو). في ذلك الوقت كان عدد سكان شاتورو ١٩٠٠٠ نسمة وإذا أضفنا إليهم الجنود الأمريكيين

يصبح العدد أكثر من ٣٠٠٠٠ نسمة. بعد أشهر عدة تحولت المدينة إلى الطابع الأمريكي، من البوب كورن إلى أنواع الحلوى والهامبرغر وفستق العبيد والجينز والـ (تي شيرت) وبارات G I، ومقاهي العراة والجنود في سيارات الجيب والروك أندرول... استعمروا أفكارنا. حشرت نفسي بينهم بشكل دائم حين كنت في السابعة أو الثامنة.... زيادة على ذلك كانت جيوبهم ملأى بالدولارات...

-: ألم تشاركهم سوى في الروك والبوب كورن؟

-: في بداية الستينيات حين كنت في الحادية عشرة أو الثالثة عشرة، بدأت تجارتي معهم. كان طولي ١٧٥سنتم ووزني ٧٠كغ... منذ سنوات أرسل لي أحد الجنود صورة تعود إلى تلك الفترة، وأظهر في الصورة بين اثنين من G I، بوبي وداني من على شرفة الفندق المطعم لوفيزان. كان مظهرنا في الصورة واحداً نحن الثلاثة، وكنت حينها في فترة تدريب في مطبعة المركز الصحافي... كنت أمارس كل أنواع التجارة المتاحة: ويسكي، سجائر... كنت أشتري القمصان الأمريكية (والدتي شيرت) وأبيعها في فندق فيزان بضعف أو ثلاثة أضعاف ثمنها، كنت أسرق صفائح البنزين من القاعدة، وكنت أجمع في ذلك الحين ما يقارب ١٥٠٠ رصاصة في الأسبوع. وكي أضعك في الصورة كنت حينها أقول: ديه ديه يكسب ١٢٠٠ فرنك في الشهر، وكنت أكسب في أسبوع ما يكسبه هو في شهر، ومن دون أن أتكلف مشقة كبيرة.

-: وماذا كنت تفعل بذلك المال؟

-: لم أدخر منه شيئاً. كنت أتصرف به، أقدم بعضه لأمي، والبعض الآخر لأصدقائي....

-: ألم تكن الوحيد الذي عمل في مثل هذه التجارة؟

-: آه، نعم! كنت تقريباً الوحيد القادر على دخول القاعدة. من جهة أخرى هكذا وقعت في الفخ، وأخذت تجارتي في التوسع: كنت أبيع الوسطاء بضاعتي من دخان وثياب وويسكي وهم بدورهم يبيعونها في الأرياف. أُوقِف أحدهم ذات يوم أمام حاجز عسكري وسلمني إلى الشرطة. كنت متورطاً مع المحكمة والبوليس في قضية مشاجرات أو سرقة سيارات، ولكن المشكلة هذه المرة كانت مع الجمارك! لم يعثروا على شيء خلال التفتيش، عندها أنكرت كل التهم، لكنهم اقتادوني إلى السجن بتهمة سرقة السيارات والهجوم المسلح... قضيت في السجن ثلاثة أسابيع، ينبغي أن أقول إنهم أوقفوني طيلة الوقت. وعند خروجي من السجن قررت التوقف عن دفع النفقات ومتابعة طريقي.

-: في هذه الأثناء، كنت تتردد أيضاً على نادٍ للملاكمة...

-: نعم، نادي جابلونسكي. كنا نجتمع في قبو، وكانت التمارين على أشدها، كنت ملاكماً ماهراً، وحافظت على صفة ملاكم مدّرب لعدد من الملاكمين الأمريكيين، لكن كانت لدي رهبة من المشاهدين وأنا على الحلبة، كنت سريع الانفعال، أضرب من دون إحساس، لم أكن أبصر شيئاً أمامي، أضرب في الهواء، وأخيراً أنتهي مطروحاً على أرض الحلبة. خفّ انفعالي المفرط لدى قيامي بأدواري على خشبة المسرح.

-: سأحرض ذاكرتك بهذا السؤال: بماذا يذكرك جاكي ميرفيي؟

-: إنه صديق رائع، بل تجسيد للصداقة. شاب طويل برأس أمريكية. كان شبيهاً بألفيس بريسلي، وكانوا يلقبونه ليمي كوشن لأن قبضته اليسرى كانت رائعة، بل قبضتيه معاً كانتا رائعتين. كان علينا الابتعاد عن

الخصام، وكنا غالباً في عراك مع عصابات منافسة لنا في الأعياد الخاصة بالأسواق الجوالة. معظم الناس كانت تعتبره شاباً سوقياً داعراً، وبالنسبة إلي كان متمرداً، وقبل كل شيء كان صديقاً مخلصاً. ذات ليلة، وكان ثملاً، سرق إحدى السيارات مع صديق له، ومرت السيارة فوق أحد الجسور ثم هوت فوق نهر الإيندر، توفي في الحال، وكان ذلك عام ١٩٦٨. كنت في يوم جنازته وكأني أدفن زمن شبابي في شاتورو... كانت نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة.

-: وجاكي غاليين؟

-: إنه الآخر صديق، وهو غجري يعمل نجاراً. صديق حقيقي كصديقي الجزائري تي تي الذي كان يلبس الأبيض على الدوام، والعصا في يده... في ذلك الوقت كان هناك الكثير من المرتزقة الحثالة، لكننا كنا دوماً إلى جانب الجزائريين. أيضاً أذكر ميلو الذي مات من تشمع الكبد وهو في السابعة عشرة، هل تفهم ما معنى هذا، سبعة عشر عاماً! جاكي ميرفيي، جاكي غاليين، تيتي وميلو... هؤلاء كانوا شلتي، كانوا عالمي.

-: صرحت في إحدى مقابلاتك ذات يوم قائلاً: «كنا جميعاً زعماء مزيفين لعصابات ذات شذوذ جنسي مكبوت». ماذا كنت تعني بذلك؟

-: آه نعم، بالتأكيد، ولكن كما في كل مكان، كانت العصابات تشكل حثالات وهناك آخرون يطاردون الشاذين، وحين تشارك في مثل هذا النوع من الظواهر، فهذا يثيرك! عصابات الرجال تتحول إلى كتلة من النذالة! أتذكر حين كنا مراهقين، كنا نجتمع داخل كوخ لنمارس هذه النشاطات.... تخيل المشهد! لا أحد يتكلم عن هذا الأمر، لكنه يجري باستمرار في الثانويات البريطانية. لهذا كنت غالباً أغيّر العصابة. لم أعد أحتمل هذه الاعتداءات التي لا معنى لها. أذكر أني كنت أرى الكرامة في نظرات هؤلاء الجزائريين أو الشاذين الذين كانوا يرتجفون خوفاً من أن يأتي أحد ويضربهم بالعصا.... أنا كنت أفضّل الدفاع عنهم.

-: هؤلاء الأصدقاء جميعاً، الذين تتحدث عنهم وكأنهم أخوة وأخوات لك، والذين لم تعد تراهم. كانت تلك حياة أخرى بالنسبة إليك....

-: حياة أخرى؟ آه، أجل، إنها الكلمة المناسبة. اليوم لم يتبق منهم أحد، لقد توفوا جميعاً! لكني لم أكن أعاشر سوى أولاد الأزقة. كان هناك أيضاً عائلة بروسار: هيرفيه بروسار وقد أصبح رجل إعلانات كبيراً وكريستين التي كنت مغرماً بها...

-: لدي إحساس بأنك حين تركت شاتورو، قطعت صلتك بكل هذه الأمور...

-: هذا صحيح، باستثناء أهلي وميشيل دينيزو أحد أصدقائي ويعمل في القناة بلوس وكنت أتابعه كثيراً فيما بعد. تعرفت إلى ميشيل أمام مدرسة شاتورو. كان شاباً حسن التربية، كنت حين ألتقي به، لحظة الخروج من صالة الملاكمة، أصيح به بخشونة كي أخيفه، وأشد على قبضتي مخاطباً إياه: «انتبه يا هذا» (يضحك). وحسبما أذكر، أظن أنه كان مغرماً بعض الشيء بأختي هيلين. كان يسكن في سانت غوتييه. وأنا شخصياً كانت لدي صديقة هناك، وكانت مومساً، وحين كان يراني، كنت ألمح القلق في عينيه، وحتماً كان يقول في نفسه: «ماذا سيفعل بي؟ هل سيضربني؟». ميشيل هذا لم يكن من ذاك النوع الذي يعاشر العصابات لأنه كان

حسن السلوك. انظر أين وصل اليوم، لم يتغير، يصل إلى هدفه دائماً! وأنا مقارنة بهؤلاء، غادرت شاتورو في وقت مبكر جداً، لم يكن لدي أساس عائلي...

-: غادرت في السادسة عشرة، أليس كذلك؟

-: نعم، ولكن قبل أن أتوجه إلى باريس، ذهبت لأرى البحر. صعدت في باص لأنصار فريق كرة القدم في شاتورو، وكان في طريقه إلى موناكو، لم يلحظني أحد، وكنت الأكثر طولاً وكنت موشوماً...

-: هل كنت موشوماً من قبل؟

-: العاهرتان، إيرين وميشيل هما من فعل بي ذلك! (تنتفخ أوداج جيرار من الضحك). نعم فتيات وهذا يسد ثغرك. كنت أنزل عندهم من وقت لآخر في شقتهما على بحيرة بيل إيزل. كنت إلى حد ما مصدر تفاؤلهم، كنت أساعدهم في أعمال المنزل وأحياناً أنظم علاقاتهن بالزبائن وآتي لنجدتهن في فندق دوبيري، عندما أصبح بعض السكارى يتعاملون بعنف. كنت حارسهن وأستطيع القول حماية مباشرة. كن يخاطبنني: يا ضرّاط، يجب أن تعود للعمل، هناك زبون يزعجنا، وكنت أعود بطريقة حازمة جداً، كان عندهن إناء خاص للفحم ومجرفة، وكنت أمسك العصا وأخرج الزبون خارج المنزل.

-: تقول الضّراط، هل كان هذا لقبك؟

-: أجل، منذ أن كنت في الثالثة، كان الجميع يناديني بالضّراط أو ضرّاط الحمير لأني كنت أضرط طيلة الوقت. (يضحك)

-: أوجز وأقول: حاولت ترأس أقرانك وأنت لم تبلغ السادسة عشرة بعد، تتردد على حلبات الملاكمة، تتاجر بالخمرة والدخان مع جنود الجيش الأمريكي، تسرق السيارات، تشارك في مشاجرات مسلحة، تلعب دور القوّاد مع فتيات قليلات العفة...يا لها من سيرة ذاتية مهيبة!

-: في البداية، لم يكن أحد على علم بتصرفاتي تلك! هذه الأمور تبدو اليوم غريبة، لكنها كانت أمراً مألوفاً وقتذاك. كانت تلك حياتي، وكنت آمل في التخلص من هذه التصرفات وأن أفعل الخير وأضحك المحيطين بي سيما لأني لا أحمل ضغينة على أحد. فحين كنت أذهب للعمل في منزل إيرين وميشيل، بكل معنى الكلمة، كنت مقتنعاً بأني أقدم لهن خدمة. حسناً كنت حقاً أحب من المشروبات ماركة Chable وماركة Castagne.

-: وسوف ينتهي كل هذا إلى أسوأ نهاية.....

-: بكل تأكيد. ثلاثة أسابيع من السجن بتهمة سرقة سيارات. في لقائي مع رجال الجمارك أنكرت كل شيء، وكأن شيئاً لم يكن، لكن تحتم علي مغادرة المدينة. أتذكر قاضي تطبيق العقوبات وكان اسمه بول ريج، قرّعني عند خروجي من السجن، مذكراً بإرسال بطاقة بريدية، كل يوم خميس، تحدد مكان إقامتي. روقبت في حريتي. أنقذني ذلك القاضي من دون شك. لم أعد أحتمل هذه المدينة، كان القاصي والداني يعرفني، وحين تقع أي مشكلة في إحدى الضواحي تسارع الشرطة إلى القبض عليّ، ويشير الناس علي بالإصبع. كان عليّ أن أغادر بسرعة! تركت سريعاً حياتي وأصدقائي وأخوتي وأخواتي. كان من الضروري أن أنطلق من الصفر. تركت فترة التدريب قبل حصولي على

الدبلوم، كنت أكسب عيشي من أعمال متفرقة، جلت فرنسا على طريقة الأوتوستوب، منتحلاً في كل مرة هوية شخصية جديدة. كنت تعرفت في فترة التدريب عام ١٩٦٣ إلى شاب صغير هو ميشيل بيلورجيه، وكان يكبرني بثلاث سنوات. كان إنساناً طيباً، وتلميذاً نجيباً وبرجوازياً حقيقياً. وفي أحد أيام خريف ١٩٦٥ قررت الالتحاق به في باريس. شيء واحد كنت متأكد منه، هو أنه يتوجب علي حل حبال مراكبي من شاتورو وبسرعة.

-: وفوراً باتجاه باريس؟

-: بدأت بدروس في المسرح، وتلقيت بواكير ثقافتي الأدبية، بدأت في قراءة الكتاب المقدس، موليير، ديستويفسكي وراسين... وكان ذلك بالنسبة إلي كالولادة الثانية خلال تسعة أشهر. ولادة ثانية بالفعل. كنت أفتقد النطق السليم، لكني عوضت كل شيء من خلال أدواري على خشبة المسرح لكبار الكتّاب، نصوص لم أكن أفهم منها أي شيء في البداية. «كانت اليونان منشغلة بي بدافع من الاهتمام، لدرجة أني اعتقدت أنها ثائرة». كنت مفتوناً. لم أكن أفقه شيئاً، لكني كنت مفتوناً! «شهية طيبة أيها السادة! أو أيها الوزراء الأجانب! المستشارون الأفاضل! هذه طريقتكم في الخدمة، خدم ينهبون المنزل! إذن لا خجل عندكم وأنتم اخترتم التوقيت، التوقيت البائس فيما إسبانيا تبكي محتضرة...» فجأة اكتشفت لغة جديدة. المهم أني كنت بعيداً عن شاتورو.... (يضحك) صديقي ميشيل مويرون هو الذي شرح لي البحور الشعرية الاسكندرية والرباعيات. تعلمت النطق على طريقة لوي جوفيه (وهنا يقلّد جيرار نبرة جوفيه): «انظر إلى الثريا وانطق!» تعلمت أن الفكر يأتي من الإحساس. لا فائدة من الفكر، الإحساس هو الأهم، الإحساس الواضح، المحدد والذي يقرأ في خمسة عشر بيتاً من الشعر. إنها عبارة موليير الشهيرة «آه» وعبارة «آآآه هـ» التي يطلقها ممثلوا التراجيديا. «لمن سأبوح بسري وهواجسي بعد اليوم... خذوا كل ما أعطيتموني...». ربما الموسيقى هي التي كانت تعجبني. وعلى كل حال أنت تفهم الأمر: لقد كان تحولاً كاملاً في حياتي.

-: سنعود بتفصيل أكثر حول بداياتك. لكم أحسست بالفخر من حديثك وكأني بك تقول: «انظر من أين بدأت وإلى أين وصلت»...

-: حقاً كان علي أن أعمل كثيراً لأعوض ما فاتني، ولكن إن كان لي أن أفخر بشيء فهو اجتهادي في عملي قبل أي شيء آخر. إنه الفخر ذاته عند والدي في مشغله مع طاولة ثقب الجلد، والحديد المعد للطرق. في صباي حين كنت أراه يعمل، كنت أخاطب نفسي: «لا أعرف أي مهنة سأمتهن في المستقبل، ولكن يجب أن يكون عملي شبيهاً بعمل والدي كي أستطيع أن أفخر به». هذا رائع فالطريق الذي سلكته، عملي يوصلني إلى نهايته. لست مسحوراً بالنجاح ولا بالمال فأنا لا أفتقدهما أبداً، وحين كنت شاباً، كنت أدس المال في جيوب المحرومين منه، ولا زلت أفعل الشيء ذاته إلى الآن...

الفصل الثاني

كن كما أنت

« منذ الأزل كل وليدٍ عن اسمه يبحث»

أوكتافيو باز

باريس، ٥ أيار ٢٠٠٤، منزل جيرار ديباردیو، شارع لوكونت دوليل، باريس الدائرة ١٦. أمضى جيرار طيلة ليلة أمس العمل في فيلم (٣٦) من إخراج أوليفييه مارشال بالاشتراك مع دانييل أوتيه. أرهق وأصيب بالرشح، نهض من الفراش بصعوبة.

-: لوران نيومان: عودة إلى بداياتك، وخاصة لحظة وصولك إلى باريس. نحن الآن في عام ١٩٦٥ وأنت في السادسة عشرة. يومها التقيت بصديقك ميشيل بيلورجيه في محطة شاتورو، وكان سيأخذ القطار المتوجه إلى باريس، فاقترح أن ترافقه...

-: كانت تلك لحظة حاسمة في حياتي. كنت وصلت إلى نتيجة مؤداها أن عليّ مغادرة شاتورو. بات الرحيل أمراً ملحاً وبالتالي تغيير نمط حياتي. كنت معروفاً هناك كذئب أبيض. ما أن تحدث مشاجرة أو هجوم مسلح أو أقل «مشكلة» حتى يرتاب بي رجال الشرطة ويسارعوا إلى التحقيق معي، وأظن أنه لم يكن لدي أي مخرج محتمل في شاتورو. إذن لأنطلق، ولكن إلى أين أذهب؟ وتحديداً ماذا سأعمل؟ وفيما أنا على هذه الحال أسير على غير هدى، التقيت بصديقي ميشيل بيلورجيه قرب المحطة، فأخبرني أنه ذاهب إلى باريس وأنه ينوي حضور محاضرات في المسرح وأنه سيسكن في شقة كبيرة يمكن أن تتسع لكلينا واقترح أن أرافقه. لم أوافق، في حينها، على اقتراحه، ولكن بعد ثلاثة أسابيع توجهت إلى العنوان المحدد ٥٤ شارع غلاسيير، وعلى كتفي حقيبة صغيرة، ولم يكن في جيبي فلس واحد. أخيراً خطوت خطوتي. انتهت شاتورو، والنذالة وتجارتي البسيطة.... لا لم يكن هروباً بل تغيير نمط حياة وأفق... حياة جديدة، حياة جديدة! إذن برفقة ميشيل بيلورجيه وميشيل دبيمول اكتشفت المسرح ومحاضرات شارل دولان في المسرح الشعبي القومي.

-: كيف كنت تسدد أجور المحاضرات، إن لم يكن في جيبك فلس واحد؟

-: لم أكن أدفع شيء. حينها كانت تكلفة المحاضرات خمسين فرنكاً في الشهر، ولكنني لم أدفع شيئاً. تصرفت على جري عادتي في دار السينما في شاتورو: كنت أدخل قاعة العرض في جرأة، من دون أن يطلب مني أحد أي شيء. وكان من بين الحضور، في محاضرات شارل دولان، جورج ريكيه وجان لوي ترانتينيان – جان لوي أستاذ كبير – أما أنا فكنت أتابع محاضرات لوسيان آرنو. في الحقيقة كنت أكتفي بالإصغاء، كنت حذراً قدر استطاعتي، أرى التلاميذ يؤدون أدوارهم من دون أن أفهم أي شيء، كان كل ذلك بالنسبة إلي كاللغة الصينية، لغة غريبة. كنت ألتهم وأبتلع كل شيء كالإسفنجة، إلى أن جاء يوم قال لي لوسيان آرنو: «إذن، كلمني، أنت! عليك أن تلعب أحد الأدوار أمامي». بدا كأنه يعرفني، كما لو أني كالآخرين، أي أني نجحت في التغيير. كان قصدي

خداعه، لكنه فهم الأمر، كنت تلميذاً في محاضرته، تلميذاً كالآخرين. وبالنتيجة على ما أذكر ما قاله لميشيل: «ولكن ماذا يريد؟ أنا لم أوبخه». اهتز ميشيل من الضحك وهو يقول: «لا! لم يلمك لأنك وبخته، هو فقط يريدك أن تلقنه أحد النصوص، هذا كل شيء». وكان يشير إلى إحدى حكايات لافونتين. أخيراً حصلت على النص ورجعت إلى البيت وقرأت الحكاية من دون أن أفهمها كاملة، كنت أتعتع ثم بعد ذلك حفظتها أو على الأقل حاولت ذلك. في اليوم التالي نظر إلي السيد آرنو بازدراء قائلاً: «آه، هيا سنرى عرضك. حسناً ستصعد إلى الخشبة. ولكن ماذا كان اسمك؟ – ديباردیو – منذ متى أنت هنا؟ حسناً، وصلت لتوي، سيد آرنو»...

–: وصعدت إلى خشبة المسرح...؟

–: صعدت إلى خشبة المسرح...

–: وبعد ذلك؟

–: لا شيء! قلت للوسيان آرنو: «أنا لم أمثل أي مشهد في حياتي». لم تبد عليه ملامح الغضب وقال لي: «هيا مثّل أمامي مشهداً ارتجالياً». عندها أصابني الصمت ولم أنبس بكلمة... بدأت أضحك في هدوء ثم علا صوتي شيئاً فشيئاً... ضحك مشترك، كان الجميع يضحك حتى الأستاذ. كنت أضحك من أعماقي، وفيما كانت تنتفخ أوداجهم من الضحك كان ذلك يدفعني إلى مزيد من الضحك، وبدأ الارتجال يفعل فعله... إذن بدأ الأمر على النحو الذي أخبرك به، وفي نهاية ذلك الارتجال، قال لي لوسيان آرنو في نظرة متواطئة: «أرى أنك تتقن الكوميديا يا أنطوان». وأنطوان هذا كان كوميدياً في أحد الكباريهات، وكان يلعب في بوبينو دوراً مشابهاً: يصعد إلى الخشبة مع حقيبة، ويخصص للمشهد طاولة وكرسياً قابلاً للطي ومنبهاً يرفعه، ثم ينظر إلى المشاهدين في هيئة مخيفة مخاطباً إياهم ببساطة: «الآن سأضحككم لمدة عشر دقائق». هذا كل شيء وينفجر الجمهور من الضحك. لا ضرورة لأن أخبرك بأني لم أكن أعرف لا أنطوان ولا غيره. لم أكن قد دخلت المسرح أبداً أو الكاباريه سواء في شاتورو أو في باريس. لكني نجحت في امتحان القبول، لم أكن أكثر من مستمع بسيط، حر ثم تحولت إلى تلميذ مستقل بالكامل.

–: ماذا تعني؟

–: كنت أجلس في الصالة وأسمع إلى الحوارات، كنت مبهوراً بما يجري، وكان ذلك بالنسبة إلي تبدلاً جذرياً في الزمن، بل حياة أخرى. كنت أذهب إلى المدرسة، ولم أكن مضطراً لإنهاء فروضي المدرسية، وهناك كانت حقاً انطلاقتي. تابعت، ستة أشهر، محاضرات شارل دولان، تعلمت فيها الكثير وفي السنة التالية ذهبت مع ميشيل بيلورجيه للتسجيل لدى جان لوران كوشيه ثم التحق بنا ميشيل أريو.

–: هل كنت تشاركهم السكن في ذلك الوقت؟

–: سكن ميشيل بيلورجيه في شقة في الدائرة ١٣ شارع غلاسيير مع شقيقته وشقيقه الذي كان يدرس الطب. ميشيل مويرون كان لديه استديو صغير، كنت أنزل عنده، وهو الذي فتح أمامي أبواب الأدب، دعاني لقراءة الكتاب المقدس وكتب الخيال العلمي...في الحقيقة هو علّمني المطالعة وفك بحور الشعر الإسكندري. كان هو نفسه يكتب قصصاً وأشعاراً، كان مسحوراً بإدغار آلان بو ولوفكرافت وبكل الأدب الخارق. كنت أقضي

أوقاتي مع الكتب وكنت أعشق ذلك وفجأة انطلقت إلى الأدب الخيالي، إلى الأحلام، ألكسندر دوماس، الفايكونت براجيلون، جوزيف بلسامو...

-: في نهاية ١٩٦٦ انطلقت إلى مسرح إدوارد السابع عند جان لوران كوشيه...

-: هذا إنسان عظيم، علّمني كل شيء، لكن بشكل خاص كان يفهمني. تركني أعمل بالفطرة، لم يحاول أن يأسرني في قالب ما، كان بإمكانه ألا يعيرني أدنى انتباه وأن لا يكترث بوجودي. لكنه على العكس استمر في تدجيني وفي تعميق معرفته بي. ينبغي أن أذكر كيف كان مظهري وقتذاك! حين وصلت إليه، كان شعري طويلاً مع رأس شاب متمرد على الأعراف، كنت أحتذي جزمتين ضخمتين من الفرو، مع بنطال لا شكل له. بدوت وكأني لم أغتسل أبداً، لم أكن أشبه أي شيء، أي شيء مألوف لديه بالتأكيد، وقد ذكر هذا في مذكراته. لم أكن بالنسبة إليه تلميذاً عادياً، كنت إلى حد ما مثل كائن أرضي غير مألوف، مثل طفل بري...لكن هذا لم يزعجه أبداً. وبسرعة فائقة طلب مني تمثيل دور كاليغولا في مسرحية ألبير كامو، ولعب ميشيل بيلورجيه دور سيبون. كنت خائفاً بشكل لا يصدق وكانت تلك إحدى أوائل المرات التي أمثل فيها أمام زملاء من المستوى ذاته. كنت متأثراً جداً حين أجبت: «تعال، اجلس» فلطمت بقوة كرسياً تهاوى منكسراً على الفور فوق خشبة المسرح، فظننت أنها بداية النهاية، ظننت أن العالم سيتهاوى كما الكرسي! استدعاني جان لوران كوشيه وقال لي: «ألن تتكلم؟» أخبرته بالحقيقة قائلاً: «أوه، لا لن أتكلم، لا أعرف» في الحقيقة لم أكن أفهم ما يقوله -«ولكنك عملت سابقاً في المسرح، أليس كذلك؟»، في هذه اللحظة كذبت عليه كذبة صغيرة وقلت له: «أجل، أجل بكل تأكيد». أخبرته بأني صعدت على خشبة المسرح في بورج مع غابرييل مانيه، وفي الحقيقة دخلت المسرح من الباب الخلفي كي لا أدفع ثم وجدت نفسي على الخشبة بالمصادفة. لو طرح علي أسئلة أخرى، لكان اكتشف الخدعة، ولكنه كان ذكياً حين أشعرني بصدق كلامي. «حسناً، ستلعب دور بيروس». بيروس؟ لم أسمع بهذا الاسم أبداً...أخذت النوطات...«ستلعب دور هيبوليت». هيبوليت؟ اسم غير معروف على نطاق واسع... كنت أسجل الملاحظات باستمرار... (صمت). لم أكن أعرف أي شيء. لم أكن قرأت أي شيء، لا (أندروماك) ولا (فيدر)، وبيروس هذا كنت أظنه اسم كلب! فهمت الأمر مساءً حين أخبرت ميشيل بيلورجيه بقصة تلك المقابلة وأن كوشيه لم يسخر من شكلي وأن اللقاء كان جدياً حقاً. من تلك اللحظة بدأت العمل الحقيقي، بدأت في فهم أدواري.

-: إذن جان لوران كوشيه هو الذي اكتشف عيوب النطق عندك فوجهك إلى الأستاذ ألفرد توماتيس الاختصاصي في اللغة، في شارع كورسيل قريباً من منتزه مونسو...

-: بالتأكيد. في الواقع جميع مشاكلي اللغوية والنطقية كان سببها عيب لدي في الإصغاء. وبدقة أكثر كنت مصاباً في استجاباتي السمعية. في الواقع حين كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة كانت أذناي سليمتين، كان باستطاعتي سماع ذبذبات لا تكشفها اللغة الفرنسية عادة. على عكس اللغة الروسية مثلاً. ولهذا ترى لدى الروس قابلية تعلم اللغات بسهولة، فهم يسمعون كل شيء! باختصار كنت ألتقط الكثير من الأصوات التي كنت فقدت بعض ملكاتي في نطقها. الأستاذ توماتيس هو الذي اكتشف ذلك العيب وعالج

المشكلة. لم يكن يتكلم بوضوح، هذه الكلمة لا تكفي، فعنده اكتشفت بطريقة ما، أسلوب استخدام اللغة. تعهدتني طبيبة نفسية، دومينيك كافيه، وكنت أقضي أياماً كثيرةً بعد الظهر أستمع لأشرطة موزار. هذه الجلسات تكلف كثيراً، لكني لم أدفع شيئاً.

-: لم تدفع أجرة محاضرات شارل دولان، كذلك لم تدفع عند جان لوران كوشيه، والأستاذ توماتيس كان يقسط لك الأجرة...

-: نعم، أظن أن جان لوران كوشيه، لا بد قد نقل الصورة. حين جئت إلى مسرح إدوارد السابع أخبرته فوراً بالحقيقة قائلاً: «ليس لدي مال». أجابني «هذه ليست مشكلة، سأرعاك مع ذلك». أرسلني كذلك إلى أوديت لور لمتابعة دروس في الحركات البدنية، كذلك أرسلني إلى ماري ماركيه - سيدة عظيمة - للاستماع إلى دروس الشعر. بعد ذلك أرسلني إلى أستاذ في اللغة الفرنسية، م. سوامي وهو جزائري مشلول يعيش في إيسي ليه مولينو، ساعدني في فهم معنى النصوص المتوجب علي حفظها. خذ مثلاً في مسرحية بريتانيكوس هذا البيت من الشعر الذي يقول: «لمن أقول أحبك؟» «أعبد جوني»، لم أكن أعرف هذه الكلمة «يعبد»، وكان ذلك بالنسبة إلي يعني أن حبي لجوني كان قوياً وكأنه يخرج من لهب المدفأة... إنه تفسير جيد أليس كذلك؟ (يضحك) كذلك استطعت، بفضل جان لوران كوشيه، مطابقة الكلمات بالأشياء، والصور بالكلمات، وأن أفهم ما كنت أجهله، كي أتوصل أخيراً إلى قراءة ألفريد دو موسيه وجورج صاند.... وحين أخبرت، منذ فترة، عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمهورية الجزائرية، بأني تعلمت اللغة الفرنسية الصحيحة على يد أحد الجزائريين، لم يصدق الأمر! أيضاً بفضل جان لوران أصبحت أفهم جميع أدواري وبات سهلاً علي حفظها عن ظهر قلب. وأنا الذي كنت أرتعب من خشبة المسرح ومن حلبة الملاكمة، تحررت من جميع مخاوفي ومن هلعي وعقدي... أدركت فعلاً أني مدين لكوشيه بكل شيء.... لقد فعل الكثير من أجلي. لقد خدمني أكثر مما خدم غيري. وكي أكون محل ثقته بدأت العمل من دون توقف. كانت هناك منافسة حقيقية، وكان عليّ أن أكون في مستوى هؤلاء التلاميذ: آن ماري كينتان، إيفلين باج، بيير أندريو، أليزابيت غينيو (مستقبلاً السيدة ديباردیو) وفابريس لوشيني الذي التحق بعدي. تقاطعنا تماماً. في الحقيقة لم أبق سوى فصل واحد عند كوشيه، مثلت معه عام ١٩٦٨ في فيلم (بودي الناجي من المياه)، انطلقت بعد ذلك باتجاه شواطئ الكوت دازور.

-: ومع هذا وقبل أن تنطلق، شاركت في بعض الحلقات التلفزيونية...

-: بالفعل، فقد استدعاني جان ميشيل موريس للعمل في حلقة بعنوان (موعد في بادن بيرغ) مع أليزابيت سورتو، ثم طلبني كوشيه إلى إحدى المسرحيات بعنوان (أولاد العصابة) وهي من أوائل النصوص المسرحية عن الشذوذ الجنسي، كان دوري فيها دور صبي يقدّم كهدية إلى أحدهم في عيد ميلاده. ثم تابعت أعمالي في تسلسلها الطبيعي، قمت بدور ممثل بديل في مقهى المحطة في أحد المشاهد بعنوان (مسامير كبيرة في كأس اللبن)، شاركت أيضاً في مسرحية (غالاباغو) لجان شاتينيه، بالاشتراك مع بيرنار بلييه، وهنا كما أظن اكتشفني بيرتران بلييه لفيلمه (راقصات الفالس) الذي بدأ تصويره عام١٩٧٣،

كما قمت ببعض الأدوار الصغيرة خاصة إلى جانب جان غابان، لا أعرف لماذا، لكن غابان كان يحبني كثيراً، لهذا، كما يقال، أخذني تحت جناحه.... ربما لفته إلي الجانب السوقي والريفي في شخصيتي.

-: شاركت بيرنار بلييه التمثيل في المسرح وكنت في حماية العملاق جان غابان، وأنت لم تكمل العشرين بعد...

-: في الحقيقة مثّلت إلى جانب غابان في فيلم (القاتل) للمخرج دينيسي دولاباتيلييز عام ١٩٧١، وفي العام التالي عملت إلى جانبه في فيلم (قضية دومينيشي) وأخيراً عملنا سوية عام ١٩٧٣، في فيلم (رجلان في المدينة) للمخرج جوزيه جيوفاني بالاشتراك مع آلان ديلون وميشيل بوكيه. وقي الحقيقة غابان هو الذي فرضني على حلبات التمثيل حين كان لا يردّ له طلب. كان هناك نوع من المنافسة بين غابان وبلييه، وكنت أدرك هذا الأمر جيداً، لألعب إلى جانبه في المسرح وفي السينما في فيلم (صياح طائر اللقلق مساءً فوق أشرعة السفينة) للمخرج ميشيل أوديار. تبادل الاثنان الشتائم بسببي: «سحقاً، تستطيع القول حين تأخذ الولد». في الحقيقة كنت محظوظاً جداً لوجود أكثر من أب في حياتي، ويا لهم من آباء! جان غابان، بيرنار بلييه، داليو...

: بلييه الأب وبلييه الابن.

: نعم في البداية كان بلييه الأب ثم جاء بلييه الابن. كنت أعبد بيرنار بلييه إلى أن أوقع بيني وبين ابنه بيرتران، كنت متأثراً جداً من فعلته هذه وكدت أرميه من أعلى المنحدر.

: كدت أن ترمي بيرنار بلييه من أعلى المنحدر؟

-: في ذلك الوقت كنت عصبي المزاج قليلاً. قال أني لم أحفظ دوري، وبالفعل كنت، حينها، أشرب بشراهة، لكني كنت متزناً أثناء التصوير. وذات يوم وكنا نعمل في فيلم (مقصف بارد) عام ١٩٧٩ فقال بيرنار لبيرتران: «هذا الصبي أصبح يزعجنا من كثرة ما يشرب وهو لا يحفظ دوره». في المساء ذهبت لرؤية بيرنار وكان ينفث دخان غليونه في هدوء، حاصرته بين سيارتين وقلت له محدقاً في عينيه: «حسناً، لا بأس! لقد فعلت فعلتك وقطعت أي حوار لي مع بيرتران، هل أنت مسرور؟ كل هذا كان بسببك. قلت لبيرتران أني ثمل طيلة الوقت، ثم فاجأت بيرنار قائلاً:» هيا انظر إلى الخلف هناك ١٢٠م من الفراغ، يمكنني أن أدفعك إلى الهاوية وأقول بأنك تعثرت فوقعت، أنت تعرفني ومع هذا تعاملني كالأبله، ألا فلتعلم بأني قادر على رميك... لم يأت بحركة، تسمّر في مكانه، تركته على شفا المنحدر... وبعد عام عادت الأمور بيننا كما كانت.

-: وأصبحتما أفضل صديقين...

-: نعم، نعم، مع الاثنين بيرنار وبيرتران، وأدركت كم كنت محظوظاً لوجودهما إلى جانبي. ميشيل أوديار هو الآخر ساعدني كثيراً، إنه أحد الآباء لي في السينما. استدعاني للمشاركة في التمثيل في فيلم (صياح اللقلق مساءً فوق أشرعة السفينة) عام ١٩٧١، وللحال أصبحنا صديقين لا يفترقان. كان تذوقنا واحداً للحياة، والسخرية هي ذاتها...ميشيل كان مدهشاً، صديقاً ليس لديه سوى الأصدقاء. في تلك الآونة التقيت أيضاً بجان كارميه وكان كأب لي. ما خلا بعض أدواري المعاكسة معه، كنت أحياناً أنا الأب بالنسبة إليه.

طلبني في أحد الأيام وكان يلعب على المسرح في ليون مع روجيه بلانشو وقال لي: «تعال إلي، لا أستطيع أن أتحمل ذلك لأنه مقرف بالنسبة إلي، إنه يقول ألغاز لا أفهمها»، ذهبت إليه في ليون وقلت له: «اسمع صديقي جانو، دعك من ذلك لا تستطيع أن تلقن ذلك الرجل شيئاً»، ظننت أن هذا يريحه. شخصياً مثّلت إلى جانب بلانشون في فيلم (عودة مارتان غير)، وأذكر أنه لم يكن يحب (سيرانو)، كنت أجده مغفلاً في حصر ذوقه في شيء محدد... في تلك الفترة لم أكن متزناً، كنت أقول كل ما يخطر على بالي من دون مشكلة... أما أساتذة المسرح بالنسبة إلي فهم: لوران كوشيه وكلود ريجي وكانا مختلفين عن بلانشون.

-: لنرجع إلى الوراء قليلاً. التقيت بأليزابيت غينيو عند جان لوران كوشيه. وقعتما في الحب من النظرة الأولى، كما يقال، خلال عملكما في مشهد (القمر الأزرق).....

-: حب من النظرة الأولى؟ هذا ما تقوله أنت. لا أستطيع أن أتخيل لحظة واحدة أن امرأة تستطيع أن تحبني أو تقع في غرامي، أو أن تعجب بي فتاة ما، أنا؟ كان لي في ذلك الوقت صديقات وكانت لي مغامرات، لكني أساساً لم أخلق للحب، لم يكن لدي أي ميل للمشاعر العاطفية. عليك أولاً أن تحب نفسك لتتخيل أنك محبوب من الآخر. أنا بالذات لا أحب نفسي. في السابق حين كنت طفلاً كنت أظن أن أحداً لا يرغب بي، لهذا حين أصبحت مراهقاً لم أستطع أن أكون شخصاً مرغوباً به. ثم إن إليزابيت نفسها كانت تعيش برفقة رسام إيرلندي يدعى ديفيد وولش وهو صديق فرانسيس بيكون صاحب الأعمال الرائعة. هل حسبت حساب الهوة الثقافية التي كانت بيننا؟

-: أليزابيت ليست من وسطك الاجتماعي ذاته، فقد ولدت في بورغ لارين لأب خريج البوليتيكنيك والمدير التجاري لمؤسسة RATP، ووالدتها تعود في أصولها إلى أسرة من النبلاء القدامى في غرينوبل. وكانت تتردد على مثقفي سان جيرمان دوبري. كانت في الثالثة والعشرين وكنت أنت في السابعة عشرة، كانت شابة هزيلة، فيما طولك تجاوز ١٨٠سنتم...

-: أوه هذا الأمر، ليس هناك اختلاف بين طرفين أكثر من هذا! تلقت اليزابيت فن الدراما على يدي تانيا بالاشوفا، وحين التقينا سوية، إن أسعفتني الذاكرة، كانت في صدد تحضير أطروحة دكتوراه من الحلقة الثالثة في علم النفس. وعلى كل حال، الأمر المؤكد أني لم أكن ذلك الصهر المثالي الذي كان يحلم به السيد والسيدة غينيو لابنتهما، ومع ذلك فحين تقدمت لطلب يدها للزواج، خاطب والدها الحضور قائلاً: «جيرار لديه أشياء أهم بكثير من الدرجات العلمية، لديه قلب كبير». كان أهل أليزابيت من الطبقة البورجوازية الحقيقية، لكنهم كانوا يقدرون دور العاطفة حق التقدير. والدها كان يعمل على مشروعه الكبير RATP ليعفي العمال من دفع أجرة الميترو، كان رب عمل اشتراكي، إن صح القول! والدتها آمات دوبيكس، التي يتصل نسبها بطبقة النبلاء الكاتينية، كانت هي الأخرى امرأة طيبة للغاية. تزوجنا زواجاً مدنياً في ١١ نيسان ١٩٧٠ في بورغ لارين. كان زواجنا في الحقيقة لقاء بين عالمين متناقضين. أخذ ميشيل بيلورجيه، عرّاب زواجي، سيارة لإحضار أهلي من محطة أوسترليتز. هل تتخيل لا ديه ديه في طقمه القديم ولاليليت في ثوبها المزركش بالورد، وهما يدخلان دار المختارية؟ آل غينيو من جانب وآل ديباردیو من الجانب الآخر؟ طلبت من أبي أن لا يفرط في الشراب، لم

يشرب في ذلك النهار سوى البشيت P shitt بالبرتقال... (يضحك) وبخلاف المظاهر الاجتماعية بدت النسوة، بالنسبة إلي، كأنهن من كوكب آخر. كنت عاجزاً عن مغازلة أية فتاة. قاسم واحد كان يجمعنا أنا واليزابيت فكلانا نعتاش من مهنة مشتركة. عام ١٩٦٥ وبفضل لقاء مع ابنة أخ المخرج روجر لينهاردت، عملت تحت إدارته في فيلم (الوجودي والقطة الصغيرة Le beatnik et le Minet). كان الفيلم صورة رمزية عن قصة سقراط. لكن في الحقيقة كنا أنا واليزابيت من عالمين مختلفين. كانت تتردد على الفنانين والمثقفين، وكنت أنا دائماً في مقهى الممثلين المتنكرين من ريف سانت جانفييف عند الأم جورجيت. أصدقائي كانوا من الشاذين الذين يمارسون العهر، إحداهن كانت بوليت، لا بل بول على وجه الدقة، وهو إلزاسي متنكر في ثوب امرأة، يحمل وسام جوقة شرف سابق مع تسريحة شعر غريبة وشعر أشقر مبعثر، وهو مظلي سابق شامخ مثل خزانة نورماندية لكنها كانت أنيقة وترتدي ثوباً مرقطاً. هل تأملت هذه اللوحة، وزيادة على ذلك كان مغرماً بي. قال لي ذات يوم: لا تدّعي أنك عاقل، سترى ذلك يوماً، أنت لا تعرف معنى أن تقبّل رجلاً، وحكى لي ذات يوم أنه كان يمشي في جنازة أحد أفراد أسرته في الألزاس، تخيل ردة فعل الناس حين شاهدوه، لم يعرفه أحد. كنت أرغب في كتابة قصته، أو إنتاج فيلم قصير عن هذا الرجل. أخيراً أقول باختصار أن هؤلاء كانوا أصدقائي وهم في الحقيقة يختلفون عن اليزابيت. -كيف أمكن لهذين العالمين أن يلتقيا مع ذلك؟

-: كانت حياتي في باريس شبيهة بحياتي في شاتورو. كنت أعاشر في الوقت ذاته، حثالة المدينة (غانيات شاتورو ومخنثي باريس) وأعلى طبقة بورجوازية. تذكّر صداقتي مع عائلة بروسار. وأنا في هذا شبيه بالحرباء. أحس أني في غاية الانسجام في أي مجتمع كنت ومع أي إنسان، مع الأغنياء والفقراء، مع المثقفين والجهلة، مع الفاسدين والصالحين، هكذا أنا منذ طفولتي وإلى اليوم لم أتغير، أتكيف دائماً مع الجميع أينما كنت...

-: ولكن ثمة تغييراً ما مع ذلك، يتمثل في أن اليزابيت كانت مغرمة بك، وهذا أمر لم تعتده أبداً في شاتورو...

-: صحيح، ولو أني كنت مغرماً بفتاة اسمها كلودين في شاتورو، تلميذة في مدرسة شارمي. وكنت أمارس تجارتي البسيطة مع الأمريكيين. لم تكن تعرف شيئاً عني. بقيت ساعات أنظر إليها في الاستراحات. أخذت سيارة، ذات يوم، وتوجهت إلى القصر حيث تسكن، كي أتعرف على محيطها اليومي، وأشم عطر شعرها. حب أفلاطوني! كنت عاجزاً على البوح بمشاعري الملتهبة نحوها...

-: تريد أن تقول إن اليزابيت كانت أول قصة حب حقيقي في حياتك...

-: أجل... ولكن باختصار وللأمانة لم تكن أول قصة حب تماماً. سأروي لك قصة لم يسمعها أحد: في شاتورو كنت عاشقاً لفتاة اسمها ماري كريستين، وكان والدها من أعيان البلد الوارثين لمهنتهم أباً عن جد، إلى درجة أنه كان لا يريد لأحد أن يتحدث عني. لم أكن من ذات الطبقة الاجتماعية، لهذا لم أكن أستحق الزواج من ابنته. كان علينا أن نلتقي بالسر. كانت حالنا آنئذ رومانسية ومقيتة في آن معاً. في تلك الأيام كانت المواعيد السرية في فندق بيري، وكنت أعرف مدير الفندق جيداً، كان يقفل الباب نصف قفلة... آه كم كنت

أعشق تلك اللحظات المختلسة من عائلتها ومن عالمها.... أجمل الذكريات كانت، لكنها تظل رمزاً لأشياء لم أعد قادراً على تحملها في شاتورو، والنظام الطبقي القائم على المال، النموذج الاجتماعي مع التباهي ولا سيما عدم التداخل بين الطبقات... هذه الأمور جميعها كانت تخيفني... رأيت ماري كريستين ثانية عند تصوير فيلم (الكولونيل شابير)... حسناً أقسم لك أنها قصة حقيقية: كانت قد أصبحت... السيدة البارونة!

-: عودة إلى اليزابيت: هل كان حبكما من النظرة الأولى، أم غير ذلك؟

-: نعم، يمكنك أن تقول ذلك فقد كان حباً من النظرة الأولى. باختصار جرت الأمور بسرعة فائقة. كنا ذاهبين معاً إلى إيبيزا وكان رفيقها في ذلك الوقت ديفيد وولش، يكبرها في السن كثيراً، قد أحس بسرعة أن هناك شيئاً ما بيننا. أقمنا في بيت واحد عند عودتنا وكان ذلك عام ١٩٦٩، تزوجنا عام ١٩٧٠ وولد غييوم عام ١٩٧١. في البداية أقمنا في شقة بالغة الصغر في شارع لوبيك، كانت تقيم فيها اليزابيت سابقاً، تقع عند سفح هضبة مونمارتر في الدائرة ١٨، ثم ذهبنا للإقامة في فانف، واستلمت بيتنا السابق ناتالي باي، وكانت صديقة لنا، فقد كنا زملاء حقيقيين في المسرح وكم كنا سعداء أنا واليزابيت بإقامتها في الشقة التي شهدت أيام زواجنا الأولى.

-: ولدت جولي عام ١٩٧٣ في أثناء عملك في فيلم (راقصات الفالس) لبيرتران بلييه، في ذلك الوقت ذهبت مع العائلة لتقيموا في بوجيفال بالقرب من باريس...

-: كبرت العائلة وازداد حجم أعمالي...فعلاً ولدت جولي في أثناء تصوير (راقصات الفالس)، وكنت في الوقت نفسه أشارك في مسرحية بيتر هندكه (نزهة على الأحصنة بالقرب من بحيرة كونستانس) من بطولة كلود ريجي، سامي فراي، ميكاييل لونسدال، ديلفين سيريغ وجان مورو... وطلب بيرتولتشي أن أنضم إلى فريق الممثلين في فيلمه(١٩٠٠)، وأذكر أنه في ذلك العام ١٩٧٤ صدر ملف كبير في المجلة الأسبوعية لوبوان le point عن الشخصيات المائة البارزة للسنوات القادمة، وكم فوجئت حين رأيت اسمي في القائمة. وقلت لنفسي جاء وقت البحبوحة، يجب أن أبحث عن بيت حقيقي يضم عائلتي كلها. طلب مني بيرناردو بيرتولوتشي، بنصيحة من كاترين دونوف ومارسيلو ماسترويواني، أن أشارك في إحدى المسرحيات، وكان قد جمع عشرات الممثلين ولكنه كان لا يزال يبحث عن رجل يفكر على طريقة الروس، وكنت أنا قد عدت إلى الملاكمة، وكنت أصور فيلم (فانسان، فرنسوا، بول والآخرون). بيرتولوتشي طلب مقابلتي في روما، وكانت تلك زيارتي الأولى للمدينة، أحببتها على الفور بظلال صنوبرها وفتياتها، كنت أجد المدينة تنبض بالجنس. وعلى الفور ضمني بيرناردو إلى روبيرت دونيرو وبدأ التصوير صيف ١٩٧٤.

-: هل اشتريت بيت بوجيفال من أجرك عن فيلم بيرتولوتشي؟

-: كان البيت محجوزاً على اسم المؤلف الموسيقي كلود بولينغ. وبعد عودتي إلى باريس توجهت إلى أحد الصيارفة وحملت معي عقد العمل في الفيلم الإيطالي ومجلة le point كي أتمكن من الحصول على أعلى قرض... قلت للصيرفي: «انظر اسمي ديباردیو، أنا ممثل وأعمل في المسرح والسينما». ولحسن الحظ كان قد شاهدني في مسرحية هندكه.... في النهاية خرجت من مكتبه والقرض في جيبي. كلفني المنزل وقتذاك مليون

وأربعمائة ألف فرنك. وفي لمح البصر دفعت القرض واشتريت المنزل والأرض معاً. قلقت اليزابيت من خطوتي هذه، لكنها، رضيت أخيراً.

-: فعلت ذلك بدافع من أصولك الريفية، حيث لا قيمة ملموسة للمال، إن لم يتجسد في أرض أو حجر... أليس كذلك؟

-: هذا صحيح بعض الشيء. كان المال شيئاً مجرداً على الدوام بالنسبة لي. وكل ما أقبضه من عملي يتحول إلى المصارف ولا أعرف أبداً رصيدي. لا أعدّ المال شيئاً محسوساً إلاّ عند تحوله إلى كيان صلب أو إلى قطع نقدية في جيبي. وحينما كنت أمارس تجارتي البسيطة مع الأمريكيين في شاتورو، كنت أدس خفية في محفظة والدتي أوراقاً نقدية وهذا في نظري مال محسوس! المال، من أجل المال، لم يستهويني أبداً المال الذي يمنح الوجاهة والسلطة. يجب أن يتحول المال إلى شيء ملموس بشراء منزل أو قطعة أرض... شيء يدوم...

-: كثرت الأقوال عن أن اليزابيت كانت بالنسبة إليك مثل بيجماليون، هل هذا صحيح؟

-: لا أعرف إن كان بإمكاني قول ذلك. على كل حال، كنا نحب بعضنا كثيراً. والأمر المؤكد أنها وسّعت آفاق تفكيري، أدخلتني على أجواء من الثقافة كنت أجهلها تماماً. اصطحبتني إلى المتاحف ومعارض الرسم في الحي اللاتيني. لكن أظن أن بيجماليوني الحقيقي هو جان لوران كوشيه، فهو الذي دفعني إلى قراءة النصوص الرائعة لكبار الكتّاب، هو الذي جعل مني ما أنا عليه. ولكن للحقيقة فإن اليزابيت لعبت دوراً أساسياً في حياتي الخاصة بالطبع وأيضاً في حياتي الفنية والمهنية. كنت أعمل كثيراً وأسافر كثيراً، واستطاعت أن تغطي غيابي وعدم وجودي، وآثرت الاهتمام بالأطفال على حساب المهنة، لكنها بشكل خاص غفرت لي أموراً كثيرة: مغالاتي في كل شيء، نذالتي، هروبي... وكانت تجد في الوقت نفسه الكلمات المناسبة كي تردني إلى الطريق الصحيح وأن تذكرني بأولوياتي... لم تكن بالمصادفة محللة نفسية!

-: هل صعب عليك أن تكون أباً لطفلين وأنت في الرابعة والعشرين من العمر؟

-: بالتأكيد كان أمراً صعباً. وكان هذا أساس مشاكلنا الزوجية. ولد ابني غييوم وكان عمري اثنتين وعشرين سنة ثم جاءت جولي عام ١٩٧٣ ولم أبلغ الرابعة والعشرين، لم أكن جاهزاً بعد لأكون أباً في هذه السن وخاصة أني كنت لا أحسن التصرف. اصطحبت العائلة عام ١٩٧٤ إلى إيطاليا لمدة خمسة عشر شهراً خلال العمل في فيلم بيرتولوتشي. أدخلت الولدين في مدرسة إيطالية، كانوا يقيمون في روما وكان عملي في بارم، كنت أزورهم في عطلات نهاية الأسبوع. وحين عدنا إلى باريس طلبت من أختي هيلين أن تأتي لمساعدتنا وفعلاً ساعدت اليزابيت كثيراً. التقت هيلين بزوجها باتريك بورديبه خلال عرض تمثيلي عام ١٩٧٩، وكنت أنا أعرفه من السلع القديمة عند بوابة فانف...

-: هل يمكن القول إن تلك الفترة من حياتك كانت سعادة كلها؟

-: سعادة بالكامل، لا أعرف. أجل بالتأكيد كانت تلك زمن البراءة وهناءة البال. وقد أسهمت اليزابيت كثيراً في المحافظة على التوازن الأسروي الهش، إلى أن جاء ذلك اليوم، وكان غييوم في الثالثة عشرة، حين

اكتشفت المخدرات والحشيش في المنزل، ظننت أنه أحد أصدقاء اليزابيت والذي لا بد أتى بعادة تعاطي المخدرات إلى بوجيفال.

-: قبل الحديث عن مشاكل غييوم مع المخدرات، أريد أن نتحدث عن طفولتك الأولى. وقد ذكر غييوم في كتابه (الاعتراف بكل شيء Tout donner) بأنه ولد مشوهاً: «فيما مضى، حين كنت طفلاً صغيراً، كنت مختلفاً...» كما جاء في كتابه.

-: صحيح، فقد ولد خلال تعاطي والدته الدواء المخدر، تناولت والدته هذا الدواء، المحظر تناوله اليوم، وقد أورث تشوهات جسدية عند غييوم. كان يشكو بشكل خاص من تورم عظمي وزائدة عظمية خلقية أسفل يده. كان عليه أن يخضع لعملية في عضوه الذكري بسبب تشوه خلقي في مجرى البول. أعلم أنه عانى الكثير من كل هذه الأمور سواء الجسدية منها أو النفسية. كان الأطباء يدركون بأن هذا النوع من الدواء المخدر ينطوي على مخاطر لكنهم استمروا في وصفه أعواماً عديدة. ولا تزال هناك دعاوي حول ذلك في المحاكم، ولكن معاناة غييوم الكبرى كانت في اسم العائلة: ديباردیو. كان في نظر الآخرين «ابن.....»، وأعرف أنه دفع ثمن ذلك مع زملائه في المدرسة ومع أساتذته، لهذا كرهت ضاحية باريس الغربية، كنت أذهب لإحضاره عند روجه من المدرسة، وكان اسمي على إعلانات فيلم (الزوجةالأخيرة) لماركو فيريري، وقد منع من العرض ما لا يقل عن ستة عشر عاماً بدءاً من عام ١٩٧٦. لعبت في الفيلم دور رجل يقطع عضوه الذكري بسكين كهربائية أمام أعين صاحبته أورنيلاموتي، وهو موضوع تركيب وعرض وفاة هذا الثنائي. قامت القيامة على الفيلم في الصحافة بدءاً من الفيغارو إلى الليبراسيون. وكنت في نظر التلاميذ وأولياء الأمور إنساناً شاذاً فريداً من نوعه. دفع غييوم ثمن ذلك ولحق به العار. كان علي أن أدفعه لتغيير اسمه، ومع ذلك اقترحت عليه، لاحقاً، فعل ذلك لكنه لم يوافق أبداً، كان يجب قبل ذلك أن أقوم بهذا الأمر بنفسي لأجنبه كل هذه الآلام.

-: يروي غييوم في كتابه أنه حين كان صغيراً «كان طفلاً برياً» وأنه لم يترك أي أثر يذكر في المدرسة، وكان قد بدأ في تعاطي المخدرات وهو في الثالثة عشرة...هل كنت على علم بكل هذا؟

-: أجل كان لدي علم به، لأني ذات يوم، وكما أخبرتك، اكتشفت المخدرات في البيت في بوجيفال، ولهذا كنت أردد دائماً بأني لا أريد مثل هذا البيت الحقير. في الحقيقة أنا نفسي لم أكن أنموذجاً للفضيلة. كان لدي زجاجات النبيذ وكنت أشرب بكثرة وأبدو ثملاً أحياناً وأتناول وجباتي ومعها الكثير من الخمور. من دون ريب لم أكن من هذا الجانب ذلك الأب النموذجي، كنت مغالياً في سلوكي على الدوام: مفرطاً في شربي وأزدرد الطعام لأن ثمة من ينتظرني للتصوير، كنت أشد حركة من الآن. ولكن الأمر مختلف تماماً مع ابنتي روكسان التي ولدت حين كنت في الرابعة والأربعين. ولكن كيف لي أن أكون ذلك الأب المثالي وأنا في الخامسة والعشرين؟ أنا لم أكن أعرف، ولم أقدر على ذلك...

-: ماذا فعلت حين اكتشفت أنه، وهو ابن الثالثة عشرة، يتعاطى المخدرات...

-: لم أكن أتصور لحظة أن ابني يمكن أن يتعاطى المخدرات، أو بعبارة أدق، لم أكن أريد رؤية الحقيقة. لم أتصرف بحزم بما يكفي، كان علي من دون شك، أن أهتم به أكثر وأن أكون حاضراً أكثر وأن أخفف من

مغالاتي. لكني كنت أعمل في وسط تعشش فيه الموبقات، فقد كانت المخدرات في الوسط السينمائي كأي شيء عادي! كنت أعيش يوماً بيوم وسط أناس يتعاطون المخدرات، ومثال على ذلك باتريك ديوير.

-:.....

-: باتريك كان يتناول كل شيء، وهذا ليس بجديد. كان يدخن بشراهة في أثناء العمل في فيلم (راقصات الفالس)، أنا لم أستطيع فعل ذلك، لأنه كان يدفعني إلى النوم. الناس جميعاً، في الواقع، تتعاطى المخدرات، وأنا نفسي تناولت منه جرعات وخاصة الهيروبين. كان باتريك في بعض الأحيان يستغرق في أطوار عميقة من الكآبة، وخلال ذلك كنت أصحبه، على طريقتي، إلى عمق وحدته. لكني كنت على النقيض منه، فقد كانت صحتي كالحديد وجسمي كالصخر ويمكنني أن أبتلع أي شيء، كان هو أضعف مني بكثير. وكنت أرى يوماً بعد يوم ما تفعله به هذه القذارات، ومع ذلك جهدت ما وسعني كي يقلع عنها، شخصياً لم أستطع التوقف عن الشراب وكنت أفضّل النبيذ والبيرة.

-: هل كان غييوم يعلم بأنك تتعاطى الهيروبين؟

-: الهيروبين، لا، لا أعتقد...لكن ربما، لا أعرف. على كل حال كان يعلم بأني لا أحب تعاطيه! لكني وكما أخبرتك لم أكن ذلك الأب المثالي، أعتقد بأنه اكتشف شخصياً الهيروبين مع بدء دراسته للموسيقى. والهيروبين مادة صعب اكتشافها إلاّ إذا أكثرت منها. هذا المخدر يمنحك الهدوء والصفاء، ويخفف من الآلام لشاب شديد الانفعال مثل غييوم.

-: عاش غييوم في مدرسة داخلية مما جعله مكتئباً عصابياً، لكنه لم يبقى هناك سوى شهر ونصف، وفي النتيجة طرد من ستة معاهد وثانوية بسبب وقاحته في الغالب. هل تشعر أنه إلى حد ما كان يسعى إلى تقليدك ومنافستك كنوع من المزايدة؟

-: بصراحة، لم أشعر بهذا أبداً. ربما كان الأمر في اللاشعور فأنا لا أعرف شيئاً عن الأمر. لا أعتقد أنه كان شريراً في الأساس، وأعتقد أيضاً أنه يتفوق علي فيما روته الصحافة عني وعن طفولتي الصعبة، وعن ماضيّ كطفل مغتصب شرير. صحيح بأني ارتكبت الكثير من الحماقات، وأني كنت سبّاقاً إلى الشغب لكني كنت حراً. كنت أكرر القول لغييوم: «ما تقوله الصحافة عن والدك ليس صحيحاً، لا تصدقها بل صدقني أنا! دقق فيما تقرأ». لكن كان من الصعب أن يسمع لصوت العقل. حاولت مثلاً أن أشرح له كم كنت فخوراً بوالدي وبمهنة والدي ومواهب والدي على الرغم من كل عيوبه. لكن ذلك كان أكثر سهولة لي من غييوم. رووا له الكثير عني وعن أخباري... أتخيل كم أن هذا يجعل الحياة لا تطاق، شخصياً لم تكن لدي هذه المشكلة مع ديه ديه...

-: يذكر غييوم في كتابه، أنك تركته أنت واليزابيت يتصرف على هواه في المنزل، وكان أن استفاد تارة من هذه الحرية وأساء استخدامها تارة أخرى... ثم يستطرد واصفاً قذاعة لسانك: «حين كنت أسمع منه كلمة، كنت أستشعر العنف، ولكن أشد ما كان يظهر هذا في عينيه! كنت أشعر أنه سيقتلني...».

-: نعم هذا صحيح وأنا لا أخجل من قول ذلك. كنت ألجأ أحياناً إلى ضربه وتثور ثائرتي، ولكن علينا النظر إلى هذه الحالة وكيف كانت تبدأ. عندما كان يبدأ في المراوغة كان يصعب السيطرة عليه.... لكن يجب ألاّ نبالغ، لأني لم أكن أزعجه بعد ذلك بالضرب المبرح. ومنذ أن وقع في براثن المخدرات بدأ في الصدام. ماذا تفعل في هذه الحالة؟ كيف تتصرف حين يهددك ابنك بسكين؟ لا تعرف الإجابة، وأنا كذلك، ولا أحد يعرف! وهذه من الأمور المألوفة لدى الجميع. كانت والدته تخشى من اعتراضي فتدافع عن نفسها. وجدت نفسي عاجزاً، كيف أتصرف. عجزت عن إيجاد أي حل للمشكلة... قررت أن أهرب. ربما لأني أفتقد الشجاعة أو ربما لأني جبان، لكن كانت هناك لحظات لم أستطع أن أحتمل فيها هذا المناخ من العنف، وهذه الصدامات المستمرة، كنت أظن، صواباً أم خطأ، بأني كنت أفسد الأمور أكثر مما أصلحها. كان الانسحاب هو الحل بالنسبة إلي ولغييوم. وللمرة الأولى وجدت اليزابيت نفسها في مواجهة مع غييوم. أعرف هذا وأتحمل مسؤوليته...

-: شرحت لي كيفية عبورك مباشرة من سن الطفولة إلى سن الرشد، هل تعتقد بأن غييوم، كما جاء في كتابه، عاش أزمة مراهقة متأخرة، وأنه كان في صدام دائم معك؟

-: ربما. لكن الأمر الوحيد الذي آمله، أن يكون كتابه ذا مفعول إيجابي عليه، لقد باح بكل ما يعتمل في صدره، أهنئ نفسي على ذلك. أعرف حجم معاناته، وأدرك مسؤوليتي عن جميع المشاكل التي اعترضته منذ طفولته، إنه ولدي وأنا أحبه، لهذا لم أرغب في الإطلاع على الكتاب، وأعرف بعض ما جاء في الكتاب من خلال الأصدقاء.

-: هل كنت تعلم أنه وهو في الحادية عشرة كان يقفز فوق الأسوار ليلاً، وأنه كان يتسكع وسط باريس؟

-: كلا لم يكن لي علم بذلك. ولكن لو عرفت بالأمر لكنت وبخته، ولكن هذا شكل من أشكال التدرب على الحياة كغيره من الأمور. شخصياً، كنت أقضي ليالي بيضاء في شوارع شاتورو حين كنت صبياً صغيراً، ومع هذا لم أمت، والشيء ذاته بالنسبة إليه.

-: أكنت تصطحبه أحياناً إلى أماكن التصوير؟

-: نعم، وقد أخبرتك ذلك، خاصة في فيلم بيرتولوتشي، لكن القضية ليست هنا، فغييوم كان دائماً فريداً في موهبته، كان موهوباً في كل شيء: يعزف الموسيقى، وكانت لمساته على البيانو خلابة، كان ولا يزال حتى اليوم عازفاً استثنائياً، مع إحساس نادر. كان موسيقياً بحق! فبخصوص فيلم آلان كورنو (كل صباحات العالم) تعلّم العزف على كمان الوسط بإشراف جوردي سافال، وعزف عزفاً منفرداً مقطوعة (الحالمة) لمارتان ماريه، والمعروف أن كمان الوسط ليس آلة كأي آلة أخرى... في الواقع يستطيع أن يفعل كل شيء. أغانيه والنصوص التي يكتبها رائعة، ولهذا قلت له: «كتابك هذا، عليك أن تكتبه أنت فقط»، لقد تجلت موهبته في هذا الكتاب الرائع....

-: لم تكن حكاية سجنه أقل فظاعة، فقد حكى أنه، مثلاً، كان يمارس العهر مقابل الحصول على الكوكايين.

-: ما رواه شيء يخصه لوحده. أعرف ما كان يجب علي أن أفعله كأب وما لم أفعله. أعرف كم كنت غائباً في الوقت الذي كان يتوجب علي أن أكون إلى جانبه، أطلب السماح منه عن ذلك، رغم أنه ليس الوحيد في هذا العالم الذي يضطر إلى حل مشاكله في غياب والده. لم تفلح المخدرات في تهدئة طبعه النيراني، بل قادته لارتكاب أشياء غير معقولة إلى حد...

-:..... دخوله السجن، في أول احتجاز له خلف القضبان وهو في السادسة عشرة!

-: إدخال فتى في السادسة عشرة إلى السجن، هذه نذالة وخاصة من أجل سقطات أو هنّات بسيطة، كقصة عبوة البودرة، وفيما بعد أدخله الكوكايين السجن، ولكنه قام بعدة محاولات انتحار، وكان يلجأ إلى تشويه جسده في بعض مراحل حياته، هل تعرف معنى ذلك؟ بالطبع المخدرات كانت هي المسبب لكل هذه الأحداث، ولكن يمكن استدراك ما حصل. وأنا، مثلاً، كنت لفترة طويلة مليئاً بالعقد، ولكن بعد سن محددة أمكنني التآلف مع عقدي وهواجسي، في لحظة ما تنتهي هذه الأمور جميعاً، لكنها ويا للأسف استمرت مع غييوم.

-: ثمة قاسم مشترك بينك وبين غييوم لم يأت عليه أحد بعد. فحين تأكدت والدتك بأنها حامل بك فكرت في الإجهاض، ومن جهتك كنت تعد نفسك، لفترة طويلة، كطفل غير مرغوب فيه. ترى ألم يدر في خلد غييوم المشاعر نفسها حقيقة؟ أبي كان لا يزال شاباً صغيراً حين أصبح أباً ولهذا لم يحتفِ بقدومي إلى الحياة....

-: سؤال جيد! لكن، كما ترى، هذا يدل على المعالجة الحسنة. كيف تريدني أن أجيب؟ نعم، كنت أعتقد خلال فترة طويلة أني شخص غير مرغوب فيه. هل كان لدى غييوم الإحساس ذاته؟ لا أدري. لكن في المقابل أنا متأكد أنه كان كطفل ثمرة حب وأننا أنا وأمه كنا نحتفي به. والعلاج الوحيد لكل المشاكل الآن هو أن تكون لقاءاتنا في حدها الأدنى.

-: يذكر غييوم كذلك بأن معاناة والدته من خياناتك كانت أقل مما عانته من أكاذيبك...

-: أنا لم أكذب على اليزابيت أبداً. فحين أصبحت كارين حاملاً أخبرتها بالأمر فوراً، حتى أني أعلمتها برغبتي بالمولود. وقد حاولت اليزابيت، نفسها، إقناعي بأن كارين ستلقي بمسؤولية الطفل عليّ، لكني طالبت بأبوة الطفل قبل ولادته، وخصصت له منزلاً وتعهدت بنفقة أمام كاتب العدل... لم أخدع اليزابيت.

-: كانت (كارين سيلا) عارضة أزياء فرانكوأمريكية، وهي ابنة ديبلوماسي سينيغالي. كيف تعرفت عليها؟

-: في نيويورك. كانت هناك مع صديقتها جينا، عارضة الأزياء القديمة. وحصل التعارف بعد الانتهاء من فيلم (سيرانو دو بيرجراك) وكنت خلالها أصوّر فيلم (غرين كارد) لبيتر وير وبطولة آندي ماك دويل. تم التعارف بيننا في الفندق واستضفتهما في شقتي لأنهما لم تعرفا أين ستبيتان، وهكذا ظهر الخير والشرف. أنا وكارين لم نغرم ببعض إلاّ بعد عودتنا إلى باريس.

-: المشكلة أن اليزابيت اكتشفت هذا الحب من خلال الصحف...

-: لا أبداً! لقد أخبرتها بكل شيء قبل أن تنشر صورنا مجلة Voici، وفي تلك الأثناء كنت أصور فيلم (Uranus) لكلود بيري وهو مقتبس عن رواية لـ مارسيل إيميه. أخبرتها بالحقيقة كاملة قائلاً: «أحب فتاة التقيتها في نيويورك منذ عدة أسابيع»، انزعجت، لكنها قالت في نفسها أن الأمر لا يعدو كونه حباً عابراً. هنا فقط لم

أفقد مشاعري وأنجبت طفلاً من كارين سيلا في كوستاريكا خلال تصوير فيلم (١٤٩٢) لرادلي سكوت. أتذكر الأمر جيداً لأني اصطحبت غييوم معي إلى التصوير.

-: ألم تكن فكرة غريبة أن تصطحب كارين وغييوم معاً إلى كوستاريكا؟

-: غييوم كان غارقاً في مشاكله مع المخدرات، وفكرت في أنه سوف يرتاح قليلاً لعدة أسابيع في كوستاريكا. كنت أظن أنها الطريقة المثلى لمساعدته على التخلي عن الكوكايين... انظر ماذا حدث بعدها، انتهى تصوير الفيلم وولدت روكسان في اليوم المحدد لعودتنا في ٢٨ كانون الثاني عام ١٩٩٢.

-: كيف كان تصرف غييوم وجولي عند ولادة أختهما غير الشقيقة؟

-: لم تظهر جولي أي نوع من العواطف تجاه كارين، وهذا طبيعي، لأنها بالضرورة كانت إلى جانب والدتها، لكنها في المقابل كانت تعبد روكسان. كانت جولي تفصل باستمرار بين الأحداث التي صبغت حياتنا العائلية. في فترة ما، مثلاً، كان أخوها يساعدها ويقدم لها كل شيء. شخصياً تعجبني طريقة جولي حين كانت تنزوي في غرفتها لتغوص في كتبها الفلسفية، وحسناً فعلت. جولي هذه شخصية جميلة من الخارج ومن الداخل، ذكية وسخريتها محببة، وهي تؤكد دائماً على المسافة التي تقيمها مع الأشياء ومع الناس. جولي هذه أعجوبة! حقاً أنا رجل محظوظ كونها ابنتي.

-: ماذا كان رد فعلك الشخصي حين استحوذت صحيفة People وخاصة صحيفة Voici على قصتك مع كارين؟

-: بالطبع تصرفت بشكل سيء جداً، لأني شخصياً لم أكن مضطراً للاعتراف بالولد الثالث. هذه الطفلة التي اعترفت بها قبل ولادتها وأهديتها منزلاً وقررت تخصيص نفقة لأمها كي لا تضطر إلى العمل، مع أن كارين كانت مترددة في هذا وكان لديها عقدة الطفل الخلاسي، وأخبرتها بأن نظرة الناس تغيرت وأن باريس في العام ١٩٩٣ هي غير شاتورو ١٩٦٠... لكن أظن، بصفة خاصة، أن القائمين على هذه الصحف لا يقيمون أي وزن لهذه القسوة التي تثيرها هكذا أخبار داخل العائلات المعنية. وحتى لو كانت اليزابيت والأولاد على اطلاع مسبق بالأمر، سيرعبهم أن تكون مثل هذه الأخبار الحميمة في متناول القرّاء. ومهما يكن فهذا الأمر الذي نعيشه بألم يختلف عما يمكن أن نعيشه مع علمنا بأن الناس جميعاً تعرفه. وعلاوة عن الأسلوب الكريه المتبع في رواية الأحداث، يستمتع الصحافيون بأفعالهم الشريرة، يبالغون في الأحداث، ويعمدون إلى تشويه التفاصيل، ويبيحون نشر كل شيء، طالما الأمر يزيد في مبيعات الصحف....

-: يذكر غييوم أنك اكتشفت معنى الأبوة مع روكسان، ثم يضيف قائلاً: صدمني هذا وتساءلت: غير ممكن هذا، هل لها الحق بذلك؟ أيمكنك تفهم هذا الإحساس لديه؟

-: بالطبع، أنا أتفهمه، ولكني أكرر للمرة الثانية بأن أسلوبي كأب في الثانية والعشرين يختلف عن أسلوبي وأنا في الرابعة والأربعين. كذلك لا يمكن أن يكون هو الأسلوب ذاته في بداية السبعينيات وفي التسعينيات. بالتأكيد هو محق في ذلك. وطبعاً سلوكي مع روكسان لم يكن شبيهاً بسلوكي معه أو مع جولي، وإليك مثلاً على ذلك: أنا عرّاب أنطوان بيالا ابن موريس وأعدّه حقيقة كابن لي، لكنه لو كان ابني في المعمودية

منذ ثلاثين سنة لكان الأمر مختلفاً. هذه ليست غيرة من غييوم لكنها الحقيقة. وفي الواقع منحت روكسان ما لم أستطع، ربما، منحه لغييوم وجولي. كل الأسر المفككة تعيش إحساس غييوم نفسه. ثمة وهم بأن الطلاق والانفصال هما كنهر طويل وهادئ وأن العائلة الجديدة هي خلاصة الحداثة ذاتها والحالة الطبيعية، ولكن من الصعب أن تعيش لكل الناس وخاصة للأولاد.

-: يروي غييوم في كتابه أنه كان يعمد إلى تشويه جسده عند كل انفعال حاد. مثلاً حين طلب، في أحد الأيام، يد إيليز للزواج وحين لم يسمع الموافقة الفورية على طلبه دخل الحمام بغرض إيذاء نفسه لدرجة أنه فقد صوابه... هل كنت على علم بالأمر؟

-: طبعاً عرفت بالأمر. غييوم لم يكن عنيفاً أيضاً معي فقط، بل كان عنيفاً أيضاً مع نفسه. وحين يقع في الأزمة، تصبح والدته مشوشة بالكامل ومذعورة، وأنا أفهم مشاعرها. ألم يتعذر وصفه لأم أنجبت طفلاً وتجد فلذة كبدها في حالة ضياع، هذا منتهى الألم.

-: كذلك كانت التقارير عنك عنيفة أحياناً. مثلاً في أول إقامة له في السجن وهو ابن السادسة عشرة، بتهمة السرقة، ذهبت لمقابلته في مكتب المفوض، أظن أن تلك المقابلة لم تجر في سلام، أليس كذلك؟

-: صحيح، فقد زرته في مكتب المفوض وكان لقاءً عاصفاً، علت أصواتنا وكنت أنا السبب. كنت في منتهى التعاسة لوجوده في هذا المكان. انتابني إحساس بالإثم والغضب في آن معاً. إحساس بالإثم حين ترى ولدك يرتكب الحماقات، وأنت موجود هنا حتماً لسبب ما. وشعور بالغضب لأنه لم يراع والدته. إذن... ذهبت لمقابلته في مكتب المفوض كي أخبره بأني إلى جانبه وأنه يمكنه الاعتماد علي، وبأني أحبه ولكن كانت النتيجة تراشق في الكلام. وما جرى، يرمز بطريقة ما، إلى العلاقة التي كانت بيننا. كان غييوم عنيفاً دائماً معي، على الصعيدين المادي والمعنوي. لكني أتقنت تلقي الضربات، كنت أعلم أنه قادر على فعل ما يشاء حين يكون تحت تأثير المواد الكيماوية، كان قادراً على قول وفعل أي شيء. حتى ولو كنت إنفعالياً جداً، لم يكن من المفيد أن أجيبه بكلمات أو بعنف.

-: جاء في السجل العدلي لغييوم ما يلي: تعاطي المخدرات وشراؤها والإقلاع عنها، اعتداء، سرقة عن طريق العنف، تمرد، شتائم ضد الشرطة ومشاجرات في الأماكن العامة... حدث هذا كله وهو دون العشرين في بداية تفرده، إثر إدمانه على الكوكايين والهيروبين صار يميل إلى الانحطاط. لدى عودته من رحلة إلى هولندا، أوقف بسبب جنحة مشينة في فوكريسون، كان يحمل معه كمية تزيد عن الاستهلاك الشخصي من الكوكايين، هل كان يتاجر بها؟

-: لا، لا، لا يمكن أن أسمح لك بقول هذا! غييوم لم يكن أبداً تاجراً أو بائعاً بالمفرق، كما زعم قاضي تنفيذ العقوبات في فرساي، هذا شيء غير صحيح. التاجر هو من يعيش من تجارة المخدرات وفي الغالب لا يتعاطى المخدرات. غييوم لم يكن تاجراً، ولكن أعتقد أنه دفع الثمن غالياً لأنه ابن أحد المشاهير... بصراحة لم تلصق به سنوات السجن الثلاث وهو في هذه السن الصغيرة لوجود ثلاثة غرامات من الهيروبين في جيبه، هذا لا ينسجم والتهمة المنسوبة إليه.

-: هل حاولت إخراجه من هناك؟

-: حاولت قدر استطاعتي، أعترف بهذا. لم أطلب معاملة خاصة لغييوم كونه ابناً لديباردیو. أردت الإنصاف معه. لم يكن يستحق هذه الأعوام الثلاثة من السجن. قابلت فرانسوا ميتران في طائرة الكونكورد المتوجهة إلى نيويورك، وقلت له: «سيدي الرئيس، سأدعو إلى مؤتمر صحفي وسوف أمزق، أمام الحضور، جواز سفري وأغادر البلد... إن ابني ضعيف للغاية ولا يمكن أن أدعه يمضي ثلاث سنوات في السجن. هناك من ارتكب أموراً أشد خطورة منه ولم يصبهم ما أصابه، هذا إجحاف...» أجابني قائلاً: لا تقدم على شيء مما ذكرت. الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله لأجلك هو أن أصدر أمراً بتغيير القاضي. اذهب وقابل بالا دور واطلب منه أن يرسل ابنك إلى قاضي تنفيذ عقوبات آخر.

-: هل قمت بذلك؟ هل طلبت مقابلة الوزير الأول إدوار بالادور؟

-: نعم، وقد تصرف بلياقة. لم يستطع الإفراج عن غييوم، لكنه اعترف أن ثمة لغطاً بشأن هذه القضية، ثم وافق بعدها على تغيير قاضي تطبيق العقوبات. كان غييوم في سجن بوا دارسي bois- d Arcy، وكنت أنا منشغلاً في فيلم (جيرمينال) لكلود بيري، وحين ذهبت لمقابلته في السجن، سمعت أشياء مرعبة: «انتظر ديباردیو، سوف نغتصب ابنك وسترى!» دافع غييوم عن نفسه بكرامة، حاول أن يظهر كإنسان محترم، وقد كلفه هذا أياماً كثيرة من البؤس. تحدثت مع مدير السجن، لكنه لم يحرك ساكناً، واعترف اليوم أنه لم تعد لي ثقة في العدالة ولا في الشرطة، وقتذاك كنت أصور فيلم (٣٦) لأوليفييه مارشال. شاركت في أفلام كثيرة حول رجال الشرطة، وتأكد لي بأن الخوف قد غيّر مواقعه، في السابق كان الزعران ينتابهم الفزع أما اليوم فرجال الشرطة هم من يخاف، وتظهر ردود أفعالهم في الحال وهي أحياناً، غير متوازنة كما في حالة غييوم!

-: وفي النتيجة بقي غييوم رهين السجن ثمانية عشر شهراً، وبعد الإفراج عنه، باشر على الفور العمل في فيلم (المتمرنون les apprentis) لبيير سلفادور، لكنه استمر في تعاطي المخدرات إلى درجة أنه حاول الانتحار ملقياً بنفسه من الطابق الثالث.

-: لم يصلح السجن أي شيء فيه. غييوم كان منكسراً ومقتنعاً بأنه كان ضحية اللاعدالة، كان إحساسه بأن معاملة القاضي له كانت قاسية بسبب اسم العائلة ديباردیو. وفي السجن تكرر الأمر وأجبر على دفع الثمن لأنه ابني وحسب. سعى غييوم قدر ما استطاع التميز بشخصيته في فيلم بيير سلفادوري. ذهبت لأقنع بيير بمنح غييوم أسبوع استراحة وإلاّ سيكون في وضع مأساوي.... وافق بيير ودخل غييوم العيادة النفسية ورمى بنفسه فعلاً من الطابق الثالث. انتهى تصوير الفيلم وجسمه ملفوف بالجبس...

-: وحصل على جائزة سيزار لأفضل أمل....

-: هذا هو غييوم! إنه موهوب حقاً ورغم حالته قدم عملاً رائعاً في هذا الفيلم. عرفت كثيراً من الممثلين ذوي مواهب كبيرة يتعاطون المخدرات ورأيت بعضهم في كآبة مطبقة، وبعضهم الآخر أقلع عن المخدرات وقدّم أعمالاً رائعة. غييوم يعاني من مشاكل وجودية أكثر عمقاً جاءته من أماكن بعيدة، ولا شك في أن السبب في كل هذا يعود إلى صدماته النفسية في الطفولة.

-: وحدثت المأساة التي تنبأت بها خلال عمله في فيلم (المتمرنون) عام ١٩٩٥ حيث وقعت لغييوم حادثة الدراجة النارية...

-: كان حادثاً مروعاً على دراجته (X T 600)، حيث تحطم كل جزء في جسده، كاد أن يموت. كان حادثاً مروعاً، تحطم جسده بالكامل بحيث لم يستطع الأطباء حقنه بالبنج. كان عليه أن يتحلى بشجاعة خارقة لاحتمال آلامه، وأذكر في الأسبوع ذاته، أن ابن أحد الوكلاء الفنيين، وكنت أعرفه جيداً، ألقى بنفسه من النافذة، وكان تحت تأثير المنشطات... المخدرات آلة جهنمية حين تتغلغل لا يمكن إيقافها، ولا يَعُد للإنسان أي سيطرة عليها...

-: كانت لغييوم ظروف مخففة: مشاكله الصحية، بتر ساقه في حزيران ٢٠٠٣، إقامته في مركز للتأهيل في فالانتون، معاناته الجسدية والنفسية ثم طلاقه. كان من الواجب أن تقربك هذه الأحداث منه، ألست معي في هذا؟

-: بلا شك. لم أبتعد عن غييوم سوى في فترة إدمانه على المخدرات، وأنا نفسي كنت أفضّل العزلة، حين كنت أُكثِر من الشراب، أظل في عزلة لا أرغب في رؤية أحد، أضف أني لم أكن أهتم بأي إنسان وأنا في هذه الحالة. قتلتني الخمرة ولم أعد كما كنت ورفضت أن أفرض نفسي على المقربين مني. غييوم كان في حال مثل حالي. تمنيت لو أراه وهو في كامل السيطرة على مقدراته، وكان يفقد ملامح حقيقته تحت تأثير المخدرات: كان يشتمني ويهددني، وفي آخر لقاء بيننا صاح بي: «من أنت لتقدم لي النصائح، أنت لست جديراً حتى بالطلاق...»، عندها توصلت إلى نتيجة،مؤداها، أن أفضل حل لحالتنا أن تكون لقاءاتنا متباعدة زمنياً ما أمكن.

-: ولكن غييوم كان له تفسيره الخاص بشأن المدة الزمنية في لقاءاتكما، حيث قال: «أعتقد بأن لوالدي مشاكل هائلة، وحين تكون أسير هذا الكم من المشاكل لا يعد لديك أي رغبة بلقاء إنسان (.....) وباختصار، والدي طبعه كطبع الخنزير، إنه حقود»، ويضيف قائلاً: «لم يعد يرغب بشيء، إنه رجل بائس، وأنا لا أستطيع أن أقدم له أي شيء...».

-: كلا، على الإطلاق. أحوالي كلها على ما يرام. فعلاً حطمني الطلاق. ولكن باستثناء هذا الأمر كل شيء على ما يرام. أنا أعيش وأحيا حياة سعيدة كما ذكرت لك، ولا شك في أن طبعي كطبع الخنزير، لكنني لست حقوداً. وكل من يسيء إلي يبتعد من تلقاء نفسه عني. أنا لست بائساً. في الحقيقة كل شيء على ما يرام. الأمر الوحيد الذي لم أستطع تنظيمه هو تعاطي الخمر، فأنا أشرب بشراهة، وأنا منزعج لذلك لأني مع الشرب أتحول إلى حيوان، ألجأ إلى العزلة وأقبر نفسي في البيت، ريثما تنتهي الحالة.... بعد ثمان وعشرين سنة من التحليل النفسي أستطيع القول أني أعرف كل مشاكلي تمام المعرفة. هذه طبيعتي، ولست قادراً على تغيير أي شيء، فقط أحاول أن أفهم لماذا أنا هكذا. أحوالي لا بأس بها... ليس لدي سوى شيء واحد أود قوله لغييوم: «أنت الآن في الثانية والثلاثين وقد حان الوقت: كن كما أنت!»

-: سأستشهد هنا ثانية بقول لغييوم: «أحب والدي وأحتقره للأسباب عينها. لضعفه وطريقة هروبه من الواقع(.....) أحبه في اضطرابه وأحتقره لاضطرابه، حين يسبب الآلام للآخرين أكثر مما يسببها لنفسه». في الواقع أنتما الاثنان تشبهان بعضكما.

-: ربما. باختصار أنا على يقين بأن وراء هذا كله حباً، هناك أيضاً بعض من سوء الفهم، ولكن هناك الحب قبل كل شيء. ينبغي على الرجال أن يتعلموا كيف يكبرون مع ذكرياتهم، مع ماضيهم، مع آلامهم المعلنة والخفية... يتحدث غييوم عن ضعفي واضطرابي.... في الواقع كان يجب أن يكون طلاقي منذ أن ولدت روكسان، طلاق شفاف ودقيق سيكشف عن أشياء كثيرة، لكن الأمر ليس بهذه السهولة كما يظن. لا يتم الطلاق بحركة من إصبعنا. لم يتمكن والديّ من الطلاق، رغم كل حياتهما في مرّها وحلوها، لماذا لأنهما كانا عاشقين، والبرهان على ذلك: أن والدي توفي بعد رحيل والدتي بشهرين، وكأنه كان من غير المعقول، بالنسبة إليه، أن يعيش من دونها. قمنا أنا واليزابيت بإجراءات الطلاق بعد مضي اثني عشر عاماً من الزواج. دع جانباً قصصي العاطفية ومشاكلي الشخصية وعلاقتنا كزوجين، فالكسور التي أصابت غييوم كان لها أكبر الأثر في ذلك وجعلت اليزابيت من هذا الأمر شغلها الشاغل، أما أنا فعلى العكس بقيت أكثر مرونة. كنت أظن، خطأً أم صواباً، أن القلق لا ينفع في شيء وأن علينا الاعتناء بولدنا....

-: الفرق بينكما أنها كانت تعايش الحدث يوماً بيوم فيما فضلت أنت الابتعاد والهروب....

-: نعم هذا صحيح. فضّلت الابتعاد حين أصبح الوضع في حال لا يمكنني التدخل فيه. يمكن لك أن ترد السبب دائماً إلى جبني. شخصياً أعرف أن ما أقدمت عليه كان لحماية عائلتي، واليوم أظن بأني كنت جباناً. - لا شك هناك شيء من الصحة في هذا...

-: أعرف أن علاقتكما ببعض، أنت واليزابيت، بقيت في مكاتب المحامين، وأعرف أن لقاءاتك بغييوم أصبحت نادرة. ولكن حين ترى غييوم ومشاكله الصحية وهمومه المادية ألا ترغب في مد يد المساعدة إليه، ألا تساعده؟

-: نعم بالتأكيد. لكنه يعرف أين يجدني إن احتاج إليّ. انظر إلى علاقتي مع جولي فهي علاقة ممتازة وأنا أقدّر فيها ذكاءها ومرحها وكرمها. غييوم يعرف أني معجب به هو الآخر ويعرف كذلك أنه يستطيع الاعتماد علي. أنا فقط لا أود رؤيته حين يكون في وضع غير طبيعي، أريد منه أن يتعلم كيف يدافع عن نفسه، لأنه أصبح في سن يتوجب عليه أن يكون واقعياً وأقل تطرفاً ولا أعني بالضرورة أن يكون زاهداً، بل بالعكس... غييوم يكتب كتابات رائعة ويؤلف أغاني ساحرة، ويجب أن لا يحول وضعه هذا من تأليف الموسيقى والعمل في السينما والكتابة، ويجب أن لا نقضي حياتنا على ذكريات بالية.

-: هل لا زلت تلتقي بـ اليزابيت؟

-: نعم ولكن من خلال العمل. مثلاً قدمت مساعدة مالية لإنشاء مدرسة السينما التي أقامتها اليزابيت في إكس أون بروفانس، وبدعوة رعاة الأندية وقناة بلوس التلفزيونية من بين أقنية أخرى، وامتياز رعاية جاك

لانغ، وقد انتجت لغييوم (أحبب أباك). وشاركت اليزابيت في بعض المسرحيات. أنا فخور لأني لا زلت قادراً على التعاون مع اليزابيت فهي متخمة بالأفكار الجيدة.

-: كم من الوقت ستستمر إجراءات الطلاق؟

-: لا أعرف. سيتم ترتيب جميع المتطلبات خلال أسبوعين بشكل طبيعي. آمل، على الأقل، أن يتحقق ذلك. مع ذلك لا يمكن حساب التفاصيل الصغيرة كعدد السكاكين وعدد الشوك...

-: أليس هذا مضحك بعض الشيء؟

-: إنها حالة مؤقتة من دون شك. لا زلت أعيش حراً، ولا أحد يستطيع، لسوء الحظ، سلب ذلك مني. المال ليس من أولوياتي كما يتوهم البعض. تزوجنا في ظل نظام تعاوني ويحق لها قانوناً نصف ما أملك وسوف أعطيها نصف ما أملك من: منزل بوجيفال، شقق باريس، منزل تورفيل ونصف شركة إنتاجي مع فريق العمل... النصف في كل شيء! شرط أن يتم التفاهم على ثمن الممتلكات. (يضحك). فقد بالغ، مثلاً، محامو اليزابيت في تقدير ثمن شركة إنتاجي (شركة .D.D للإنتاج) وكان تقديرهم عالياً جداً.

-: وماذا بشأن الفندق الخاص مع مسرحه في شارع شيرش ميدي؟

-: هذا الفندق الخاص يتبع شركة إنتاجي (.D.D للإنتاج) وسيكون مكان إقامتي بعد إتمام الطلاق.

-: أيضاً ماذا بشأن قصر تينييه ومزارع الكرمة في آنجو؟

-: قصر تينييه وكرومه جزء من عقار شركة إنتاجي. أما فيما يخص منزل جان كارميه فأنا اشتريت هذا المنزل إحياءً لذكرى جانو، كذلك لفائدة الأصدقاء والعائلة وأصدقاء جان، أي باختصار «عائلتي»!

الفصل الثالث

بيرتران، فرانسوا، موريس وآخرون

«لن يعود العالم يشبه إطلاقاً الفكرة التي كوناها عنه، منذ أن وجدت السينما»

فيديريكو فيلليني

طنجة، ٢٢ أيار ٢٠٠٤، فندق لوميراج. يعمل جيرار ديباردیو، منذ خمسة عشر يوماً، في تصوير مشاهد دوره في فيلمه الجديد (الأزمنة المتغيرة) تحت إشراف المخرج أندريه تيشينييه، يشاركه البطولة كاترين دونوف وجيلبير ميلكي. اليوم السبت، يوم راحة، نحن بجانب بركة السباحة برفقة جيرار وبعض الأصدقاء. جيرار سعيد في العمل من جديد مع أندريه تيشينييه وكاترين دونوف. تبدو هذه السعادة في مزاجه المرح واستلقائه المريح.

لوران نيومان: أود لو نرجع إلى بداياتك في هذه المهنة. نحن الآن في أواخر الستينيات. ظهرت للمرة الأولى على الشاشة، في فيلم قصير عام ١٩٦٥ بعنوان (الوجودي والقطة) مع المخرج روجيه لينهارت، وقد تزامن هذا مع محاضرات في المسرح للمخرج جان لوران كوشيه، ثم جاء لقاؤك مع كلود ريجي وسيكون قفزة مهمة في حياتك الفنية.

– جيرار ديباردیو: لقاء حيوي. قبل أن ألتقي به، كنت اشتركت في بعض الأدوار في عدد من المسرحيات حيث تدربت على العمل فيها، وكان مخرج هذه المسرحيات جميعاً جان لوران كوشيه، إحدى هذه المسرحيات (بودي الناجي من المياه)، قُدّمت على مسرح الكابوشين وهي مقتبسة عن فيلم لجان رينوار، ومسرحية أخرى بعنوان (أولاد العصابة) موضوعها عن الشذوذ الجنسي، اقتبسها كوشيه إلى الفرنسية، وكنت كما ذكرت لك، لعبت بعض الأدوار في عدد من الأفلام التلفزيونية وخاصة فيلم (موعد في بادن برغ) لجان ميشيل موريس عام ١٩٦٦ بالاشتراك مع روفوس، ومولان، ومارتين ريدون، زوجة إيف بواسيه، كذلك قمت ببعض الأدوار الصغيرة في سلسلة من البرامج الدرامية التلفزيونية مثل (سيبورغ) لجاك بيير عام ١٩٦٧، و(تانغو) لجان كيرشيرون في العام نفسه. كذلك قدمت بعض الأعمال المرتجلة في مقهى المحطة، وقدمت بعض المشاهد في كاباريه في شارع لاغيتيه القريب من مونبارناس، وفي السنة التالية تلقيت دعوة لزيارة كلود ريجي...

–: كلود ريجي أستاذ فن الدراما، مخرج كبير، مفتون بكتّاب المسرح البريطانيين كالكاتب توم ستوبارد وهارولد بينتر...

–: كان كلود يبحث عن ممثل يستطيع أن يؤدي دور الفتى الشرير في مسرحية إدوارد بوند (الناجي Saved) وقد أخرجها على خشبة المسرح الوطني الشعبي مع هيوغ كيستر. ضمني إلى فريقه وعملنا معاً قرابة ثلاث سنوات في الأعمال التالية: نص لناتالي ساروت بعنوان (Isma) عام ١٩٧٣، ونص لمانويل بويغ بعنوان (Isaac) عام ١٩٧٣، ونص لبيتر هندكه بعنوان (نزهة على الأحصنة بالقرب من بحيرة كونستانس)، وإذا لم تخني ذاكرتي فقد قدمنا مسرحية من تأليف ديفيد ستوري بعنوان (بيت Home) وهي من اقتباس مارغريت دورا

وخاصة مايكل لونزداك ودومينيك بلانشار عام ١٩٧٣. لقد أكمل كلود بناء شخصيتي. هناك في الإيسباس كاردان في باريس، تجسد إبداعه في الإخراج، عرّفني بجان مورو وسامي فراي وديلفين سيريغ ومايكل لونزداك، كان باستطاعة هذه المجموعة أداء مشاهد وحشية، غير متوقعة، متوترة، أمور لا حاجة لتبريرها أو شرحها. المسرح يشبه إلى حد ما، عراكاً في الشارع: عليك أن تفعل أي شيء للترويج لكاتب ما أو لإحدى الشخصيات... أصبحنا محاربين بفضل كلود ريجي!

-: شاهدتُك مارغريت دورا للمرة الأولى، خلال عرض إحدى هذه المسرحيات عام ١٩٧٢

-: أظن أنها كانت مسرحية (الناجي Saved)، من جهتها، كانت على وشك إكمال فريق العمل لفيلمها (ناتالي غرانجيه) بطولة جان مورو ولوسيابوس، وكانت تبحث عن ممثل لدور بائع غسالات. في نهاية المسرحية، لحق بي كلود ريجي إلى غرفتي وقال لي: «جيرار، طلبت مارغريت دورا أن تأتي إليها غداً في بيتها...» كنت قد سمعت باسمها لكني لم أكن قرأت شيئاً بعد من أعمالها. في اليوم التالي، ركبت دراجتي النارية متوجهاً إلى بيتها في الطابق الثاني في شارع سان بينوا في سان جيرمان دوبريه. في ذلك الحين كان شعري طويلاً ولباسي من الجلد وأبدو كالوحش... كان التناقض صارخاً بيننا. باختصار قرعت الباب ففتحت لي امرأة قصيرة – بالكاد تصل إلى كتفي – أدخلتني إلى شقتها الفسيحة، قلت لها بأن كلود ريجي طلب مني أن آتي لمقابلتها، فجأة انسحبت إلى نهاية الصالة وظهرها إلى الجدار وقالت لي: «تقدم باتجاهي»، نفذت طلبها وأنا على شيء من الدهشة، تقدمت نحوها في هدوء حتى وصلت على مسافة عشرين سنتمتراً منها، وكنت أنظر إليها من فوق، فقالت لي: توقف، لا بأس، لقد أخفتني... جيد هذا هو المطلوب، لقد رشحت فرنسوا بيرييه لهذا الدور ولكن يجب أن يكون الدور من نصيبك. ثم بدأت في شرح هذه الشخصية: إنه رجل دائم السفر، وهو بائع غسالات ماركة ماشينا طانبور ٠٠٧، ينزل في إحدى سفراته عند إحدى النساء، ابنتها عازفة بيانو، وكان من المفترض أن يروّج لبضاعته... هكذا كان لقائي الأول مع دورا... وكان علي أن أتصرف تماماً بما تمليه علي فطرتي.

-: تم عر ض فيلم (ناتالي غرانجيه) عام ١٩٧٣ ثم تلته سلسلة أفلام للمخرجة ناتالي ساروت: فيلم (امرأة الغانج) ١٩٧٤، فيلم (باكستر فيرا باكستر) ١٩٧٧، فيلم (الشاحنة) ١٩٧٧... ولكن كيف كانت طبيعة العلاقة بينكما؟

-: كانت علاقة متينة جداً. كان من المعروف سلفاً أن دورا وديباردیو هما من عالمين مختلفين خاصة في بداية السبعينيات، لأنها من جهتها كانت الكاتبة، الرومانسية، المخرجة، المثقفة والصورة الرمز لسان جيرمان دي بيريه، ومن جهتي كنت ذلك الإنسان البريّ، الأمي أي باختصار كنت لا شيء. لكن دورا ضمتني إلى عالمها في الحال. حين تعرفت بها، كنت أجهل كل شيء عنها: الحرب المقاومة، روبير آنتيلم، علاقتها بفرنسوا ميتران... ومع ذلك، ربما كان جهلي، لكنه لم يكن على الأقل عدم إدراك مني، قد سهّل في ولادة هذه العلاقة بيننا. كان ينظر إليها بوصفها مثقفة نخبوية، وكان صمتها يطول فتبدو كلغز، ومع هذا لم تخجل من صداقتي أبداً، بل على العكس لأني كنت على إيمان دائم بأن مارغوتون – وكنت أناديها بهذا الاسم – هي ابنة هذه

الأرض، البسيطة، الحقيقية والشديدة التواصل مع الحقيقة. كنت دائماً أتكلم معها بحريّة، وكنا نتحدث أحياناً في الأدب... ذات يوم فاجأتها في منزلها، وكانت في المكتب، ترتدي كعادتها تنورة من قماش مقصف، وكانت بصدد إعادة كتابة إحدى مسرحياتها، فخاطبتها قائلاً: «لماذا تعيدين كتابة هذه المسرحية؟» وكنت أتدخل كالعادة بما لا يعنيني.

-: لأني لا أحبها

-: ولكن أؤكد لك بأنها مسرحية ممتازة، شخصياً أفضّل من أعمالك كتاب (أحصنة تاركينيا الصغيرة)

-: حسناً، أنا أكره هذا الكتاب!

-: لماذا تكرهينه. إنه لأمر غاية في الجمال أن تثرثر النساء فيما أزواجهن يلعبون الكرة ويشربون اليانسون، شخصياً أحب كسل تلك السيدات.

-: آه، هكذا ترى الأمور إذن؟

-: نعم، هذا في كتابك كما قرأته أنا...

-: آه، حسناً؟

-: نعم، ولكن أجمل ما في هذا الكتاب، في نظري، هو(اغتصاب بول – ف شتاين) وشخصياته التي تحاول الركون إلى العزلة راجية أن يكون لحياتها معنى بفضل الحب المطلق، إنه شيء رائع....

لم يكن لديّ، أي معرفة فلسفية أو أدبية أو سياسية، لكن بدأت أقرأ أعمالها واهتممت بها وبإنتاجها. لم نكن متفقين على الدوام، لكن المهم أننا كنا نتبادل الاهتمامات، لم نأتِ في حواراتنا المختلفة على قصة انضمامها للحزب الشيوعي وكنت لا أعرف أنها انسحبت من الحزب، ومع ذلك كنت أناقشها في عملها، وأظن أنها كانت تحب سذاجتي وصدقي كثيراً، وكأني لم أكن، في حضورها، مع أحد عمالقة الأدب الفرنسي. كانت لدينا الأحاسيس الشعرية نفسها، كما أظن، وكانت تعلم مدى صفاء نيتي عندما أتحدث إليها. وأذكر أحد حواراتنا حول فيلمها (الشاحنة) الذي يتحدث عن امرأة مريضة بالنسيان يعثر عليها جثة داخل غابة. لقد سحرتها القصة التي رويتها عن خالة أبي، الخالة بيرت، وقد لاقت المصير ذاته، كما في الفيلم. كانت هي الأخرى قد خرجت من مأوى العجزة وتاهت ثم عثر على جثتها بعد مرور زمن طويل، بعد أن نهشت جثتها حيوانات الغابة... لم تصدق القصة حين رويتها...

-: إذن لم تكونا تتحدثان إلاّ في مثل هذه المواضيع، واعذرني إن قلت أنها كانت تعاملك كخادم عندها تقريباً...

-: خادم. لا تبالغ، صحيح أنها كانت تطلبني، لأصلح لها مرحاضها المسدود، أو لأعيد طلاء جدران غرفتها، وكانت تقول لي حينها: «أخبرني جيرار، أيمكنك أن تأتي إلي في المنزل» فأبادر أنا في الذهاب إليها في الحال وتكون في انتظاري على الدرج وفي يدها الفرشاة وعلبة الدهان... وكنت أشمر عن ساعدي وأبدأ العمل، ولم يكن هذا الأمر يزعجني بل على العكس فقد كنا نتحادث في كل شيء أثناء عملي في الطلاء... أذكر مثلاً أنها كانت تقرأ من دون توقف في كتاب (المفتش برتران)، كانت تريد أن أشاركها في شراء غرف

للمربّيات كي نؤجرها. وكانت تقول لي: «هل تدري أن ثمة قضايا ينبغي حلّها، هناك الكثير من اللاجئين السياسيين الذين لا مأوى لديهم... يجب شراء غرف وتأجيرها لهم...»

-: الكلام بيننا، هل كانت العلاقة بينكما، علاقة أم بابنها؟

-: نعم، ثمة شيء من ذلك. بالرغم من أني كنت أجدها قاسية إلى حد ما مع ابنها الحقيقي. وفي المقابل كانت دائماً غاية في اللطف معي، رقيقة جداً وتدافع عني حتى.

-: قبل أن تعمل مع مارغريت دورا، كنت قد عملت عام ١٩٧١ مع ميشيل أوديارد في فيلم (صياح اللقلق مساءً فوق أشرعة السفينة) وفيلم (قليل من الشمس في الماء البارد) لجاك ديري، وفيلم (طوال العمر) لبيير تشرينا عام ١٩٧٢، وفيلم (القاتل) لدنيز دولاباتيايير عام ١٩٧٢، وفيلم خوان بونويل (موعد مع الموت السعيد) عام ١٩٧٣، وأيضاً عملت مع خوسيه جيوفاني وكانت كلها بالتأكيد أدواراً صغيرة وفي الغالب تمثل شباناً منحرفين... ولكن من هم شركاؤك في التمثيل: جان بول بيلموندو وكلوديا كاردينالي في فيلم (لاسكومون) عام ١٩٧٢، جان غابان وآلان ديلون وميشيل بوكيه في فيلم (رجلين في المدينة)..

-: ولكن عملت قبل ذلك إلى جانب غابان في فيلم (القاتل)، كذلك، عملت إلى جانبه، في فيلم (قضية دوفينيتشي) لكلود بيرنار أوبير حيث قمت بدور أحد القرويين ويدعى زيه زيه بيران. غابان كان يحبني كثيراً، وكان يطلبني للعمل إلى جانبه كلما استطاع، حيث كان يتوجه إلى منتج أو مخرج الفيلم قائلاً: «أريد هذا الولد معي في الفيلم». غابان وبيبيل وديلون، كانوا ثلاثتهم في ذلك الوقت سوبر ستار! أذكر جهاز الهاتف في سيارة ديلون المازيراتي. كان أول جهاز هاتف في سيارة... هل فكرت في هذا؟ كنت مبهوراً، حين كان يخاطب مدير الفندق، على مسمع مني، فقط للتذكير بأنه في الطريق إلى الفندق، وأنه سيصل بعد لحظات.... أنا كنت كالمسحور.

-: عودة إلى مارغريت دورا وجان مورو: لقد كنت في حمايتهما، أليس كذلك؟ وكنت إلى حد ما صغيرهما، الذي يعيش في ظلهما....

-: أجل وسوف يتكرر الأمر لاحقاً مع باربارا. كنت، حين أشعر بالوحدة، أهرع إلى مارغريت، وبعدها أذهب إلى كنف جان... جان لم تكن من النوع الذي يسدي النصائح. كان يكفيني أن أراها في أدوارها كي أتعلم... مثّلنا معاً في فيلم (راقصات الفالس) ثم في فيلم بيترهندكه (نزهة على الأحصنة قرب بحيرة كونستانس)... كانت ممثلة ساحرة وكنت مبهوراً بأدائها، لقد استطاعت التعبير عن أنواع لا تحصى من الأحاسيس. كان لدى جان حرفية مدهشة.... جان هذه هي بطلة فيلم (جول وجيم) وفيلم (عروس في ثياب الحداد)... كان بيتها مليء بالناس دوماً، أذكر أنها تناولت العشاء في بيتها مع أورسون ويلز، واستضافت كذلك جميع مشاهير السينما والمسرح الفرنسيين والأجانب، وأنا الفتى الأول، الكامل المغمور، كانت تدعوني إلى بيتها إلى جانب هؤلاء الممثلين الكبار.

-: لم يجمع بينكما حب المسرح والسينما بل كانت عاطفة حقيقية. هل كنتما عشيقين في ذلك الوقت؟

-: عشيقان، كلا. بل هو شغف عاطفي. كنت بالنسبة إليها أكثر من صديق، كنت صديقاً حميماً، إن شئت، وأخاً أكبر. كنت فخوراً جداً بتلك العلاقة المميزة. لم يكن لدي، على الإطلاق، أي تفكير بالاستيلاء على أية امرأة كانت! كنا نلتقي سوية ليسمع أحدنا بوح الآخر ويؤازره في مشاكله الصغيرة، لا لنكون عاشقين ولهانين...

-: كنت لا تزال حينها مع اليزابيت...

-: نعم، صحيح كانت لا تزال اليزابيت معي. لكن أكرر وأقول بأني لم أكن أبداً غاوياً للنساء، وإلى الآن أمضي وقتاً طويلاً قبل أن آتي على فعل... أفضّل صداقة المرأة من بعيد. أما فيما يخص علاقتي بجان فقد كانت صداقة دائمة ولا نزال أصدقاء إلى اليوم، والشيء ذاته بخصوص صداقتي مع فاني آردان والتي شهدت بداية قصة حبها لفرنسوا تروفو خلال عملها في فيلم (امرأة في الجوار la femme d a cote) ولم أكن أعلم أنهما يعيشان في منزل واحد.... كانت علاقتي بجان ثم جاءت بعدها تلك الرفيقة البسيطة فاني، وهذا كل ما يمكن ذكره حول هذا الأمر.

-: لقد تزامنت انطلاقتك الحقيقية في المهنة مع بداية التحول في شخصيتك في فيلم (راقصات الفالس) لبيرتران بلييه عام ١٩٧٤ مع باتريك ديوير وميوميو... ذلك الفيلم الأسطورة في السبعينيات، كما كان فيلم الفارس الهادئ (Easy Rider) رمزاً للثورة الجنسية والثقافة المضادة للجنس والمخدرات في الستينيات، وكما كان أيضاً فيلم غودار (على الرمق الأخير) مرجعاً لجيل نهاية الخمسينيات. لماذا وكيف اختارك بلييه لدور جان كلود؟

-: جاء بيرتران ذات مساء إلى مسرح المادلين لمشاهدة مسرحية (Galapagos) للمخرج جان شاتينييه وكنت ألعب دوراً صغيراً إلى جانب ناتالي باي وبيرنار بلييه. وفي الحقيقة يمكن القول إن باريس كانت حاضرة في هذا العرض المسرحي، جاءت لتصفق لبيرنار بلييه.... في تلك الليلة شاهدني بيرتران وكان حينها يكتب رواية (راقصات الفالس) وكانت على وشك أن تتصدر لائحة الكتب الأكثر مبيعاً. كانت بمنزلة رواية الجيل، كما قيل آنئذ، وكان يتمنى أن يقدمها بوصفها فيلماً سينمائياً. أضاف بلييه إلى طاقم العمل ميوميو وديوير وكولوش الذي كان يلعب بعض الأدوار الصغيرة في مقهى المحطة وكنت أنا هناك أؤدي بعض الأدوار. كنت على قناعة تامة بأن دور جان كلود قد فصّل على مقاسي، فكنت أتردد يومياً إلى مكتب المنتج لإقناعه بما أفكر، لكن المنتج لم يكن متحمساً لي وقال لبيرتران: انظر لا يمكن أن نختار هذا الشخص لأن النساء سيهربن إن أسندنا إليه هذا الدور... ولكن أحسن بيرتران أخيراً حين فضّلني على كولوش الذي نجح في بعض الأعمال.

-: يبدو أن الإجراءات التي صاحبت تصوير الفيلم كانت مثيرة. هل هذا صحيح أم لا؟

-: انتهينا من تصوير الفيلم بأعجوبة. لكن في الحقيقة، كنا أنا وباتريك شخصين لا يحتملان، إن عقلي وعقله كانا ملتهبين حقيقة ولا يمكن أن ترى مثيلاً لنا. وعند انتهاء تصوير الفيلم، كانت بالفعل ليلة بيضاء، اغتسلت أيدينا بالرغوات وبقينا نشرب حتى مطلع الفجر. وفي إحدى الليالي وجدت نفسي متورطاً في مشادة.... في الحقيقة كنا نعيش الأدوار خارج الاستديو. كان كل منا يفهم دوره ولكن كنا في بعض الأحيان نجد صعوبة

في الأداء. علينا أن نعترف بأننا كنا نسرف في الشراب. باتريك وميوميو كانا يرتجلان أحياناً وأنا لم أستطع الارتجال أبداً، لم أرتجل حتى في مقهى المحطة. لم تكن لدي العبارات الكافية للارتجال. كان الارتجال بالنسبة إليهما أمراً طبيعياً.

-: لم تفعلوا أي شيء سوى الاستمرار في الشراب...

-: هذا صحيح فيما يخصني لأني كنت أشرب بشراهة. ولكن باتريك كان يدخن الكثير من اللفافات. ومع الإسراف في شرب الخمر تكون النتيجة صاعقة أحياناً. وكان بيرتران ينهار حين يرانا على هذه الحال. لكنه كان مسحوراً من داخله، كان يشعر بما تفعله الكيمياء وبأن هناك سحراً ما في هذا الفيلم..... كان هذا الفيلم، إلى حد ما، جزءاً من السينما الحقيقية نظراً لبراعة مدير التصوير برونو نوتين. وباستثناء التأخير الفعلي للتصوير، بدا المنتج قلقاً وبدأ في الضغط على بيرتران، وقد فاجأنا مرة في زيارة ورآنا أمام سيارته البورش القديمة، ولتهدئته لم يجد بيرتران حلاً أفضل من أن يطلب منا التمدد على أرض البلاتو والكاميرا منكسة وأن نتظاهر بالنوم.... ظننت أن الرجل سيفقد عقله....

-: لقاؤك الأول مع باتريك وميوميو كان في مقهى المحطة. كيف كانت علاقتك مع ديوير؟

-: أوه كانت رائعة للغاية، لكنها كانت علاقة عمل قبل أي شيء آخر.... وباستثناء جان كارميه لم تكن لدي صداقات خارج البلاتو، من جهة أخرى كانت علاقتي مع جان أكثر من علاقة صداقة بين ممثلين... كان كوالدي، كأخي وكان عرّاب زواجي، كان صديقاً لا يمكن الإستغناء عنه. صديقي في مهنة من أكثر المهن إرهاقاً... أما بخصوص علاقتي بباتريك فقد كنا متفاهمين كلصين في معرض، ولم يشاهدنا أحد معاً خارج العمل. كنا مثل كلبين مسعورين ألقي بهما وسط الطبيعة... وحين يلتقي رجلان على طبع كطبعنا تكون النتيجة وميضاً من الشرار. كان يشاع أن باتريك هو الأكثر انضباطاً بيننا، كونه مارس التمثيل منذ الطفولة وكان يفهم هذه المهنة. وأنا لم أمارس التمثيل سابقاً سوى على خشبة المسرح حيث لا شرب ولا ثمالة. السينما هي مهنة الأغنياء، يعمل الممثلون ليلاً نهاراً، هناك المساعدون الذين يهتمون بكل التفاصيل. يأتي الممثل، في المسرح، إلى البروفات على نفقته الخاصة، أما في السينما فيحضر السائق إلى منزلك وينقلك إلى مكان التصوير حيث يكون الجميع في خدمتك... ولكن باتريك كان أكثر هشاشة وضعفاً مني..... باتريك الميت الحي، جريح الحياة الأكبر، الفائق الحساسية....

-: كيف كان التفاهم بينكما وميوميو؟

-: كانت العلاقة رائعة. كنا نسلك في بوهيمية خاصة في هذا الفيلم. ميوميو كانت فتاة مرحة، مبدعة، ممثلة بارعة، كان أداؤها رائعاً في هذا الفيلم على وجه الخصوص. في الواقع كنت أحبها كثيراً لكن ليس لدرجة الإغواء، إن كان هذا ما تغمز إليه... كانت من نصيب باتريك وكنت سعيداً بذلك...

-: لم أغمز إلى شيء، باستثناء تلك الليلة التي كاد باتريك أن يحطم باب غرفتك ظناً منه أنها تشاركك الفراش.

-: نعم، هذا صحيح هذا الذي تقوله، فقد استرعى انتباهي لدقائق عدة، صوت بكاء لكني كنت أجهل مصدره، وإذا فجأة باب الغرفة يتحطم، رأيته في الباب، قبالتي، وعيناه جاحظتان ثم خاطبني: «ظننتها معك.... ظننت أنها تمارس الحب معك...» كان هناك خلط بالنسبة إليه بين الشخصيات التي يلعبها وبين الواقع. وهذه الحادثة تنبئ عن هشاشته المفرطة أكثر من الغيرة، باتريك لم يكن واثقاً من نفسه، كان يشك في جاذبيته، في مواهبه. وكان عليّ أن أقنعه بأن ذلك كان وهماً وبأني لم ألتق ميوميو تلك الليلة، وأني غير قادر على مثل هذا الفعل، وحاولت، لتهدئته، إقناعه بأني لست عاشقاً مغرماً بميوميو.

-: لقد توجهت برسالة مطولة إلى باتريك عبر كتابك (حروف مجنحة) تحدثت فيها عن قصة انتحاره...

-: كنت صادقاً حين قلت إني كنت أشعر بأن الموت يسكنه، بالطبع لم أعبر له عن هواجسي تلك، غير أني كنت متأكداً من هذا الإحساس بالفعل، وكنت أدرك من أعماقي نهاية قصته، كنت أعرف نهاية كل ذلك... كان لديه شرخ في داخله، لكأنه خطأ ما في تركيبته. وحين أعلمت بوفاته لم أفاجأ ولم أذرف دمعة واحدة، لأني كنت أتوقع ما حدث، لكأني كنت أحضّر نفسي لسماع هذا الخبر منذ فترة طويلة.

-: أيضاً، اعترفت من خلال كتابك (حروف مجنحة) بعد وفاة باتريك ديوير: «كم وددت لو كانت لي مغامرة معك(....) إن الشذوذ الجنسي هو أكثر رهافة مما يقال عنه. وأنا لا أعرف ما هي هذه المغامرة وماذا يمكن أن تكون(.....) ولكن يا باتريك لا أستطيع أن أفكر لو أنك لم ترحل، لكنت، ربما، قبّلتك في فيلم (ثياب السهرة)....»

-: لا تجعل من الحبة قبة! لم يكن كلامي هذا سوى إعلان صداقة وحب واعتراف بإيماني العميق. بالطبع لم يكن باتريك شاذاً جنسياً وكذلك أنا، لكني كنت متأثراً بحالته الهشة وشروخه الدفينة، وأظن أنه في طفولته كان ضحية لاعتداءات جنسية. وهو الذي أخبرني بذلك ولكن لا أعرف إن كان لي الحق في إذاعة الخبر. أعرف جيداً أن أساس همومه كانت في تلك الاعتداءات، طفولته لم تغادره، أصبحت هاويته ولجّته الداخلية: الكحول، المخدرات، أشباحه الخاصة به. الاعتداءات كانت مصدر هذه الموبقات، وكنت أشعر شخصياً بأني غير قادر على مواجهة كل ذلك، وعبرت عن هذا في كتابي: «كنت أشاهد رغماً عني هذا العدّ العكسي». كنت أعرف النتيجة الحتمية، لكني عجزت عن فعل أي شيء.... (صمت طويل). عذراً أريد أن ننتقل إلى موضوع آخر، أفضّل أن لا أزيد في الكلام في هذا الأمر. باتريك لم يعد معنا، ولكن هناك بعض المقربين إليه لا يزالون على قيد الحياة، ولا أريد أن أخطئ بحق أي إنسان....

-: أعرف هذا.... إذن جرى الإعداد لفيلم (راقصات الفالس) من أجلك ومن أجل بلييه وديوير وميوميو ويا له من فريق محترف حقاً. أصبحتم جميعاً، بين ليلة وضحاها، ممثلين معروفين وأصحاب شهرة... بعد شهرين من انتهاء تصوير الفيلم، ظهرت بشكل عابر في فيلم (Stavisky) للمخرج آلان رينيه، بطولة جان بول بيلموند وفرنسوا بيرييه ثم عملت، بعدها بستة أشهر، في فيلم (فانسان، فرنسوا، بول وآخرون) للمخرج كلود سوتيه وكان معك في بطولة الفيلم، إيف مونتان، ميشيل بيكولي وسيرج ريجياني. أي مخرجين عباقرة وأي ممثلين عظام!

-: يمكن إضافة عبارة ويا لها من أفلام، إنها اليوم من كلاسيكيات السينما، لكن كل شيء جاء بالمصادفة المحضة أو بطريق الحظ. وفيما يخص فيلم (Stavisky)، يعود الفضل إلى المخرج آلان رينيه، حين أسند إليّ دور ذلك الشاب المبدع، وكان قد استمع لجان بول بيلموند حين وصفني قائلاً: «سيكون لهذا الفتى شأن في المستقبل». وفي المقابل، يظل فيلم سوتيه، بالنسبة إليّ، أحد أفضل اللحظات في عملي في التمثيل. لك أن تتخيل الوضع: كنت في السادسة والعشرين حين قمت بدور جان، الشاب رئيس العمال، الذي كان يهوى الملاكمة، وقد شاركني البطولة: مونتان، بيكولي وريجياني الذي كنت أحبه كثيراً وهو الآخر ميت حي متصدع من الداخل، وماري دوبوا، ستيفان أودران وكاترين الليغريه.... تعمد سوتيه كل يوم وضع هؤلاء الكبار في جو من الموسيقى واستخدم حوارات رائعة. كانت لحظات من السحر الخالص. أجواء سوتيه شبيهة بأجواء تروفو في فيلمه (المرأة التي في الجوار)، أو بأجواء أندريه تيشينييه الذي أعمل تحت إدارته حالياً في طنجة في فيلم (الأزمنة المتغيرة) مع كاترين دونوف... يا لها من سينما عظيمة، بالغة الروعة. في تلك الأيام حين كنت أقرأ سيناريو الفيلم، كنت لا أفقه شيئاً مما أقرأ. سوتيه هذا لم يكن من العالم ذاته الخاص بي، كذلك كان تروفو. وأنا في الحقيقة لم أفهم دوري في فيلم (المرأة التي في الجوار)، إلاّ بعد العرض السابع للصور التجريبية، لقد ذرفت الدمع الغزير أمام حقائق كثيرة، حين أفكر أن التصوير سينتهي وينتهي معه كل شيء بعد ستة أسابيع. لقد عاودني الإحساس ذاته في فيلم (الميترو الأخير)...

-: ثمة أمر يجهله الكثيرون، أنك قبل أن تعمل في فيلم (فانسان، فرنسوا، بول وآخرون)، كنت عملت مع كلود سوتيه في فيلم سابق بعنوان (سيزارو روزالي)، إلى جانب الثنائي رومي شنايدر وإيف مونتان...

-: هذا كلام دقيق. في تلك الأيام كان جان لوي ليفي، ابن جوليان شقيق مونتان، يدير وكالة آرت ميديا، وكان يشرف على مصالح كلود سوتيه الذي كان يبحث عن ممثل قادر على منافسة مونتان في إغواء رومي. أعلم أنه فعل المستحيل لكتابة اسمي على شارة الفيلم لكنه في النهاية آثر سامي فراي، وللأمانة أقول إني كنت صغير السن لهذا الدور، لم أكن قد نضجت بعد وباختصار كان سامي فراي أكثر إقناعاً مني، هذا لا ريب فيه. لأن مظهري كان أقرب إلى غابان وبيلموند من ديلون وسامي فراي. فيما بعد أصبح جان لوي ليفي وكيلاً لي وسيطلب مني أن أكون عرّاباً لابنه فيكتور...

-: جرى كل ذلك قبل أن تختلفا بشكل نهائي....

-: نعم، ولكن بعد ذلك بفترة طويلة أصبح جان لوي صديقاً لي، وكان بيننا تعاون قرابة خمس وعشرين سنة، حيث كان وكيلاً ناجحاً. وجدت في ذلك الحين بان وكيلي السابق في آرت ميديا لم يكن جريئاً كما يجب ولا يولي أعمالي الاهتمام المناسب، لهذا تركت العمل معه واخترت جان لوي بدلاً منه، إلى أن أصبح هذا نفسه منتجاً. لقد ساعدته كثيراً، لكن أظن أنه لم يكن لديه ذلك القبول الفني الكافي من الكتّاب والممثلين. وفعلاً، كانت بيننا جفوة بعد ذلك...

-: متى حدث ذلك؟

-: حدث حين انتهيت من تصوير فيلم (جسر بين شاطئين) عام ١٩٩٨. لقد ظن بأني سرقت منه القصة، لكن في الحقيقة كارول (بوكيه) هي التي أعطتني الكتاب وكانت بدورها أخذته من جان دانييل فيرهانغ.... إنه أمر محزن، لكن هذا ما جرى...

-: لم يكن ذلك أول خلاف بينكما....

-: كلا، لم يكن أول خلاف بيننا، هذا صحيح. فقد وضعني، عام ١٩٩١، في موقف حرج بخصوص فيلم آلان كورنو (كل صباحات العالم)، كان قد حسم الأمر بتكليف دانييل دونوي لدور سانت كولومب وعندما تم تحضير إعلانات فيلم جان دو فلوريت (Jean de Florette) كان اسمينا دوتوي وديبارديو جنباً إلى جنب، ودانييل ممثل فريد احبه كثيراً... باختصار قام بعدة تجارب مع دانييل وفجأة استنتج جان لوي أنه أخطأ في تشكيل فريق التمثيل، وأن دانييل غير مناسب للدور، فاستبدله بجان بيير ماريل... بالطبع لم يكن ماريل هو السبب، كان الخطأ من جانب جان لوي، كذلك لا تقع أية مسؤولية على جان بيير وأنا معجب بهذا الممثل، بل أكثر من ذلك فقد كان مع روشفور أحد الآباء الروحيين لغييوم في السينما.

-: بخصوص إعلانات الأفلام، يبدو أنك أثرت فضيحة مع منتج فيلم (Barocco) حين رفضت أن يوضع اسمك في الإعلانات فوق اسم إيزابيل أدجاني...

-: هذه هي الحقيقة تماماً. ويستطيع أن يشهد على هذا جان لوي ليفي وبيرتران دولابي الذي يعمل الآن بوصفه مديراً لأعمالي. لا أعاني من عقدة النرجسية فيما يخص الإعلانات. أضف إلى ذلك فأنا لا أقرأ عقود أعمالي، ولا أهتم بالتفاصيل الإعلانية أو التراتبية في أفلامي. في المقابل كنت أردد باستمرار أن أسماء الممثلات يجب أن تتقدم على أسماء الممثلين في الإعلانات، أقصد كتابة الأسماء من الأعلى جهة اليسار... لهذا طلبت بإصرار تحقيق هذا الأمر في فيلم (Barocco).

-: أعود إلى الحديث قليلاً عن ذلك الثلاثي العبقري في فيلم سوتيه: مونتان، بيكولي، ريجياني... لقد شاركت البطولة في الأفلام مع كبار الممثلين، منذ عام ١٩٧١ أي منذ بداياتك في التمثيل...

-: صحيح ما تقوله، لكن قبل هؤلاء عملت أيضاً إلى جانب غابان وديلون وميشيل سيمون... كنت أنظر إليهم في أثناء العمل نظرة مبتدئ أمام أساتذة. يمكن القول إني كنت محظوظاً، كذلك يمكنني القول إني عرفت استثمار ذلك الحظ، ولك أن تختار بينهما...

-: كلمة صغيرة حول ميشيل سيمون والذي ستشاركه العمل قريباً في النسخة الثانية لفيلم (بودي الناجي من المياه) مع المخرج جيرار جونيو. لقد قيل أنك حين كنت في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين كنت تتردد معه إلى العلب الليلية في باريس وأنك كنت تصحبه إلى البيت بصعوبة في الصباح الباكر من غياهب كباريهات البيغال... هل هذه أيضاً أسطورة.

-: لا أدري من أين تأتي بكل هذا.... لكن صحيح قولك، لم تكن أسطورة. في الحقيقة كان أحدهم يرسلنا، أنا ودالليو، ليلاً لاصطحاب بيير براسور من مسرح سان جورج حيث كان يمثل في مسرحية (Tchao)، ومن هنا فعلاً كنا نذهب إلى كازينو باريس لاستعادة ميشيل سيمون حيث كان يذهب كل ليلة ويجلس في الصف الأول لحضور

العارضات، ولكن بدلاً من العودة للمنزل بشيء من الرصانة، كنا نقوم بجولة على مقاهي البيغال، وكنت أضطر في الغالب لمرافقته إلى منزله لأن المسكين كان دائماً فاقداً للوعي. ولكن ميشيل سيمون لم يكن يحبني كثيراً فقد قال بعد أن شاهد فيلم (ليس هناك أخبث من ذلك) للمخرج كلود غوريتا وكنت أمثل إلى جانب مارلين جوبير: «هذه قذارة، أي فيلم هذا».... وأنا أعي تماماً معنى أن أعاشر مثل هؤلاء العفاريت الحية، كما أنها كانت فرصة استثنائية لي للعمل في فيلم (١٩٠٠) لبيرنادرو بيرتولوتشي إلى جانب روبيرت دونيرو وبيرت لانكستر، وكانا معبوديّ في تلك الأيام...

-: كانت تلك فترة من حياتك المهنية، قمت فيها بأدوار أنموذجية حقاً، فقد جسدت في فيلم كلود سوتيه دور الملاكم الذي يتلقى اللكمات المتواصلة، وفي فيلم (عشيقة باربير شرودر) عام ١٩٧٦، كنت ذلك الصديق المنحرف للقوّادة السادوماسوشية التي كانت تدير بيتاً للدعارة، وفي فيلم (Barocco) لأندريه تيشينييه مع إيزابيل أدجاني، قمت بدور القاتل سامسون الذي يزعم أنه شاذ مثلي عاشق لأحد السياسيين وذلك للقضاء على مستقبله السياسي، وفي فيلم (المرأة الأخيرة) لماركو فيريري عام ١٩٧٦ شاهدك الجمهور وأنت تبتر عضوك الجنسي بسكين كهربائية وإلى جانبك أورنيلا موتي. ترى ألم تر أن هذه الشخصيات المركبة تصحح من صورة الصبي الأزعر السوقي التي التصقت بك إثر عرض فيلم بلييه...

-: تقول صورتي، لم أكترث لهذا الأمر. لقد تم تصنيفي بعد عرض فيلم (راقصات الفالس)، لأن شبابي المنحرف قد سحر الصحافة، كما قيل. كنت أزعر السينما الفرنسية، والعاصي الذي دخل السجن، وشقائي وبؤسي، كذلك ملفاتي النسائية، جميعها أطلقت لهم الحرية في الكلام. لكن كل ما قيل صحيح من جهة أن نوعية تلك الأدوار كان يصعب تجسيدها على الشاشة من الناحية النفسية. وفي يومنا هذا أضحى تصوير أفلام كهذه من الأمور اليسيرة ثم يجري الانتقال إلى أمور أخرى.... لكن وقتذاك، حين كنت بين الخامسة والعشرين والثامنة والعشرين، لم أكن ناضجاً بعد. ذكرت في سؤالك الشخصيات التي جسدتها في فيلم (العشيقة) وفي فيلم (Barocco) أو في فيلم (المرأة الأخيرة) ولكن دعني أخبرك أن من بين هذه الأدوار، كان من الصعب عليّ أن أخلع عني الرداء الأبيض للدكتور بيرغ....

-: تقصد دورك في فيلم (ستة موتى على التوالي) لجاك روفيو عام ١٩٧٥...

-: نعم، كان فيلماً في منتهى الروعة، وبعد انقضاء زمن طويل على عرض الفيلم، كان الناس ينادونني في الشارع «مرحباً دكتور!» كنت مفتوناً بشخصية الطبيب الجرّاح، الذي يواجه كل يوم تلك النظرة القلقة عند المرضى المنتظرين وهم نصف نيام، قبل الذهاب إلى غرف العمليات. خلال التصوير في المشفى، كنت دوماً في ثوبي الأبيض أمرّ على المرضى في غرفهم أو على النقالات، أمسك الأيادي مخاطباً إياهم لرفع المعنويات: «لا تقلقوا، كل شيء سيكون على ما يرام».

-: لقد أثار فيلم (راقصات الفالس) عند خروجه، لغطاً كبيراً فقد علا صوت الكنيسة الكاثوليكية بالفضيحة التي أثارها الفيلم، وهدّدت برفع القضية أمام المحكمة لمنع عر ض الفيلم. وصحف اليمين تهتم بما يقدم من أفكار جديدة من خلال السينما، وحتى صحف اليسار دست أنفها. وأنت عند قراءتك لسيناريو الفيلم هل جال في خاطرك ذلك الاستقبال الإشكالي الذي أحدثه الفيلم؟

-: بصراحة لا. لأن سيناريو الفيلم كأنه شريط لحياتي. فكل كلمة كتبها بلييه كنت خبرتها بطريقة أو بأخرى. فمن جهة (طريق السينما Road movie) وسرقة السيارات وهذان الرجلان المزعجان للنساء وإيزابيل أوبير العذراء البورجوازية التي تصرّ على فضّ بكارتها... كان كل ذلك حقيقياً ومن جهة أخرى كان كثير من الناس ومنهم الصحافيون يشبهونني بجان كلود. ولكن كل تلك البذاءات التي سلكها جان كلود كانت للتخلص من الضجر... كانت سرقة سيارة والسطو على محل للألعاب أو على مكتب لبيع الدخان يديره شاذ جنسي... كانت جميعها حماقات دافعها الهروب من الضجر ومن رتابة الحياة اليومية.

-: لكن في المقابل حين قرأت سيناريو فيلم (المرأة الأخيرة) لفيريري، تنبأت بالفضيحة التي سيحدثها الفيلم، وبصدمة مشهد البتر...

-: نعم بالتأكيد ولكن للأمانة لم يكن المشهد صادماً لأنه كان ضرورياً في ذلك الفيلم، وحين طلب ماركو بيللوتشيو من ماروشكا ديتميرز أن تقوم بلعق القضيب فعلياً أمام الكاميرا، أعترف بأن هذا انحراف حقيقي لأنه مجاني. وعندما طلبت كاترين بريا من عاملتها أن تدفع روكوسيفريدي، ممثل عمل في فيلم x، إلى تقبيلها، وجدت هذا شيئاً مخزياً بالفعل. في المقابل، فقد فقدت الشخصية التي تخيلها ماركو فيريري كامل صفتها الاجتماعية، وكان عاطلاً عن العمل وهجرته زوجته لدى انتسابها لإحدى المنظمات الثورية. أكرر وأقول أن ذلك المشهد في الفيلم كان ضرورياً. لقد واجه الفيلم عند عرضه استنكار المنظمات النسائية. والمشهد كان صادقاً من دون ريب لكنه لم يكن مخزياً ولا مجانياً.

-: هل أنا مخطئ أو يمكنني قول الحقيقة: أقصد لم تكن هناك مودة كبيرة بينك وبين ماركو فيريري...

-: نعم، نعم. كنا على تفاهم تام، لكن ثمة أموراً أخرى، صعّدت الأمور بيننا، بعد انتهاء التصوير، لكنها لم تكن بالغة الخطورة.

-: لم تكن بالغة الخطورة؟ لكنك تحدثت عن هذه الأمور إلى مجلة كوريرا ديللاسير قائلاً: «كان من البخل لدرجة أنه كان يخشى صعود الغائط إلى رأسه».

-: كان ذلك على سبيل المزاح، لأني قلت حرفياً: «إنه يخاف التغوط لئلا يفقد شيئاً» وأكرر قولي أني حسناً فعلت حين أخرسته. كان حسبما أرى بخيلاً، مريضاً بداء البخل... هذا ما قلته وهذا كل شيء.

-: ربما كان هناك طريقة أخرى للتعبير...

-: ملاحظتك تأتي ضمن فاصل زمني، ولا يمكن قول أي شيء من دون تذكر الترتيب الحقيقي للأحداث. كان الكتّاب والرسامون، عبر العصور، يتبادلون ألقاب الطيور، ولم يترك ذلك أي أثر. انظر كيف تخلص كوكتو أو غيتري من المشنعّين عليهما. فقط ازدادا عنفاً! هل تذكر ما جرى بين أندريه جيد وفرنسوا مورياك. في أحد الأيام كان أندريه جيد على وشك ممارسة اللواطة مع شاب مغربي جميل، بادر جيد عشيقه قائلاً «تذكر جيداً بأنك مارست اللواطة مع رجل مشهور، أنا فرنسوا مورياك، سوف تتذكر الاسم، أليس كذلك؟ أنا فرنسوا مورياك» في أيامنا هذه لا يمكن قول أي شيء عن كائن من كان، فالجميع محصّن، ويجب أن تأخذ جانب الحذر قبل أن تتفوه بأي كلمة.

فحين كان موريس بيالا يتشاجر مع جان يان ومارلين جوبير وأحياناً نادرة معي، لم يكن، أؤكد لك، كمن يقدم الهدايا. كانت تعابير موريس أكثر تنميقاً من تعابير اليوم.... والأمر مع ماركو كان مدعاة للضحك، ومع ذلك لم أستسغه.

-: في تلك الأيام، كان جميع رجال الأرض يودون لو كانوا مكانك وأنت تقبّل أورنيلا موتي....

-: أفهم هذه المشاعر عند الرجال. كانت كالشعاع. إيطالية بكل أبهتها، لكنها كانت صغيرة السن. فقد بدأتْ العمل في الرابعة عشرة مع المخرج داميانو دامياني، وكان هذا يتصرف كالأبله حيالها، يضربها بالسوط خارج البلاتو ليدفعها إلى البكاء أمام الكاميرا. كان يجب أن تكون بديلاً لها صوفيا لورين في عزّها لتتحمل كل هذا الألم. لكن ليست صوفيا لورين، من يقرر ذلك! إن صوفيا هي أم الممثلين جميعاً، وشفيعة الممثلين المقدسة، ذكاؤها نادر الوجود مع قدر من الكياسة في العلاقات وصمت مميز. في أحد أيام التصوير في فيلم (المرأة الأخيرة)، وكنت في قمة غضبي من أورنيلا موتي، بحثت عنها في كل مكان، ثم ذهبت إلى حجرتها الخاصة وكانت تشعل سيجارتها وتجلس هادئة مع خطيبها أليسيو. لقد ذكّرتها بذلك خلال عملنا في الفيلم التلفزيوني (مونتي كريستو) فردت علي ضاحكة: «كم كنت ساذجة» والحقيقة أننا نحن الاثنان كنا من أشد المغفلين في تلك الأيام!

-: بصراحة أقول أنك تمكنت، برغم عدم اتصافك بمواصفات الفتى الأول الرومانسي من إغواء أجمل نساء العالم على الشاشة: أورنيلا موتي وإيزابيل أدجاني في فيلم (Barocco) عام ١٩٧٧ والهولندية الجميلة سيلفيا كريستل في فيلم (Rene la canne) عام ١٩٧٧ وهي التي ستأخذ بألباب الفرنسيين جميعاً في فيلمها (E mmanuelle)، وأيضاً كارول لور في فيلم (جهّزوا مناديلكم Preparez vos mouchoirs) عام ١٩٧٨، وإيزابيل هوبير في فيلم (Loulou) عام ١٩٨٠.... لكن أظنك كنت خجولاً مع النساء.

-: نعم، ولكن أكرر القول إن الغواية لم تكن من طبيعتي أبداً، أعرف ممثلين يقومون بإغواء كل فتاة تقع عيونهم عليها. أنا شخصياً لست من هؤلاء! وسوف أفاجئك حين أقول أن معانقة أورنيلا موتي أو سيلفيا كريستل داخل الاستديو هي أسهل بكثير من ممارسة الجنس مع فتاة أحبها في الواقع، المحاكاة أسهل دوماً. ولم يكن خجلي من النساء في السينما سبباً في أي مشكلة لأن الأحداث كانت غير واقعية. أما سلوكي في حياتي الخاصة فذلك شأن آخر. لكن الأمور لم تكن في السينما بهذه البساطة وفي كل الحالات. فعلى سبيل المثال لم تستطع إيزابيل أدجاني تحمل نظراتي، كذلك لم تكن ترغب في معاكسة المشهد contre champ1 ولو كان هناك شخص آخر بدلاً مني لغاظه الأمر، أما أنا فكنت آخذ الأمر على أنه جزء من حريتها وقرارها الشخصي... حسناً هي لا تريد لنظراتنا أن تلتقي، إذن الأمر سيان عندي.

-: ماذا كان يزعجها؟

-: ربما كنت أنا شخصياً. اسألها! لكن يمكنني القول أننا كنا متفاهمين تماماً...

-: بعد انتهائك من فيلم (راقصات الفالس)، أنجزت سلسلة من الأفلام مع هؤلاء المخرجين: رينيه، سوتيه، بيرتولوتشي، باربيه شرويدر، فيريري، تيشينييه، كومينيتشي.....

-: لم أعمل مع هؤلاء جميعاً بدافع[1] الشراهة في العمل أبداً، كما أشاعت الصحافة، بل كان بدافع الاختيار والاهتمام الخاص، حيث لكل من هؤلاء عالمه الخاص، ولولا خلفيتي المسرحية ولولا جدية المسرح الكلاسيكي التي اكتسبتها بفضل جان لوران كوشيه، ولولا علم المنهج الكبير الذي تسلحت به بفضل كلود ريجي لما استطعت العمل مع هؤلاء المخرجين العظام. فقد كانوا ينظرون إليّ وكأني عجينة طرية جاهزة للتشكل. وقد تمكنوا من تشكيلي على النحو الذي أرادوه. لم يكن لدي بعد تلك العادات السيئة.كنت أعمل بالفطرة. لم يكن لدي أفكار مسبقة عن الشخصيات التي ألعبها، كنت إلى حد ما في عملي معهم في حالة تشكل دائم....

-: بعد أربع سنوات من عرض فيلم (راقصات الفالس) وجدت نفسك ثانية أمام بيرتران بلييه وباتريك ديوير في فيلم (جهزوا مناديلكم)، ولكن في هذا الفيلم تم استبدال ميوميو بكارول لور من ذلك الثلاثي الشيطاني...

-: أجل كان فيلماً مقدساً! فقد انهال النقّاد الأمريكيون بالشتم والإهانة على الفيلم، تم طرح الفيلم في استفتاء شعبي في دول ما وراء الأطلسي ونال في النهاية جائزة أوسكار أفضل فيلم أجنبي. أحتفظ بذكريات عديدة وجميلة عن تصوير الفيلم عام ١٩٧٧، ولم يكن باتريك في أحسن أحواله، وكنت معه كظله حتى في مشاركته في المخدرات لإبعاده عن وحدته ومواجهة أشباحه. لكني كنت قوياً صلباً ونشيطاً وقادراً على تحمل كل شيء، وكانت قدرته على التحمل أقل مني، حاولت أن أعيد له ثقته بنفسه فكنت أصحبه للتريض معي على الدراجة الهوائية في الغابة وفي الآردين، فكانت الرياضة تفعل فعلها الإيجابي فيه لأنه كان فاقداً الثقة بنفسه ويبدو خائر القوى... وفيما بعد تكررت القصة مع إيف بواسيه...

-: أية قصة؟

-: لقد استدعاني إيف بواسيه لدور البطولة في فيلم (القاضي فايار) وكان لقبه الشريف، كان ذلك في عام ١٩٧٦. والفيلم مقتبس عن قصة القاضي رينو، والعلاقة بين عصابة من الأشرار (ستيفانو) وبين الساك (دائرة العمل الوطني)، لكني لم أكن أرغب في العمل مع بواسيه بسبب شجار قديم بيننا، لأنه في عام ١٩٧٣ كان قد رفض أن يلحقني في فريق العمل في فيلمه عن حرب الجزائر بحجة أني كنت أصور كثيراً من الأفلام، وكانت النتيجة أنه لم يشرك في ذلك الفيلم سوى تلاميذ الكونسرفاتوار، وكنت قد رسبت في الكونسرفاتوار. وعليك أن تفهم ما حدث. شخصياً لم أفهم لماذا شطب اسمي من قائمته إلاّ مؤخراً وبعد مرور زمن طويل، باختصار كان يظن أني كنت أمارس الجنس مع خطيبته، آنذاك، مارتين ريدون اثناء عملنا معاً في الفيلم التلفزيوني (موعد في بادن بيرغ) للمخرج جان ميشيل موريس عام ١٩٦٦، وكنت في ذلك الحين، وكما أخبرتك، عاجزاً تماماً عن إقامة أية علاقة مع أي زميلة في العمل. ومارتين، من جهتها، أقسمت بأغلظ الإيمان أن شيئاً لم يحدث بيني وبينها، لكنه رفض أن يصدقها.

-: إذن لهذا رفضت العمل في فيلم الشريف...

---

(١) contre champ: تصوير مشهد من الجهة المعاكسة لتصويره أولاً. المترجم

-: كان الدور مفصلاً على قياسي، لكني قلت لباتريك: «من الأفضل أن تلعب هذا الدور بدلاً مني، لا أستطيع العمل مع بواسيه ولا مع كلود ليلوش، ستكون مجلياً في هذا الدور». وبالفعل صدقت توقعاتي، ونال الفيلم نجاحاً عظيماً وكان باتريك مجلياً في أدائه. وفيما أرى ظهرت عظمة باتريك تمثيلاً في هذا الفيلم أكثر مما كانت في فيلم (ابن شرير) لكلود سوتيه عام ١٩٨٠.

-: الآن فهمت سبب النزاع بينك وبين إيف بواسيه، لكن لماذا لم تكن تريد العمل أيضاً مع كلود ليلوش؟

-: هذه قصة قديمة هي الأخرى. في تلك الأيام كنت أعمل في فيلم (الناجي Saved) مع المخرج إدوارد بوند على T N P، وجاء كلود ليلوش ليقترح علي الاشتراك في فيلم كان ينتجه بعنوان (كما في الحياة) وهو، كما ترى، عنوان في منتهى الذكاء وفيه شيء من ليلوش، وكان مخرج الفيلم هو بيير فيلمان. والفيلم يحكي قصة اثنين من الصحفيين توصلا إلى حقائق في فيتنام وأوغندا لكن بعد فوات الأوان. وباختصار قبلت عرض ليلوش، وكي أفي بوعدي تخليت، في الواقع، عن العمل في فيلم المخرج كلود جوترا الذي أخذ ممثلاً آخر بدلاً مني هو فيليب ليوتار وكان هذا ممثلاً متميزاً وقد عملنا سوية عام ١٩٦٩ في فيلم (إنذارات) مع المخرج جان دينيزل وكانت دراما تلفزيونية... بدأ ليلوش الإعداد للفيلم ولكنه توقف بعد ثلاثة أسابيع، دونما سبب معلن، ثم طلب مقابلتي في مكتبه في جادة هوش عام ١٩٧١، وحسبما أذكر كان ذلك بعد ولادة غييوم بفترة قصيرة، وبادرني بالقول: «جيرار، أنا لست قادراً على دفع مستحقاتك عن الفيلم، أرجوك اعفني من المبلغ وليكن هدية منك لي». كان أجري عن الفيلم ثلاثين ألف فرنك.... وبدأ يختلق شتّى الأعذار، «وكما تعلم تصوير هذا الفيلم ليس كأي فيلم آخر، والسفر إلى فيتنام أصبح محفوفاً بالمخاطر...»، في تلك اللحظة أجبته، وكنت في الثالثة والعشرين: اسمع يا هذا، احتفظ بمبلغ الثلاثين ألف فرنك ولكن أنا أعرف خستك ولهذا أقول لك أني «لن أعمل معك طوال حياتي».

-: وهل نفذت هذا الوعد؟

-: حياتي، في الإجمال، مليئة بالأخطاء، لكني ألتزم دائماً بوعودي. بعد ذلك الفيلم، جاءتني منه عروض كثيرة، رفضتها جميعاً مخاطباً إياه: «تذكر ما قلته لك منذ عشرين عاماً في مكتبك، لن أعمل معك أبداً يا كلود...» وهو من جهته حاول إثنائي قائلاً: «إيه جيرار، دعنا منها إنها قصة قديمة...»، عندها أفرغت ما في جعبتي وأخبرته بأني لم أكن أحب أفلامه ولا أحترم طلباته من الممثلين وأن معظم أفلامه غير ناجحة. أي باختصار لن أعمل مطلقاً مع ليلوش!

-: عام ١٩٧٨ تصدر اسمك في الإعلانات إلى جانب مارسيلو ماسترويانى في فيلم (حلم قرد reve de singe) لماركو فيريري، وأيضاً بشكل خاص في فيلم (السكّر le sucre) لجاك روفيو إلى جانب ميشيل بيكولي وروجيه هانان وكلود بيلو و.... جان كارميه أحد آبائك الروحيين في السينما. ترى كيف كان اللقاء الأول مع كارميه؟

-: التقينا في فيلم (صرخة اللقلق...) عام ١٩٧١ للمخرج ميشيل أوديار، ومنذ ذلك الحين لا نفارق بعضنا بعضاً، والكلام في سرّك، كنا منصهرين أحدنا في الآخر لكوننا من طينة واحدة، ولنا النظرة ذاتها

للأرض والخمرة وجنوحنا واحد إلى الأحلام والتسكع، أيضاً كانت نظرتنا إلى البشر نظرة واحدة،.... اعتدنا معاً على تناول الوجبات المسائية والتعاطي في الشذوذ، وما إن نلمح أحدهم في الطريق، في تلك الليالي الثملة، حتى لا نتركه وندعوه للغداء وغالباً في مطعم المحطة على الزاوية، وهناك كنا نحلّق معه إلى القمم (ينفجر ديباردیو ضاحكاً). جانو هذا كان صديق المجون الحرّ في المقام الأول. أصله من تورانجو، وقد ولد في بوغوي وأنا كنت من بيريشون لكنا كنا نتكلم العامية ذاتها تقريباً.

-: وكارميه كان صديقاً عزيزاً لأوديار...

-: بالتأكيد، وأستطيع القول إن عملنا في فيلم (صرخة اللقلق...) كان جزءاً من ذلك المجون ولا ننسى أن أوديار كان فوضوياً بالكامل، فوضوياً يمينياً، كما كان يقول. شخصياً شاركت في أحداث أيار ١٩٦٨، بانتزاع الساعات من أيدي جميع الشبان البورجوازيون المغفلين، وكانوا ينفثون دخان لفافاتهم في شارع الأوديون. كان جانو وميشيل يطلبان بسرور سماع روايتي الخاصة عن أحداث أيار ١٩٦٨! باختصار لم أشارك فعلياً في حمى اضطرابات آلاف الطلبة الذين كانوا ينصبون المتاريس في شوارع الحي اللاتيني... هؤلاء الشبان جميعاً كانوا قبل كل شيء، في نظري، سفلة وبرجوازيين. من جهة أخرى وخلال تلك الثورة المزيفة في باريس حين تصدوا لقوات CRS في شارع سان جيرمان وفي سان ميشيل، قبضتْ عليّ الشرطة داخل أحد البارات، وحاولتْ إيقافي، فاشتبكتُ معهم وأطلقتُ عدة لكمات في الهواء، وكانت النتيجة أني دست بقدمي على الأرض قبعة شرطي. فقامت الدنيا وحوكمت بأعظم الجرائم خطورة في أحداث أيار ١٩٦٨: إتلاف قبعة عسكرية! وحين رويت الحادثة لأوديار، انقلب من الضحك. استطعت تفادي السجن الانضباطي لكني غرّمت بثلاثمائة فرنك... إذن كانت تلك مأثرتي الوحيدة في أحداث أيار ٦٨.

-: صرّحت بعد رحيل كارميه في ٢٠ نيسان ١٩٩٤ قائلاً: «هذا أول حداد حقيقي في حياتي».

-: نعم هذه هي الحقيقة، فقد كان أول حداد حقيقي بالنسبة إلي، فبعد رحيل جانو أحسست وللمرة الأولى، كأني فقدت شيئاً عزيزاً في داخلي، وبعد رحيله فهمت معنى رحيل والديّ. إذ أني لم أذرف دمعة واحدة بعد رحيل لو ديه ديه و لاليليت عام ١٩٨٨ وكان الفاصل بينهما عدة أشهر، ذلك لأني، في الحقيقة، كنت بعيداً عن أهلي منذ زمن طويل. وحين فقدت جان عرفت كم كنت بحاجة لأهلي. أخذتني المشاعر ذاتها بعد رحيل فرنسوا تروفو وباربارا. إن هذه المجموعة فريدة ولا يمكن أن تمحى من حياتي. أشعر في أحايين كثيرة، وسط غرائب الحياة، أن جان لا يزال على قيد الحياة (يبدو التأثر واضحاً على ديباردیو عند إثارة ذكرى جان كارميه)، لا، جانو لم يغادرني في الحقيقة. إنه معي...

-: يبدو أنك أعدت شراء منزله، وحافظت على جميع أغراضه ولا تزال تحتفظ بسكينه الريفية القديمة السوداء معك وعليها اسمه...

-: صحيح. لقد أردت أن أحفظ ذكراه بعد وفاته. أعدت شراء منزله في غورداغ بالقرب من أوزيس إكراماً لزوجته الأخيرة كاترين، ولا تزال هناك خزانته وأغراضه الشخصية. أختي كاترين وأخي فرانك، يذهبان إلى المنزل من وقت لآخر. أيضاً هناك مزارع الكرمة حيث نتابع إنتاج نبيذ جان كارميه، حتى أن أحد أدنان التخمير يحمل

اسمه. لم يتغير شيء، وقد أعدت تجديد اللوحات.... وأنا في الحقيقة أحتفظ بأشياء خاصة به في قصر تينييه في آنجو. لست جامع تحف ولست مغرماً بالتمائم، ومع ذلك خصصت له غرفة في القصر. ومن جهة أخرى وغداة موته، كان علينا التوجه إلى تينييه لاختيار ألوان غرفته، رواق قديم ومصطبة تشرف على جميع الأراضي، وكانت تعجبه الفكرة.... جان، كان صديقي وأبي وأخي... أنا أفتقده بشكل مرعب.

-: «صديقي،أبي،أخي....» ماذا تعني بذلك؟

-: علاقتي بجان لا يمكن تفسيرها. كان واحداً من العائلة، جيناتنا كانت واحدة... هذا كل شيء. لم نبحث عن الصداقة بيننا بل جاءت من تلقاء نفسها، لأنها كالحب يقتحمك من دون إنذار، علاقتنا كانت نادرة.... كانت لدي احتياجاتي وكان قادراً على الوفاء بها، وكانت لديه رغبات كنت أحققها له، هكذا ببساطة. جان كان من جيل والدي. جان، إنه جان، بكل تأكيد. لم يأخذ مكان أبي. من جهة أخرى أظن لو أن أبي كان على قيد الحياة، لما تغيرت علاقتي بجان، لكن جان كان مثلي تقريباً ومثل أبي، وكان يعتبر مهنة التمثيل شيئاً يقرّبه مني وليس العكس. أساس علاقتنا كانت تلك الرابطة التي أتاحت لكلينا المضي بسلام، ومهما حصل كان كل منا مع الآخر. كان بإمكاني الاعتماد عليه، والأمر ذاته بالنسبة إليه، وكل واحد منا، كان يعرف عيوب الآخر، لكن التسامح كان رائدنا. انظر إن أشباهه من البشر يعدّون على الأصابع.

-: وكان أيضاً الرفيق المثالي في المجون الحر....

-: كانت ضحكاتنا الهستيرية تعلو أنا وجان، وكنا جاهزين باستمرار لإطلاق النكات المفرقعة وخاصة مع جان لوفيفر. ذات يوم كان جان يصور أحد الأفلام في الريف مع بيرنار بلييه وفرنسوا بيرييه. وكان لجان لوفيفر، في ذلك الحين، خطيبة سويسرية جميلة جداً وفي أثناء تصوير الفيلم، كان هو يصور للفيديو في كاميرته الخاصة نوع سوبر٨، يختار المناظر الجميلة ولقطات لخطيبته على حوض السباحة... كان كارميه وبلييه وبيرييه قد سرقوا كاميرا الفيديو من دون علمه وبدأ جان بالتقاط صور للمؤخرات والأعضاء الجنسية على طريقة الزاوية الكبيرة في التصوير (انقلب جيرار من الضحك وهو يتذكر تلك القصة). وطبعاً، بعد الانتهاء من الفيلم، توجه جان لوفيفر إلى سويسرا حيث عائلة خطيبته ورتب عرضاً للفيديو «ستشاهدون كم هي جميلة أفريقيا...» ولا حاجة لأخبرك المزيد... كان يتخلل مناظر الطبيعة والوحوش الكبيرة في أفريقيا لقطات لمؤخرة كارميه وعضوه الجنسي، وكان على العائلة السويسرية أن تتحمل كل هذا. ولك أن تتخيل رأس والد ووالدة الخطيبة! أحب كثيراً مثل هذه الدعابات لطلاب الثانويات، كارميه كان معتاداً على هذه المقالب، ومع ذلك فقد كان هو نفسه أحد ضحاياها، ففي فيلم (صياح اللقلق فوق أشرعة السفينة) لميشيل أوديار، طلب إليه تصوير أحد المشاهد وهو ممدد داخل تابوت، جعل فيه ثقباً للتنفس، وقد أحكمنا، أنا وميشيل سيرول وبيرنار بلييه وموريس بيرود، إقفال التابوت، كي لا يتمكن من الخروج وكنا نضرط، بالتناوب، فوق الثقب فيما جان يصيح من داخل التابوت: «اللعنة عليكم، الرائحة تفوح في الداخل». ويأتيه صوت أوديار: ولكنك ميت يا دوكون، عليك أن تكون صامتاً... حسناً سنعيد التصوير.... كان مزاحنا كمزاح الأطفال، كما ترى. لم أضحك في حياتي في أثناء التصوير كما ضحكت وأنا بصحبة كارميه.

-: عام ١٩٧٨ كان أقل ظرفاً، وكنت أنئذ تعمل في فيلم آلان جيسوا (الكلاب Les chiens) لكن قبل ذلك بعدة أشهر، اعتدى عليك بضراوة أحد كلاب الحراسة إثر مشادة في أحد البارات في مدينة ليون. ترى ماذا جرى بالضبط؟

-: تعرضت لاعتداء من قبل قوّاد وكان معه كلب، وقد انتحر هذا القوّاد برصاصة في رأسه بعد الحادثة بعامين.... كنت في ليون أعمل في مسرحية بيتر هندكه (المعتوهون في طريقهم إلى الفناء). مساءً وبعد انتهاء العرض ذهبت لاحتساء البيرة في أحد البارات القريبة، قبالة فندقي. وكان هناك رجل مخبول يعتمر قبعة، بدأ في إثارتي، وكان قد شاهدني في فيلم (راقصات الفالس)، بدأ الحديث معي كما لو كنا على معرفة من زمن بعيد. وأراد اصطحابي عنوة إلى بيت للدعارة. في البداية كان الحديث لطيفاً لكنه ألحّ في الطلب فرفعت صوتي في وجهه ليتركني وشأني، لكنه ركب رأسه، وبدأ يهددني وطلب مني الخروج ليصفي حسابه معي على مرأى من الناس، وأنا، كما تعرفني، لا أنصاع لأي تهديد، فتبعته إلى الرصيف وهناك، أمام البار، رفع غطاء سيارته (رينو ١٦) وأخرج كلب حراسة، كلب بلجيكي على ما أظن، وانقضّ بأسنانه عليّ في ثمانٍ وعشرين عضة رغم سترتي الجلدية.... لن أخبرك عن حالتي... نقلت إلى المشفى وأعطوني بعض المسكنات ثم أعادوني إلى الفندق فنمت حتى الصباح. وفي اليوم التالي سألني الزملاء في المسرحية إن كنت قادراً على أداء دوري في المسرحية تلك الليلة، وأردت التذاكي فقلت إني سأكون جاهزاً، لكني لم أستطع ووقعت فوق خشبة المسرح. وقد أقام منتج المسرحية دعوى قضائية ومن وقتها وأنا في دوامة جهنمية...

-: ماذا تعني؟

-: عموماً، كلما زادت استجوابات الشرطة، كلما ازددت قناعة وبأن كل ما جرى كان بسببي وكان ذلك خطأ مني. ناهيك أني كنت البادئ في الاعتداء على الكلب! كنت في غاية الصدمة ثم جاءت الصحافة لتزيد الأمور تعقيداً.

-: إذن لماذا قبلت، بعد اعتداء كهذا العمل في فيلم آلان جيسوا وخاصة أن دورك في الفيلم كان مدرب كلاب؟ هل قمت بهذا الدور كي تتجنب المصير ذاته؟

-: ربما. أو لاشك في ذلك. خلال مشاهد الهجوم مع الكلاب كان إلى جانبي الممثل البديل وهو يرتدي معطفاً خشناً لحماية مدرب الكلاب، وحين أعلن آلان جيسوا بدء التصوير، انطلق الكلب الألماني، وكان وزنه خمسين كيلو غرام، وفي تلك اللحظة انتاب الهلع الممثل البديل فأدار رأسه وكانت اللقطة غير ناجحة، فلبست المعطف وأصبحت بديل الممثل البديل وانتصرت على خوفي، فأطبق الكلب بأسنانه المعوجة بمسافة بضعة سنتيمترات من عنقي، لكنني لم أتردد وصاح المخرج «لقطة جيدة، سنحتفظ بها». في الحقيقة كدت أموت من الخوف!

-: وبدأت من ذلك التاريخ في اللجوء إلى العيادات النفسية...

-: نعم، بناء على نصيحة الطبيب في ليون، وكنت ذهبت إليه إثر الاعتداء المذكور، وقدم لي النصيحة التالية: «بعد هذا الحادث، عليك استشارة طبيب نفسي وسوف ترتاح». وكان جاك لاكان قد كتب مقالاً رائعاً

بالاشتراك مع رولان بارت تعليقاً على فيلم (المرأة الأخيرة) لماركو فيريري: وقد حللّ في هذه المقالة الدوافع العميقة التي أدت ببطل الفيلم إلى بتر عضوه الجنسي بدافع الحب. وبعد قراءة المقال ذهبت إليه في باريس، واستقبلني في غرفته الصغيرة – ثلاثمائة فرنك للجلسة الواحدة! التقينا عشر مرات تقريباً ثم قررت التوقف. هو شخصياً لم يكن يتفوه بكلمة واحدة تقريباً، وأنا كنت أحدثه عن ظلم الاعتداء علي، لم أفهم منه أي شيء ولم أر أية فائدة لتلك الاعترافات. وللحقيقة أقول إن وضعية رأسينا أحدنا قبالة الآخر كانت شيئاً مزعجاً لي. وفي الواقع كنت في غاية الاكتئاب، اكتئاب عميق، مطبق... أخبرته بعد عدة جلسات بأني لن أعود إليه، ثم توجهت إلى طبيب نفساني آخر من أنصار لاكان وهو كلود كونته، لكنه كرر الشيء ذاته، فضجرت منه هو الآخر وأوقفت كل شيء إلى أن قابلت فرانسيس باش عام ١٩٨٥ وهو من مدرسة فرويد، كان طبيباً فريداً، وقد تابعت جلساتي المريحة معه عشر سنوات. كان أسطورة، وبفضله فهمت كل شيء إن صحّ القول. وهو على كل حال، أتاح لي، أن أتصالح مع ذاتي، مع ماضيّ، مع حاضري، أن أتصالح مع ما يمكن تسميته ذكرياتنا النسبية. مثلاً إليك هذه الواقعة، لقد كان جدي لأمي يمارس الجنس مع جدتي لأبي...

–: سؤال متطفل ولكن ماذا كنت تقول للأطباء النفسيين بشأن عدم قدرتك على التعبير؟

–: من الصعب أن أجيبك عن هذا السؤال. الغريب في الأمر كما أعتقد هو أني عبّرت عن نفسي من خلال عملي كممثل أكثر مما فعلت في العيادات النفسية. كنت مع فرانسيس باش أتبادل الحديث كثيراً عن التراجيديا والمسرح ودور الممثل، واليوم أكرر الشيء ذاته مع طبيبي الحالي آلان جيرار. إن عصابي النفسي لا يزال على حاله، وبخاصة مشاكلي مع الكحول.... كيف يمكن أن أواجه أي صدمة انفعالية من دون أن أغرق في الكحول، وفي الواقع الشيء الوحيد القادر على فعله هو تدارك اللحظة قبل السقوط مترنحاً. ليس باستطاعة الطب النفسي أن يحولك إلى رجل أكثر تماسكاً وأكثر ذكاءً في مواجهة الشدائد، بل هو ببساطة، يساعدك على تقبل نفسك كما هي.

–: ومع ذلك هل توصلت إلى قناعة، بعد كل هذه السنين من المعالجة النفسية، أوأنك أصبحت، أخيراً، متصالحاً مع ذاتك؟

–: هذا أمر مؤكد. أصبحت أحسب حساب كل شيء، حتى في حالة الاكتئاب أو الإسراف في الشرب، أصبحت أفضّل العزلة والوحدة، ولا أريد أن يراني أحد وأنا بهذه الحال. فهذا شأن خاص بي ولا أريد أن يشهد عليه شاهد. بعد حادثة الاعتداء في ليون أصبحت كشيء «مائل» وفي رأي أطباء التحليل النفسي لم أصبح بعد في وضع مستقر سليم. فشهواتي في ازدياد ورغباتي لا تنقطع، وقد عانيت الكثير حتى تخلصت من ذلك... أصبحت الأمور اليوم أكثر بساطة، فحين يصيبني الاكتئاب ألجأ إلى الأدوية. لم تعد الأمور كما كانت منذ عشرين أو ثلاثين سنة، فقد أحرزت الأبحاث الطبية تقدماً مدهشاً في هذه الشأن.

–: تحدثت عن «صدمات انفعالية»، هل لا زالت هناك حتى اليوم أدوار تغوص بك إلى لجج من الكآبة العميقة؟

-: يحدث هذا بشكل أقل حالياً. لأني أتقدم في العمر شيئاً فشيئاً، وثمة تراكم في التجارب، لكني في السبعينيات، كنت حين أنتهي من تصوير بعض الشخصيات، أصبح قاب قوسين من الانهيار، مثلاً بعد أن تؤدي دور قاتل لزوجته وأطفاله الثلاثة، يكون من الصعب عليك أن تعود إلى حياتك الواقعية وكأن شيئاً لم يكن. ولن تخرج سليماً معافى من فيلم (سبعة موتى على التوالي)! فخلال عشر سنوات لم أعمل سوى في أفلام سوداء قاسية وفي أفلام،أُبتِرُ في أحدها، قطعة من جسدي، أو أقتل أو أطعن نفسي، لقد تدحرجت مرات لا تحصى على بطني... وفي فيلم (Barocco) كانت إحدى عيناي مفقوءة! لقد جسدت في فيلم آلان جيسوا (الكلاب) دور موريل، مدرب كلاب، وقد أحرق بعض الشبان وكر الكلب وفي النهاية أجهزوا عليه. وخلال عشر سنوات من العمل في السينما تطلبت أدواري الموت أربعين مرة على الشاشة، واحترقت، وقتلت، وتم الإجهاز علي والمتاجرة بي، وشنقت تحت المقصلة... وفي فيلم (Danton) لأندريه فايدا عام ١٩٨٣، تم اقتيادي مرتين إلى المقصلة، وكان ذلك في أول يوم تصوير، لن أجهد تفكيري، كذلك في يوم آخر. وحين كنت أجسد تلك الأدوار لم أكن أحسب نتائجها على حياتي الخاصة. وهكذا، كنت بعد انتهائي من تقمص تلك الشخصيات، أمر بأطوار من الكآبة الحادة والسوداوية، والإنهاك النفسي والإرهاق الكامل والانحطاط الجسماني.... لكن بعد ذلك بدأت أحسب لكل شيء حسابه، كما فعلت مع تروفو في فيلم (الميترو الأخير)، وكما فعلت أيضاً في أفلامي الكوميدية كفيلم (العنزة la chevre).

-: أظن أن العمل في فيلم (العنزة) لفرانسيس فيبر مع بيار ريشار عام ١٩٨١ أو في فيلم (المفتش لابافور) لكلود زيدي مع كولوش عام ١٩٨٠، كان أكثر سهولة من العمل أمام كاميرا موريس بيالا في فيلم (لولو) مع إيزابيل هوبير عام ١٩٨٠، أو العمل في فيلم (تحت شمس الشيطان) مع ساندرين بونير عام ١٩٨٦....

.: نعم، بالتأكيد. وحتى في أثناء عملي مع بيالا، كنت أنتهي من العمل وأنا على أحسن حال. أقول لك ببساطة، أني كنت أكثر سذاجة من الآن عند تصوير فيلم (لولو) عام ١٩٧٩. فقد كنت أتشاجر مع المخرج بسبب غروري، ولم أكن أقدّر رد فعل كلامي الجارح، ويجب ألا ننسى أن لولو هذا الإنسان الهامشي، الرافض لكل الأعراف، كان قد أغوى شابة برجوازية، وقد أنجبت له طفلاً سفاحاً لم تحتفظ به، وأن قصة الفيلم تشبه إلى حد ما قصة بيالا، لأنه حين بدأ التصوير كان في وضع هش عاطفياً، وتبقى، مع ذلك، أيام التصوير مع بيالا من أعز الذكريات، حتى لو أن فريق التمثيل كان متوتراً أو على شفير الهاوية. لكن بالفعل مررت في حياتي المهنية بأدوار وشخصيات لاقيت معها من الآلام ما لا أنساه، وهذه حال الممثلين جميعاً، وأذكر هنا جان كارميه ودوره في فيلم (Dupont-Lajoie) للمخرج إيف بواسيه عام ١٩٧٥، وكان يلعب دور فرنسي متوسط، عنصري، شرير يغتصب إحدى الشابات ثم يقتلها ويتخلص من الجثة برميها في مكب النفايات، ليصار بعد ذلك إلى اتهام العمال العرب المهاجرين. لقد عانى جان معاناة حقيقية خلال التصوير وبعده، فقد كان يعاني ويتعذب في أداء مشهد اغتصاب إيزابيل هوبير. وقد روى لي أنه بعد تصوير ذلك المشهد، دخل إلى الحمام في الفندق، وظل يغتسل لمدة طويلة ليتخلص من نتانة جورج لاجوا، تلك الشخصية التي جعلها تنبض بالحياة على الشاشة،

كان ذلك الأمر شيئاً مرعباً، وكان قد عُرِفَ عن جانو تميزه في أداء الشخصيات الشريرة.... وقد وصفه ميشيل أوديار بأنه أحد أعظم الممثلين في جيله، وأعتقد أنه كان محقاً.

-: عودة إلى بيالا. مع ذلك عليك أن تعترف بأن تصوير أفلامه كانت أكثر حركة من مخرجين آخرين، أمثال آلان رينيه أو أندريه تيشينييه! كانت العلاقة بينكما عاصفة خلال تصوير فيلم (لولو)، أليس كذلك؟

-: أوه، لقد مرّ بنوبات في أثناء تصويره لفيلم (لولو). لم يعد يأبه بأحد، لا منتجين ولا فنيين وحتى نفسه ذاتها، وقد وصفني أنا وإيزابيل (هوبير) بأننا لا شيء. ورغم ذلك لم نصل إلى حد الخصام، أجل كان هناك تبادل شتائم، لكن لم نتخاصم. كانت كلمات بيالا واضحة، لا غمغمة فيها، وهكذا أنا. لم يتردد أبداً في مصارحتي بأخطائي، سواء في عملي أو في طريقة أدائي أو في سلوكي عامة والذي كان برأيه سلوكاً عدوانياً مبالغاً فيه. أحياناً وبالضرورة كان ثمة بعض الجفاء بيننا، لدى ذكر بعض الأخطاء... لكن أظن أن كثيراً من الناس أخطؤوا في حق موريس. وعند ذكر اسم بيالا، يتذكر الجمهور يده المرفوعة لاستلام جائزة السعفة الذهبية في مهرجان كان عن فيلمه (تحت شمس الشيطان)، وقد أسيء تفسير هذه الحركة وتلك العبارة في الكلمة التي ألقاها: «إن كنتم لا تحبونني فأنا كذلك لا أحبكم»... لكن هذا هو بيالا، رمز للصدق والعفوية... تجسدت الحساسية في حياته وفي عمله، وفي فيلم (تحت شمس الشيطان) المقتبس عن رواية جورج بيرنانوس، يعد تحفة فنية حقيقية وقد استحق بجدارة السعفة الذهبية التي نالها عام ١٩٨٧ في مهرجان كان. لكن بيالا كان رجلاً ثائراً في الوقت ذاته، كان دائماً غير راضٍ عن نفسه وعن أعماله. لم يبدأ في التراجع إلاّ مع ولادة ابنه، كان يشعر دائماً أنه سينمائي سيء، لكن رسام كبير، كان في تناقض دائم، يقول في نفسه إنه من الأفضل صنع فيلم سيء من إنجاز لوحة سيئة. وحتى اللوحة السيئة سيكتب لها البقاء، أما الفيلم السيء فسيدخل غياهب النسيان، وهكذا كانت أفلامه جميعها أفلاماً عظيمة وجميع لوحاته، كما أرى، تعد من التحف الفنية. لكن من المحال أن يستمع بيالا إلى هذه الحقيقة. كان عاجزاً عن النهوض بأعباء طبيعته الفنية الحقيقية....

-: وبعد تبادل الشتائم في فيلم (لولو) تصالحتما ثانية في ربيع ١٩٨٤ قبيل تصوير فيلم (Police) وقد حزت عليه جائزة التمثيل في مهرجان فينيسيا....

-: لعب دانييل توسكان دو بلانتيه، منتج فيلم (Police)، دور الوسيط في هذه المصالحة.

في ذلك العام كنت قد انتهيت من فيلم (Tartuffe) بمشاركة اليزابيت ديباردیو التي قامت بدور ايلمير، وفرنسوا بيرييه بدور أورغون، وكنت أحضر نفسي للعمل في فيلم (الضفة اليمنى، الضفة اليسرى) مع المخرج فيليب لابرو بمشاركة ناتالي باي، كارول بوكيه، جاك ويبير وبيرنار فريسون. كذلك كنت أشارك في فيلم (حصن ساغان) مع المخرج آلان كورنو والذي افتتح به مهرجان كان، وأثار هذا الفيلم، مع ذلك، سخرية الجمهور. كذلك كنت على وشك المشاركة في فيلم (القمر في المجرى الصخري) مع المخرج جان جاك بينيكس حيث لعبت دور عامل في رصيف للسفن، وكالعادة أثار الفيلم الكثير من الجدل. وباختصار تم اختيار (Tartuffe) ليعرض ضمن سلسلة «نظرة ما»، وحضر بيالا لمشاهدة الفيلم. وبدأ المشاهدون يخرجون من صالة العرض واحداً إثر آخر،

وموريس نفسه، بقي إلى النهاية، وقد عبّر لي عن إعجابه بالفيلم، ثم تصالحنا وكلفني بأداء دور المفتش لوي مانجان في فيلم (Police) إلى جانب صوفي مارسو التي شاركتني، لأسابيع عدة، تصوير فيلم كورنو في صحراء موريتانيا.

-: موريس بيالا - صوفي مارسو: إذن لقاء عاصف آخر!

-: صحيح، كان الأمر شديد التعقيد. صوفي كانت شابة صغيرة وعنيفة كما كنت أنا في سنها... وكانت أعصاب موريس مشدودة، وقد تبادل الشتائم مع كاترين بريبا كاتبة سيناريو فيلم (Police)، وكانا ملزمين بإعادة كتابة بعض المشاهد يوماً بيوم، كان التصوير ليلاً واستمر عشرين ليلة، وكنا جميعاً على أعصابنا...

-: الجميع على أعصابه؟ لقد تعامل بيالا، بعد انتهاء الفيلم، مع صوفي مارسو كأنها فتاة مغفلة، وهي الأخرى كانت تصفه «بالمنحرف السادي المازوشي»....

-: هذا جزء من أسطورة موريس بيالا. فقد جرى كل هذا بسبب عرض برنامج على القناة بلوس يقدمه ميشيل دينيزو، وقد تعرّضنا أنا وموريس لانتقادات صوفي. كنا مخطئين. وكان ينبغي على موريس أن يرتب أموره معها على انفراد.

-: أذكر تماماً ذلك البرنامج، وعذراً على عبارتي، لكنك كنت تعاملها كإحدى الغانيات الصغيرات وكنت تفعل المستحيل لإرضائها.

-: نعم، ولكن هكذا كانت اللعبة بيني وبين موريس. وقد صبّ دينيزو الزيت على النار، كما أذكر. لكن حين كنا نتوقف عن المزاح، كان الوئام يسود الجميع. وموريس كان يحب صوفي كثيراً. ببساطة كانت لديه فكرة أخرى عن شخصية نوريا التي كانت تجسدها وعلينا ألاّ ننسى أننا كنا نصور إلى جوار لصوص حقيقيين ورجال شرطة حقيقيين في أثناء الليل. نوريا في الفيلم، هي خطيبة أحد اللصوص، وتصبح عشيقتي أنا الشرطي.... كان أداء بعض المشاهد صعباً جداً وخاصة في أثناء الليل. من جهتها أبدعت صوفي في هذا الفيلم كما أبدع الممثل ريشار أنكونينا الذي جسد دور المحامي وكان الجو مشحوناً بالتوتر مع هذا الممثل أيضاً...

-: تقصد بين بيالا وأنكونينا؟

-: نعم، كان كثير الشتائم. وفي أحد الأيام، عشية عيد الميلاد في كانون الأول عام ١٩٨٤، ضرب ريشار بقبضة يده آلة تحضير القهوة لأنها كانت فارغة، ونظر إليه بيالا في هدوء، وتلاقت النظرات، ثم قال له: «هذا هو الاختلاف بيننا، فحين أقيس نبضي يشير الجهاز إلى درجة٦٠ ويكون نبضك بدرجة ١٤٠، أنت مضطرب ولا تستطيع فعل شيء سوى ضرب آلة تحضير القهوة». ترك ريشار المكان ساخطاً، وحاولت صوفي الدفاع عنه، وإعادة الأمور إلى طبيعتها بينهما عشية عطلة عيد الميلاد، لكن موريس قال لي: «إنه شرير، هذا كل شيء». وريشار لم يكن شريراً بل أجده متميزاً في هذا الفيلم..... لكن هذه هي حال موريس!

-: لكن من خلال سيرة بيالا التي أعدها باسكال ميريجو بعنوان (بيالا، دار نشر غراسيه)، نكتشف قصصاً خليعة وأحداثاً كثيرة رافقت تصوير الفيلم.... ففي أحد الأيام أبلغ أنكونينا المخرج بيالا بعدم موافقته على

أداء أحد المشاهد، فرد عليه بيالا قائلاً: ستؤدي المشهد لأنك لحست الأرض للعمل في الفيلم. سلام على الحضور!

أوه، هكذا، على الممثل أن يكون شديد البأس برفقة بيالا! في الواقع لم يحقق الفيلم توقعات بيالا، ولهذا كان ينفجر من الغضب. لقد كان فناناً عبقرياً، لكنه لم يكن يحب أعماله، وكما أخبرتك، كان يفضل إخراج أفلام سينمائية كي لا يرسم... أخيراً عرض الفيلم وكان تحفة فنية وحقق إيرادات تصل إلى مليون وثمانمائة ألف. حتى أن رجال الشرطة أدهشتهم واقعية الفيلم!

-: عودة وجيزة إلى الوراء: كنت قد صرّحت، عام ١٩٨٠، قائلاً: مما لاشك فيه أن فيلم (الميترو الأخير) ولقائي مع فرنسوا تروفو، قد شكّلا منعطفاً كبيراً في حياتي المهنية. حيث جسدت في هذا الفيلم، وللمرة الأولى، شخصية إيجابية تماماً، وشخصية بطل، عضو في حركة المقاومة، وبالأخص شخصية عاطفية حقيقية...

-: من السهولة أن تصبح رجلاً عاطفياً حين تشارك كاترين دونوف!

-: إن لقائي وعملي مع فرنسوا، دع المزاح جانباً، كان شيئاً رائعاً، بذكائه وجاذبيته وإحساسه بالمشهد وحبه ومعرفته الموسوعية للسينما، مع حبه لألفريد هيتشكوك والإهداء الذي قدمه له في فيلم (عروس في ثياب الحداد la mariee etait en noir).... تروفو هذا كان مثال العبقرية. كنت أجلّه كثيراً وكنت من تلك الندرة التي تناديه باسمه: فرنسوا. لقد أصبحنا أصدقاء من أول لقاء بيننا، وأذكر في حينها أن شخصية أنطوان دوانيل لم تثر اهتمامي أبداً. لقد أعجبني كثيراً فيلم (الحماقات les quatre cents coups) لكن لم تثرني أبداً مغامرات أنطوان دوانيل العاطفية في فيلم (قبلات مختلسة **baisers vole**s)، لم أستطع أن أحبه، لكن في الحقيقة، لم تكن لدي تلك المعرفة والثقافة لإيفائه حقه من التقدير. وفيما بعد، وحين كنت أشاهد الفيلم من جديد، كنت أخاطب نفسي: «كم كنت ساذجاً، إنه لعمل رائع...» وحين اقترح علي دور بيرنار غرانجيه في فيلم (الميترو الأخير)، طلب مني الإطلاع على فترة الاحتلال، ونصحني بقراءة كتاب ساشا غيتري (أنا تحت الاحتلال).

-: لقد احتوى هذا الفيلم على أجمل المشاهد العاطفية في السينما الفرنسية....

-: تقصد ذلك المشهد تحت الطاولة، أنا وكاترين؟ بالفعل كان مشهداً جميلاً...لقد تم تصوير المشهد في بساطة وتعاون، وفرنسوا لم يكن معنا عند التصوير، لأنه كان في غرفة مجاورة يوجهنا لاسلكياً بنفس طريقة مدير المسرح لوكاس شتاينر (هينز بينينت) وهو زوج ماريو اليهودي حيث كان يوجه مجموعته من داخل كهف، يسمع ولا يرى شيئاً، ولرغبته في بلوغ الكمال استطاع أن ينجح في الواقع في إعادة خلق الجو المسرحي وجو الاحتلال في وقت واحد.

-: وجاءت النتيجة عملاً جنسياً مثيراً.

-: أجل، كان شيئاً جميلاً، لكن الأكثر روعة، هي تلك الصفعة الرائعة التي وجهتها لي بعد أن مارست الحب معي... كما حدث، على نحو ما، في فيلم (امرأة إلى الجوار **la femme d a cote**) عام ١٩٨١ حين صفعت فاني آردان. كانت لفرنسوا إشراقاته الخاصة مثل تيشينييه، وكانت تلك الصفعة التي وجهتها ماريون شتايز (كاترين دونوف) إلى غرانجيه، خير تعبير عن حال العلاقة بين الاثنين. لأنها كانت موزعة بين الإخلاص للحياة الزوجية

وبين مشاعرها التي كانت تدفعها، على نحو لا يقاوم إلى أحضان غرانجيه... وأخيراً فعلت فعلتها، لكنها ندمت في الحال.... وفي الحقيقة هي لم تندم. في الواقع، كانت شخصية بيرنار غرانجيه أحد الأدوار المركبة في عملي / كممثل. ولم أعهد نفسي أبداً ذلك الغاوي، ولم أكن في حياتي غازياً للنساء. بل بالعكس، لأني حين كنت أمثّل مشاهد مع ممثلات وهن في أحضاني كنت بالأحرى منزعجاً ولست عاشقاً.... ولحسن الحظ سّهلت كاترين علي تلك المهمة..... أظن أن هذا الفيلم قد غيّر حياتي، لأنه ساعدني على اكتشاف مقدرتي على أداء الأدوار الإيجابية بمسؤولية مفعمة بالمشاعر الطيبة، وبأني قادر على إسعاد المرأة، كذلك اكتشفت بأني قادر على تصوير فيلم من دون أن تكون نهايتي الموت ومن دون بتر أي عضو من أعضائي ولا ضرورة لأن أنتحر.... استطاع هذا الفيلم أن يحل عقدي... ومن جهة أخرى أحسست بقدرتي، بعد هذا الفيلم، على أداء الأدوار الكوميدية، ولم يكن كل ذلك مصادفة....

-: لقد قام سيناريو فيلم (الميترو الأخير) على العلاقة بين ثلاثة: ماريون ولوكاس (زوجها)، وبيرنار، ترى هل يرمز هذا الثلاثي إلى العلاقة مع الثلاثي الآخر: كاترين دونوف وفرنسوا تروفو وأنت؟

-: لا بأس إن كنت ترى الأمر على هذا النحو، بالفعل ثمة شيء من الحقيقة فيما تقول، لكني لست جديراً بالإجابة عن هذا السؤال.

-: أيمكن القول إنه نشأ بينك وبين كاترين، في هذا الفيلم، نوع من الحب التمثيلي الحقيقي، أم هي صداقة بدرجة العلاقة العاطفية؟

-: كان حباً في التمثيل من دون شك. لقد عملنا بعد ذلك في فيلم (أحبكم je vous aime) لكلود بيري، وبعد عدة أشهر عملنا أيضاً سوية، بالاشتراك مع إيف مونتان في فيلم آلان كورنو (خيار الأسلحة le choix des armes)، ثم اشتركنا عام ١٩٨٤ في فيلم (حصن ساغان Fort Saganne)، أما بخصوص الصداقة أو العلاقة العاطفية فأكتفي بالقول إنها لا تعدو مشاهد تمثيلية يتطلبها العمل، ولا يمكنك أن تبقى بلا إحساس أمام عواطف كهذه، ولا أقول أن تكون عواطف حقيقية، بل يكفي أن تعيشها على الشاشة. ويكفي أن يصورك أحد كفرنسوا كي تتفجر لديك تلك العواطف. تروفو، أحد المخرجين الندرة في العالم، القادر على إظهار الممثل في أفضل حالاته. وبالمناسبة كان هو أول من عزّز ثقتي بنفسي، وقال لي ذات يوم: «جيرار، عليك أن تقص شعرك، لأن غريس، أميرة موناكو، شاهدت (الميترو الأخير) وأعلنت أنك ممثل ناجح، لكن مظهرك كان مضحكاً، وقد نصحت بأن تخفف من شعرك الطويل». ومن جهتي نفذت طلبها على الفور. (يضحك)

-: يبدو أن تروفو كان يؤدي أمام الممثلين جميع أدوار الفيلم، وذلك سعياً منه للوصول إلى أفضل أداء لدى الممثل، هل كان حقيقة يفعل ذلك؟

-: صحيح، ما تقوله صحيح. فقد كانت الأمور تسير في يسر، ويكفي أن نقلده، باستثناء الصفعة التي وجهتها إلى فاني، وكم كان هذا الأمر صعباً وقلت لفرنسوا: ألا ترى حجم كفي؟ لا أستطيع أن أصفعها؟ -: «بلى، بلى يمكنك أن تفعل ذلك». حتى إن فاني قالت لي «هيّا، هيّا اصفعني»!.... لم أقدر على فعل ذلك فضربتها على يدها ولم أجرؤ على صفعها على الوجه.... لم أستطع فعل ذلك....

-: لماذا وصفت كاترين دونوف بعد انتهاء الفيلم، قائلاً: «إنها الرجل الذي كنت أتمنى أن أكونه»؟

-: لأنها الحقيقة. كاترين طاغية ساحرة، وفي الاستديو تتقمص الشخصية القيادية، مع احتفاظها بأنوثتها، يحكم سلوكها هذا موهبة فذة.... وليست هذه حال جميع الممثلات. أعرف بعض الممثلات من يكتفين بإغواء الممثلين أو المخرجين أو الفنيين، وأعرف من الممثلين من يعجبه هذا الأمر، وأنا لست من هؤلاء وقد ظن الكثيرون بأن علاقتي بكاترين هي علاقة حب حقيقية ما يؤكد على نجاح فيلم فرنسوا وعلى صدق أدائنا أنا وكاترين...

-: لقد نال الفيلم جائزة أفضل ممثل وأفضل ممثلة وأفضل فيلم!

-: كانت تلك إحدى المرات النادرة التي تمنح فيها الجائزة لمن يستحقها!

الفصل الرابـع

اضطراب المشاعر

«أقوم وأنا أخالط التجمعات والمنتديات، بقرع جرس الحقيقة فتصبح كحدّ السيف»
إدمون روستان (سيرانو)

طنجة، ٢٣ أيار ٢٠٠٤، داخل أحد القصور وفي حديقة غنّاء منسقّة بأسلوب شرقي حيث يقيم جيرار ديباردیو طوال فترة التصوير في فيلم أندريه تيشينييه. من على مصطبة تطل على المدينة ومرفأ طنجة، يفوح عبق زهر الليمون، ويعلو صوت المؤذن من البعيد....

– لوران نيومان: أنجزت في عام ١٩٨٠ عملين في وقت واحد: فيلم (الميترو الأخير) مع كاترين دونوف وإخراج فرنسوا تروفو، وفيلم (المفتش لابافور) مع كولوش وإخراج كلود زيدي. ترى ما الرابط بين العملين؟

– جيرار ديباردیو: قمت في العام نفسه بدور رجل المقاومة بيرنار غرانجيه في فيلم (الميترو الأخير)، وقمت أيضاً بدور عدو الأمة الأول روجيه مورزيني، في فيلم كوميدي من إخراج كلود زيدي، وهذا الجمع بين الفيلمين ألا يدعو إلى الحيرة؟ لكن السؤال، من هو الذي تتملكه الحيرة؟ إنها دفاتر السينما[١]، وليس المشاهدين! يصنف النقّاد السينما، إلى سينما حقيقية وسينما ثانوية. لكن ما أن يلاقِ أحد الأفلام نجاحاً جماهيرياً حتى يصبح موضع شبهة. وقد تأكد لي، مع ذلك، بأن الحدود الفاصلة بين السينما الحقيقية والسينما الثانوية هي فذلكة يصعب فهمها. لم يلق فيلم زيدي، أي ترحيب من النقّاد أسوة بالأفلام الكوميدية الأخرى. لكن، تخيل، أن فيلم (الميترو الأخير) هو الآخر، لم يسلم من نقد بعض الصحافيين. وبمعنى آخر حين ابتكر تروفو شخصية أنطوان دوانيل أصبح ذلك المخرج العبقري، لكنه حين حقق إيرادات تقدر بالملايين، ونال (الميترو الأخير) عدة جوائز سيزار أصبح موضع شك... وحين قمت عام ١٩٧٧ ببطولة فيلم (الشاحنة le camion) لمارغريت دوراس، هزّء الفيلم في مهرجان كان. حسناً، سأخبرك عن الرابط بين أعمالي المختلفة: الأمر ببساطة هو أني أقوم بعملي كممثل وليس أي شيءٍ آخر. عملت تحت إدارة مخرجين أحترمهم وبفضلهم تكشفت موهبتي، كنت مفتوناً بالعمل معهم وأردت، من جهتي، أن أدهشهم بموهبتي: تروفو، زيدي، آلان رينيه، فرانسيس فيبر، أندريه تيشينييه، جان بول ريبانو، موريس بيالا، كلود بيري، بيرتران بلييه وآلان شابا. هؤلاء جميعاً أحترمهم. وهذا هو الرابط بين أعمالي المختلفة! أنا لا أخجل من شيء، ولست نادماً على أي شيء، بل أنا فخور بكل أعمالي. إذن لماذا يتحتم علي أن أختصر التعاون مع نصف دزينة من المخرجين؟ هل لأرضي الذوق النخبوي لنصف دزينة من النقّاد المؤتمنين على الذوق السينمائي الرفيع؟

---

(١) دفاتر السينما: مجلة نقدية سينيمائية، كان يكتب فيها أهم رواد مخرجي الموجة الجديدة في السنما الفرنسية من أمثال فرنسوا تروفو وجان لوك غودار. ظهر العدد الأول منها عام ١٩٥١– المترجم

-: أفهم وجهة نظرك. ومع هذا لا يمكنك أن تضع على قدم المساواة الأسلوب السينمائي لدى تروفو وسوتيه أو تيشينييه والأفلام الكوميدية ذات الشعبية الكبيرة كفيلم (العنزة la chevre) عام ١٩٨١ لفرانسيس فيبر أو فيلم (العرّابون les comperes) عام ١٩٨٣ أو فيلم (الفارون les fugitifs) عام ١٩٨٦.

-: طبعاً معك حق. لكن وماذا بعد؟ هل من الواجب أن نحجر على فيبر وزيدي؟ هل نرفض التعاون معهما، لا لسبب سوى لأنهما يعملان على إضحاك الملايين من البشر؟ بالنسبة إليّ، وأنا أقول ما أفكر به، ماكس فيبر هو بمنزلة بيلي وايلد فرنسا، وأعتبر، في الوقت ذاته، أن كلود زيدي حقق نجاحاً مدوياً مع كولوش في فيلمه (المفتش لابافور)، ولكن لأنها أفلام كوميدية وحسب، ينظر إليها، في أفضل الحالات، بازدراء. إن ما يجري في فرنسا هو تصنيف للبشر وبالتالي تجميدهم ضمن فئات. عام ١٩٧٩ وبعد الانتهاء من تصوير فيلم (لولو) للمخرج بيالا، توجهت إلى إيطاليا للمشاركة في فيلم (روزي الزوبعة Rosy la bourrosque) لماريو مونتشيلي. لا أحد يذكر هذا الفيلم، والسبب ببساطة أن أحداً لم يشاهده. ولدى تسلمي جائزة الأسد الذهبي في مهرجان البندقية، سألني منظمو المهرجان عما أفضّل أن يعرض من أفلامي في هذه المناسبة، فاقترحت عرض فيلم (روزي الزوبعة) وكنت أقوم بدور ملاكم قذر السمعة، يقع في غرام إحدى لاعبات المصارعة الحرة، ومما يذكر هنا أننا كدنا نموت من الضحك خلال تصوير الفيلم، فحين تثور ثائرة راؤول يبدأ في التمتمة بيه بيه بيه غابيه. وبالفعل تحمس جمهور البندقية للفيلم.... ألا تتذكر كل الأفلام الكوميدية الإيطالية العظيمة الخالدة؟ أفلام كانت سبباً في شهرة هؤلاء: أوغو توغنازي، ألبرتو سوردي، مارسيلو ماسترويانى... شاركت هؤلاء الثلاثة عام ١٩٧٩ في فيلم (الازدحام الكبير la grand en bouteillage) للمخرج لويجي كومينتشيني، وكم كنت سعيداً في العمل معهم. ترى هل يصنف هذا الفيلم من فئة السينما الحقيقية أو من السينما الثانوية؟ بالنسبة إلي لا أعرف الجواب. كذلك هل أن فيلم (أصدقائي الأعزاء mes chers amis) لماريو مونيتشيلي عام ١٩٧٥ وبطولة نواريه وتوغنازي وبلييه هو من فئة الأفلام الثانوية؟ كذلك فيلم الإثارة الكوميدي الشهير (على رصيف المحطة) حيث خمسة من العرابين يصفعون المسافرين في القطار المنطلق. إنه تحفة فنية غير عادية أصحيح ذلك أم خطأ؟

-: أتخيل أن مشاركتك في أفلام كوميدية، كفيلم (العنزة) بمنزلة فرصة لتخفيف التوتر لديك، حين تنحي جانباً الأدوار الأكثر ثقلاً وتقبل على أدوار أخرى...

-: هذا صحيح، وفي الغالب تضحكنا هذه الأفلام كثيراً. لقد أمضيت لحظات رائعة في أثناء عملي مع بيير ريشار. وأذكر، مثلاً، عند تصوير فيلم (العنزة) في المكسيك. كنت أقيم مع بيار في المقصورة ذاتها، وفيما كنت أضع الماكياج، كان هو يقفز مع خطيبته الشابة في الغرفة المجاورة، واهتزت المقطورة، عندها أصبت في عيني بفرشاة الشعر من عاملة الماكياج.

-: اشتركت عام ١٩٨١ في الأفلام التالية: (العنزة) لفرانسيس فيبر، (خيار الأسلحة) لـ آلان كورنو مع مونتان ودونوف. وفي ذات يوم، عملت مع تروفو في فيلم (المرأة التي في الجوار)، لكن كان لك عمل خاص هو فيلم (عودة مارتن غير) وقد حزت عليه جائزة النقّاد الأميركيين. ولكن مما يدعو للاستغراب أن فرنسا، وتزامناً مع منح الجائزة، بدأت حملة تجريح جدية ضدك من قبل النقّاد السينمائيين من تيليراما إلى ليبراسيون....

-: هذا الأمر بسيط، فهم لا يفقهون شيئاً عن هذه المهنة. وخلاصة ما جاء في مقالاتهم:

لماذا يراهن على شهرته ويعمل مع بيار ريشار وقد عمل سابقاً مع الممثل البارع باتريك ديوير؟ لماذا يحط من شأنه في أفلام شعبية هي الأدنى من دون شك، وهو من عمل سابقاً تحت إدارة بيالا ورينيه؟ كيف ينحدر ويشارك في أفلام شعبية مؤكد أنها من دون المستوى. أكاد لا أبالغ، فقد حظي فيلم دانييل فيين بنجاح مدوٍ في الولايات المتحدة، كان من المفترض أن يكون مخرج الفيلم هو ميلوس فورمان. والفيلم من دون شك، يروي القصة الحقيقية لوصول البروتستانتية إلى فرنسا في القرن السادس عشر، مباشرة قبل القديس سانت بارتيليمي. والسؤال الرئيس للفيلم كان: أين يكمن الشر لو نحن أسعدنا امرأة هجرها زوجها؟ ولكن أبعد من ذلك، أعاد الفيلم عرض جميع المعارف المتداولة في تلك الحقبة من التاريخ، من خلال مؤلفات جورج دوبي. وأذكر أني ذهبت إلى الكوليج دو فرانس لإلقاء محاضرة أشرح فيها الوسائل التي أخذت بها لألعب دور فرنسي من ذلك الزمان، ولك أن تتخيل ذلك المشهد السوريالي: ديبارديو الذي لم يرتد المدرسة أبداً، يقف أمام عظماء المفكرين في الكوليج دو فرانس ويتحدث إليهم عن العصر الوسيط.... وكان قد استرعى انتباهي في لوحات جيروم بوش أن رجال العصر الوسيط لم يظهروا منتصبي القامة وأنهم كانوا مقطبين لإخفاء العواطف. وقد جاء الفيلم تعبيراً عن حركات جسدية وإيمائية، أكثر منه نصاً وحواراً.... وأكثر من ممثلة تهافتت لأداء دور بيرتراند كإيزابيل أدجاني وميوميو.... وغالبية الممثلات لم يرغبن في أداء هذا الدور لأن الحوار على لسان بيرتراند كان قصيراً في الفيلم، وقد وافقت أخيراً ناتالي باي على القيام بالدور وحسناً فعلت لأنها تألقت في ذلك الفيلم الحقيقي والصادق.

-: ربما كنت على خطأ، ولكن لدي انطباع بأنك ربما لم تنجح في أحد أدوارك كما نجحت في دورك إلى جانب هذه الممثلة الكبيرة....

-: مضحك ما تقوله. صحيح أنهن تفوقن عليّ، وأنا أعبد المرآة التي تمدها إلي الممثلة في الاستديو. عموماً أرتاح في العمل مع النساء أكثر من الرجال، والشيء ذاته في حياتي الخاصة. أحوالي كانت أكثر بساطة مع ابنتيّ جولي وروكسان أكثر من علاقتي بغييوم. ربما أبدو سخيفاً في نظرك، ولكن أظن أني أنثوي جداً، لم أكن أفهم مشاكل الرجال. وأنا على النقيض من بعض الممثلين الرجال الذين يعانون من مشاكل في الإغواء أكثر من النساء، والشيء ذاته مع الكتّاب. حين كنت أشاهد برنامج (فواصل Apostrophes) لبيرنار بيفو، أو برنامج (Campus) لغييوم دوران، كنت أفاجأ من تهافت الكتّاب الرجال إلى الغواية بأي ثمن. ولا يشمل هذا النساء، ويمكن القول إن الممثلين هم أكثر سوءاً أيضاً، وقلة حيائهم لا توصف. الرجال في الاستديو هن النساء، وفي الإدارة هن الأكثر صلابة.

-: مارلين جوبير، أورنيلا موتي، كاترين دونوف، إيزابيل أدجاني، ناتالي باي، إيزابيل أوبير، غلين كلوز، آندي ماك دويل، فاني آردان، صوفي مارسو، سيغورني ويفر، كارول بوكيه.... لقد عملت مع أجمل ممثلات السينما الفرنسية والعالمية، والقائمة لا تنتهي!

لقد كنت محظوظاً بالفعل... ومع ذلك صرّحت ذات يوم قائلاً: «أحس بقربي من الممثلات في الأدوار المركبة أكثر مما في السرير، وحين يبدأ التصوير، نتمدد، مثلاً، جنباً إلى جنب وليس من سبب يدعونا للمضي حتى النهاية».

-: نعم، هذا صحيح. (يضحك). على العموم، في السينما، يصح كل شيء، وإلاّ أصبحت روكو سيفريدي وهذا لا يليق. هناك بعض الممثلين من يفاخر في سرد مغامراته داخل استديوهات السينما، أنا لست منهم. على سبيل المثال، حين كنا نصور فيلم (الكارت الأخضر Green Card) عام ١٩٩٠، أصاب التوجس المخرج بيترووير وحسب أني سأرتمي في أحضان آندي ماك دويل، لكني طمأنته في الحال. كان من المفترض، من خلال المشاهد، أن نشعر بازدياد وتيرة الشهوة بيني وبين البطلة، لكن لا يمكنك أن تصعّد من شهوتك وأنت في السرير مع زميلتك في العمل. يظهر في الحال، على الشاشة، صدق المشاعر بين الممثل والممثلة، ويحس المشاهد تلك المشاعر من نظرات الممثلين وبالتالي علاقتهما ببعض. فإن طرأ أي تبدل في هذه الأمور تبدل كل شيء، وكسر النابض! على البطل والبطلة في الفيلم أن يتمثلا بجينا راولاندز وجون كاسافيتس لتجاوز حالة كهذه، وبالتالي النجاح في أداء دور العاشقين في الفيلم...

-: إذن الممثل كما وصفته، هو في حالة غواية دائمة. إنه زير نساء بامتياز، أليس كذلك؟

-: لا ليس هكذا. أولاً هو رجل كثير المغامرات، يؤدي أدواره إلى جانب الممثلات على الشاشة من دون أن يضاجعهن في كل مشهد. وهذا حديث خرافة! إليك مارسيلو ماسترويواني، كان بالإمكان أن يكون زير نساء، وهذا غير صحيح لأنه كان زيراً مع بعض النساء. وأنا إن كنت زير نساء لحصل ذلك منذ زمن...

-: ومع ذلك، فقد نقل عنك مرة قولك «إن النساء لا يهتممن بجمال الرجل، قدر اهتمامهن بجماله الأنثوي».

-: قلت عبارتي هذه بعد أن أنهيت قراءة رواية ميلان كونديرا. تسحر النساء كثيراً بالممثلين وبالرجال ذوي الخبرة النسائية، وليس معنى ذلك أن كل الممثلين هم أصحاب خبرة نسائية.

-: وهذا لم يمنع شارون ستون من الاعتراف حديثاً إلى صحيفة أميركية: «لقد استسلمت بكل إرادتي لجيرار ديباردیو لمدة عشر دقائق، فأنا أعشق هذا الريفي لذاته».

-: بكل هلوساته! التقيت بشارون ستون وجوليا روبرتس وأوما نورمان وأغلب النجمات الكبيرات في هوليود، لكني لم أكن رجلاً سهلاً. (يضحك). وحكايتي مع آندي ماك دويل لا تصدق: ما كنت أبدأ حديثي معها حتى يحمّر وجهها كعود الصليب، والمخرج (بيتر وير) كان يقوم على حراستها باستمرار، وكنت أطمئنه: «لا تقلق يا بيتر».

يميل الناس عادة إلى الخلط بين أدوارنا على الشاشة وحياتنا الخاصة، ويذهب بهم الظن غالباً أن أدوارنا على الشاشة تستمر معنا بعيداً عن الشاشة. ومع ذلك لا تتخيل أني مارست الحب مع جميع الممثلات في أفلامي.

-: أنا لا أتخيل شيئاً. ولكن ما أعرفه، في المقابل، أنه بعد عرض فيلم (ثياب السهرة) لبيرتران بلييه، خرج الفرنسيون بقناعة، أن ديباردیو، هو إنسان شاذ جنسياً!

-: هذا مثال نموذجي. حين قمت بأداء هذا الدور ظن الناس أنها مطابقة لشخصيتي في الواقع. وقد أثار الفيلم فضيحة، وسواء لأسباب مقنعة أم لدواعٍ شريرة فقد أثار هذا الجدل هوساً في وسائل الإعلام. لنسلّم بذلك،

لكن أسوأ ما في الأمر أن تلك الضجة كان مصدرها مكاتب التحرير وهي تعلن على الملأ أن ديبارديو هو لوطي، وكما تعلم استمر التداول في هذه القصة فترة طويلة من الزمن.

-: كما أعلم، هي مستمرة حتى الآن. ولكن أجبني على هذا السؤال الصريح: هل ما ذكر كان صحيحاً أو لا؟

-: بل غير صحيح. لكن في النهاية، هذا ليس مهماً. فهل أكون سفاح أطفال إن قتلت طفلاً في أحد أفلامي. في الواقع، كان شيئاً رائعاً قيامي بذلك الدور إلى جانب ميشيل (بلان) والذي تألق هو الآخر في الفيلم، ولم تكن مصادفة حصوله على جائزة أفضل ممثل في مهرجان كان ذلك العام. وشذوذه الجنسي في الفيلم، لم يكن شذوذ غاي برايد أوماريه أو هو زواج مصلحة لبيغل، بل كان نوعاً من الشذوذ الجنسي الذي لم تأت على ذكره وسائل الإعلام. شخصياً أعتقد أن الفيلم سابق لعصره بخمسة عشر عاماً.... كان الجميع على قناعة بأن ميشيل هو عشيقي الحقيقي. أعرف كل هذا لأني سمعته من الآخرين كما سمعته أنت. وماذا بعد؟ اذهب واعرف الأمر بنفسك. قد يأتي يوم وأصبح لوطي. عموماً في أعماق كل منا جانب ذكري وآخر أنثوي.

-: هل تعني بأننا جميعاً ثنائيو الجنس بشكل كامن....

-: نعم، لأنني شخصياً أحب الرجال والنساء بذات القدر. وهذا التجانس لا يعني بالضرورة أنه ذو طابع جنسي. ومن جهة أخرى فإن غالبية الذين عرفتهم من الشاذين جنسياً كانوا أصحاب دوافع عالية، وأنا لست منهم. لدي أصدقاء شاذون جنسياً، وهم قريبون جداً مني، ويعلمون بأني لست على شاكلتهم، وهكذا أنا على الدوام، أشعر أني رفيق للجميع، وليس لدي تذوق شخصي للشذوذ الجنسي، لكن من الممكن أن أستمع لواحد منهم يشكو لي معاناته مع عشيقه، فأحاول مساعدته!

-: بعد فيلم (ثياب السهرة) قمت مباشرة بدورك في فيلم (الفارون les fugitifs) لفرانسيس فيبر، وقد أسهم قيامك بفيلم واحد كوميدي في السنة في تجميل صورتك، وقد تحولت إلى ممثل شعبي حقيقي بكل معنى الكلمة. هل يمكن القول إنك أصبحت، إلى حد ما، مثل جان بول بيلموندو....

-: ربما كنت ممثلاً شعبياً. لكن لا جدوى من مقارنتي مع بيلموندو.... بيلموندو كان صاحب مواهب متعددة، لكنه اختار الطريق السهل....

-: لكنه، مع ذلك، عمل تحت إدارة غودار...

-: كان هذا منذ زمن بعيد!

-: لكنه قام بدور ستافيسكي مع المخرج آلان رينيه....

-: قام بدور ستافيسكي في محاولة منه لترسيخ صورة ما. لأنه أعلن بعد انتهاء الفيلم: «حسناً، لقد قمت بدور ستافيسكي، ولكن دعوني الآن أفعل ماأريد». وقد وصل بيلموندو إلى زمن بات الممثلون فيه في خطر. عليك أن تختار إما السينما وإما التليفزيون. وأنا لو قدر لي أن أختار لاخترت زمن جان غابان وميشيل سيمون. لأنه في تلك الأيام، على الأقل، كانت هناك أدوار صغيرة حقيقية، داليو، كاريت....

-: إذن بيلموندو، حسبما ترى، كان ضحية لأعراض مرض ديلون نفسها...

-: أجل، إلى حد ما. لكن شخصية المنتصر للعدالة التي ابتكرها ديلون على قياسه في أفلام العصابات كانت تناسبه. بيلموندو وديلون كانا رمزين. كليهما جسّد فرنسا السبعينيات وبداية الثمانينيات. أما في يومنا هذا فالممثلون أشبه بورق الكلينكس، يمكن رميهم واستبدالهم بآخرين. مستقبلاً أفضل ما يمكن الاعتماد عليه هو الأعمال التلفزيونية. أغلبية الناس لا تعرف شيئاً عن السينما، وتجهل حياة الفنانين. أنا من الممثلين الندرة القادرين على العمل في التلفزيون والسينما والمسرح. أما لماذا؟ لأنه بات من الصعب، شيئاً فشيئاً، مقاومة تجّار السينما أو الوقوف في وجه وسائل الإعلام المتعددة.

-: إلاّ في حال تحول الممثل إلى منتج...

-: الاستقلال الفني لا يشكل أية ضمانة، حتى ولو كنتَ أنتَ منتجَ الفيلم، وستبقى تابعاً للشركات الكبرى التي تمدك بالأموال. وإن حالفك الحظ ونجحت في الإفلات منها سيترتب عليك التعرض لإهاناتهم لضمان توزيع فيلمك! وليس بالمصادفة أن يأتي قرار ديلون بالتوقف عن العمل في السينما والتوجه إلى الأعمال التلفزيونية، ذلك لأنه فقد كل رغبة في العمل السينمائي. وشخصياً لو كنت مكانه وبالشهرة التي أصابها في آسيا وخاصة في اليابان، لكنت اتصلت، منذ زمن بعيد، بالسينمائيين الشبان اليابانيين وبالموجة الجديدة في اليابان وأبرمت وإياهم عقود عمل جديدة، وقد صادف أن التقيت بهم، أنا وديلون، مرة أو مرتين، وتحدثنا في مشاريع مشتركة لكنها للأسف لم تر النور. وعموماً أرى أنه من المعيب والمؤسف أن تتخلى السينما عن التعاون مع فنان على هذا القدر من الموهبة....

-: لنتابع حلّ البكرة، إن لم يكن لديك مانع.... في عام ١٩٨٦ وبعد فيلم بلييه (ثياب السهرة) وفيلم بيالا (تحت سماء الشيطان)، كان لك، بلا ريب، أجمل اللقاءات الفنية في مسيرة حياتك الفنية: أقصد المغناة المسرحية (هوى ليلي Lili passion)، تلك الحفلة الفنية الشهيرة في زينيت بالاشتراك مع باربارا. ترى كيف تم اللقاء بينكما؟

-: قابلتها للمرة الأولى في مقصورتها بعد حفلة موسيقية في بانتان في تشرين الثاني ١٩٨١ وبعد العشاء أخبرتني عن مشروع عمرها، عن مسرحية كوميدية موسيقية مغناة، عن قصة هوى ليلي، عن مغنية تلتقي بديفيد وهو رجل قاتل. وافقت في الحال في الاشتراك في هذا العمل. وبعدها انطلقت قصتنا المشتركة هكذا ببساطة، احترام متبادل وحب كامل قائم على فهم الآخر مع رغبة فنية مشتركة وتعاون رائع.... انخرطت هي تعمل عدة أشهر، تملأ الصفحات، والصفحات كذلك سجلت مئات الأشرطة. وركبت دراجتي النارية في طريقي إلى بيتها في بريسي. وقد جرى العرض الأول للمغناة في زينيت الجديد، عند مدخل بانتان في ٢١/ كانون الثاني عام ١٩٨٦. وباريس كلها كانت هناك: لوران فابيوس، جاك لانغ، روبير باردينتر، سيمون فيل، روجيه هانان، دانييل ميتران، كاترين دونوف، فاني آردان، جان كارميه، إيف مونتان، جولييت غريكو، ميشيل جوناز، بيرنار هنري ليفي، مارغريت دوراس. استمر العرض لمدة شهر في باريس، ثم انتقلنا من شباط، إلى إقليم البروفانس ثم إلى سويسرا ووصلنا حتى إيطاليا. وبفضل باربارا وموهبتها وصوتها وتسامحها الرائع عشت لحظات من الانفعالات الاستثنائية.... كانت تصحبني كل مساء إلى جزيرتها حيث أشجار الميموزا. وأظن بأني أستطيع القول اليوم بأنها كانت أجمل قصة حب حقيقي في حياتي.

ومن النادر أن أجد امرأة بتلك الشجاعة وذلك التفاني في العمل، فكرٌ صافٍ، وكل كلمة منها، بل كل جملة تتفوه بها هي تحفة فنية حقيقية، منتقاة بشغف. وسوف ترى أنه لن يتوقف أبداً إعادة اكتشاف هذا العمل الفني.... واليوم أشعر بالأسى حين أستمع لأغنياتها وأحس بالقشعريرة، وبعيداً عن غيابها المدمر في حياتي، فقد أسهمت في عملها على إعانة الكثيرين في حياتهم، لكن أكثر ما أفتقده هو ضحكتها، وضحكاتنا المسعورة الرائعة. كانت هي الفانتازيا ذاتها، الفانتازيا التي أفتقدها بشكل مرعب، كذلك أتذكر تواضعها الملفت.... إن مهنة كمهنتنا يلزمها الكثير من هذا التواضع، لكن هذه الفضيلة، لسوء الحظ، هي إحدى الفضائل الأسوأ توزيعاً بين البشر....

-: أنت نفسك تفتقد إلى هذه الفضيلة أحياناً؟

-: أجل، حين كنت شاباً، أفتقدتها قليلاً، ككل البشر من دون ريب. وأنا كنت مغروراً بطريقة لا تحتمل. لكن مع هذا كنت، مثل باربارا، مميزاً عن زملائي في صغري: لأني عشت شيئاً من حياتي قبل الانخراط في مهنتي، كان لي ماضٍ قبل أن أصبح مشهوراً! تربيتي كانت من الشارع وللشارع قوانينه، فإن لم تحسب حساب الآخرين ستنال العقاب على الفور... وإن لم تأخذ جانب الحذر من مهنة كمهنتنا فسوف تدخل الدوامة إلى ما لا نهاية كما في الإعصار. ستفقد إحساسك بالأحداث.... يدفعون لك بسخاء وتعامل معاملة رئيس دولة. وهذه مهنة المساعدين الفنيين، وقلة قليلة ترفض هذا العرض. ومن الأفضل لك أن تثبّت رأسك جيداً ببراغ فوق كتفيك....

-: وأنت هل استطعت أن تصمد أمام هذا كله، أم بقيت كالآخرين لا تدري ماذا تفعل؟

-: قرأت ولا شك ما كتبه غييوم في كتابه.... أقواله كلها على حق من دون شك. نعم أنا كالآخرين أصابتني الحيرة فيما أفعل، أقله حين أصبحت أباً وأنا في الثانية والعشرين. لقد امتصتني هذه المهنة بمعنى الكلمة. لم أكن حاضراً مع من كانوا بحاجة لوجودي. والآن وأنا في الخامسة والخمسين، أظن بأني قادر على تفنيد أخطائي في هدوء، وأعرف ما هي الأشياء التي كنت أفتقد إليها. أعرف ماذا قدمت لهذه المهنة وما لم أقدمه لأطفالي. لهذا لم أكن أريد من غييوم أن يكتب هذا الكتاب، حتى إني قلت أنه قطع شوطاً بعيداً في أقواله، وكنت أتمنى عليه ألاّ يفعل ما فعل. لا أظن بأني ذلك الوحش الذي وصفني به، لكني بالتأكيد ارتكبت أخطاء أتحمل وزرها.

-: متى أحسست للمرة الأولى أنه يجري التعامل معك كنجم؟

-: أعتقد بأني بدأت أحس هذا الإحساس بعد فيلم (١٩٠٠) لبيرناردو دوبيرتولوتشي. حين جاءني المساعد الأول لبيرتولوتشي لتوقيع العقد، فقلت له حينها: «اسمع، الأمر بسيط، أنا أعرف أن بيرناردو لا يريد أحداً غيري، لذا سيكون أجري عن الفيلم كأجر الأميركي» وكان روبيرت دونيرو هو ذلك الأميركي.... عندها أجابني بوب: «جيرار، أنت مجنون حقاً!»، لكني في النهاية حصلت على ما أريد.

-: وهكذا، بين ليلة وضحاها، انتقلت إلى الجانب الآخر من المرآة....

-: نعم، ولكن في الوقت ذاته كان الأبطال الحقيقيون للفيلم هم: بوب دونيرو، دونالد ثازيرلاند، بيرت لانكستر وستيرلنغ هايدن.... انظر! (يقلب جيرار صفحات ألبوم فخم على طاولة منخفضة ويبدأ الحديث عن

الصور). شخصياً، لم تكن لدي نزوات نجم مشهور، لكن أعترف، في المقابل، بأني أفعل ما يحلو لي في أثناء التصوير. سعادتي الحقيقية كانت في التسلل من التصوير لتناول الطعام مع الفلاحين في بارم....

-: ألم تكن لديك نزوات أبداً؟

-: لا. ولكن بالفعل كنت ضحية طبيعتي الخاصة. كنت في الثامنة والعشرين وصحتي كالحديد، ولكن يحدث أن أقضي ليالي بيضاء في الشرب بلا وعي....

-: مؤكد أن هذا الأمر سينعكس عليك، في اليوم التالي، داخل الاستديو.

-: ستفاجأ إن قلت لك إن شيئاً من هذا لم يحصل أو أنه حدث لمرة واحدة، وكنت حينها أمثّل مع إيف مونتان في فيلم (خيار الأسلحة le choix des armes) عام ١٩٨١ مع المخرج آلان كورنو.... في ذلك الوقت انتابني الخجل مما فعلت، لأن مونتان كان مرجعاً حقيقياً لي، كنت أعشق أداءه في أفلام كلود سوتيه. كنا بإدارة كورنو نصور كالعادة خلال الليل، وكنت أضجر كثيراً ولهذا لجأت إلى الشراب لتمضية الوقت، وفي تلك الليلة، كان علينا تصوير ذلك المشهد الشهير حيث تصيبني رصاصة في بطني. أطلت طويلاً في إلقاء دوري ولم أكن في كامل وعيي، وأعدت المشهد مرات ومرات، وفي تلك الأثناء لمحت خجلي في عيني مونتان. قلت في نفسي: «لن يتكرر الأمر ثانية! لن أقارب الشراب خلال العمل، أبداً، أبداً». عملت، بعد ذلك مع مونتان عام ١٩٨٦ في فيلم (جان دوفلوريت jean de Florette) وكنت ملتزماً بقراري، حتى في المشاهد الصعبة لم أشرب أو على الأقل حاولت ذلك. وأعترف بأني كنت أكثر من الشراب ولكن في المساحة الزمنية بين عملين، وكنت أتجنب الشراب في أثناء التصوير! وهنا في طنجة، كما ترى، وقد مضى علينا خمسة عشر يوماً مع المخرج آندريه تيشينييه وفريق العمل في فيلم (الأزمنة المتغيرة les temps qui changent) ولم تدخل فمي قطرة من الكحول، ولا كأس واحدة من النبيذ، منذ أسبوعين، ولا زجاجة بيرة منعشة، ولا أي شيء....

-: أنالا أؤيد المثل القائل: «الخيل من خيالها!»، حين تتحدث عن «المشاهد الصعبة»، وبعد أن انتهيت من تصوير فيلم (تحت سماء الشيطان) لبيالا، ذهبت للاستجمام في الخارج مدة أربعة أشهر، وبعد عودتك في أيلول ١٩٨٧، بدأت في تصوير أحد ألمع أفلامك وأعني فيلم (كاميل كلوديل). كيف جرى التعاون بينك وبين إيزابيل أدجاني من جديد؟

-: سبق أن عملنا معاً منذ عشر سنوات في فيلم (Barocco). أما فيما يتعلق بفيلم (كاميل كلوديل) فإيزابيل هي التي طلبت مني مشاركتها في هذا الفيلم. وكانت تعيش آنذاك برفقة مخرج الفيلم برونو نوتين، وكنت أعمل في فيلم (تحت سماء الشيطان) مع بيالا. جاءت تبحث عني في مونتري سورمير في فندق فرنسا. كنت مستغرقاً بكليتي في دور الأب دونيسان، حيث أتقمص شخصيته ليلاً نهاراً وأنا في ثوب الكاهن. وصلت مثل أميرة وقالت لي: «أريدك لدور رودان»، في تلك اللحظة، انطفأت الأنوار فجأة في مدينة مونتري سورمير وساد الظلام. انقطعت الكهرباء تماماً، وبدأ يتساقط الثلج فأحضرنا مصابيح تعمل بالبطاريات، وأمضينا الليلة سوية في نقاش حول كاميل كلوديل ورودان. كانت مشبعة بروح الفيلم وتحدثت عنه بحماس، ثم طلبت مني أن

أقرأ بعض الكتب عن رودان والجمهورية الثالثة، وعن مكانة المرأة في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. طبعاً لم تجد أية صعوبة في إقناعي.

-: وكيف كان اللقاء بينكما عند التصوير؟

-: كان لقاءً رائعاً. وكانت تتقمص شخصية كاميل كلوديل، التلميذة وخليلة رودان فيما بعد، وحين دخلت في الجنون شيئاً فشيئاً، كان أداؤها رائعاً بكل المقاييس. وقد حصد الفيلم خمس جوائز سيزار كانت إحداها لأفضل فيلم والأخرى لأفضل ممثلة. أعتقد بأن دورها في الفيلم ميّزها بكثير من الشهرة.

-: ولكن سرعان ما انتهيت من تصوير هذا الفيلم، حتى بدأت العمل مع كاترين دونوف، في شباط ١٩٨٨، في فيلم (مكان طريف للقاء). وقد شاركت، بعد وفاة والدك، في الأفلام التالية: (أريد العودة إلى البيت I want to go home) مع المخرج آلان رينيه، وفيلم كوميدي جديد لكلود زيدي بعنوان (إثنان **deux**)، لكنك تفوقت في إحدى إبداعاتك مع برتران بلييه في فيلم (كثيرة الجمال بالنسبة لك trop belle pour toi)....

-: نعم، وكنا ثلاثة عشاق، ولكن في هذا الفيلم كنت محوطاً بامرأتين: جوزيان بالاسكو وكارول بوكيه. ويحكي الفيلم عن خيانة زوجية، حيث اختار أحدهم خيانة زوجته ذات الجمال الساحر مع سكرتيرة هي أقرب إلى الدمامة.

-: هل كان هذا الفيلم بداية ما أطلق عليه، صداقة عاطفية مع كارول؟

-: كلا، لأن كارول كانت لا تزال تعيش برفقة المنتج جان بيار رسام. وأفضّل ألا نتكلم في هذا الموضوع. كنت أعرف جان بيار قبل أن أقابل كارول، أو ربما في الوقت ذاته، ثم إن كارول هذه هي من شؤوني الخاصة، ولا أريد أن نتحدث عنها من دون موافقتها...

-: متى التقيت بها لأول مرة؟

-: أعتقد كان ذلك في استديوهات بولوني بيلانكور عام ١٩٧٧ وكانت تعمل مع المخرج لويس بونويل في فيلم (هذا الموضوع الغامض للرغبة cet obscur objet du desir).

-: هل مثّلت إلى جانبها قبل فيلم (كثيرة الجمال بالنسبة لك)؟

-: نعم، في فيلم (مأدبة باردة buffet froid) عام ١٩٧٩، كذلك في فيلم (الضفة اليمنى، الضفة اليسرى (rive gauche، rive droite) عام ١٩٨٤ مع المخرج فيليب لابرو. أتذكر ذلك المشهد، وكنا نحن الثلاثة كارميه وكارول وأنا في قارب، كان بلييه يقوم بالتصوير بطريقة الشبحية التصويرية tèlèobjectif.... كنا أنا وجان لا نشعر بالبرد، ونقضي الليالي نشرب ونتناول أحاديث العالم. وتحاشياً للنسيان كنت ألصق نصي حواري إلى جانبي في القارب، لكن فجأة تعطل القارب وانفجرنا في ضحك هستيري مستمر. لكن أكرر القول إني لم أفعل ما فعلت لإغواء أحد. كنت أشارك أصدقائي في العمل في حمية، وكان هذا يكفيني. وكنت أعلم أن لكارول مشاكلها الخاصة، لكني كنت شديد الحرص على عدم التدخل في شؤونها. وكان يعنيني قبل كل شيء، عند التصوير، بيرنار بلييه وجان كارميه، هذان الفاسدان الشيطانين. وكانت جاذبية كارول لا تقاوم بعينيها النجلاوين الخضراوين، وشعرها البني الطويل كشلال. كنت مفتوناً بها تماماً، لكن لم تكن لدي أي رغبة في الانقضاض عليها.

-: وقصة حبكما بدأت بعد ذلك....

-: كما قلت لك، أقمت الكثير من الصداقات العاطفية مع الممثلات، لكن قصصي العاطفية، كما تصفها، تظل فردوسي السري، وحياتي الخاصة الحقيقية ولا أريد الخوض فيها....

-: إذن نعود إلى السينما: أول تحول كبير في حياتك المهنية كان فيلم (الميترو الأخير) مع المخرج تروفو. ولكن هل يمكن القول إن فيلم (سيرانو) لجان بول رابينو كان الانعطافة الثانية في مهنتك؟

-: نعم، بلا شك. سيرانو، قمة الغنائية. فقد أخذت قصة إدمون روستان مكانة خاصة في المخيلة الفرنسية. وحين تقرر تحويل سيرانو إلى فيلم سينمائي، كان قد انقضى قرن كامل على كتابة الرواية، حيث أنها كتبت عام ١٨٩٠، لكنها لا زالت تضج بالحياة إلى يومنا هذا. سيرانو رجل القرن العظيم، كان جندياً وشاعراً، يقتل بالسيف ويغوي بالقلم، ضعيفاً وقوياً في آن معاً. وأعترف بأني قاربت شخصيته بقدر ما وبخاصة ذلك الأنف الذي كان ينوء في حمله. مشروع رابينو، كان مشروعاً سينمائياً طموحاً. ذهبت مع جان بول للقاء جاك فيبر في المسرح. كان المشروع رائعاً ولكن هل بالإمكان تجسيده على الشاشة الفضية؟ كيف بالإمكان إنجاز مثل هذا العمل الشعري المرهف؟ استعرض جان بول في رأسه أسماء ممثلين وممثلات ذوي خبرة في المسرح الكلاسيكي، أما فيما يخص دور روكسان فقد وقع اختياره سريعاً على آن بروشيه وهي ممثلة شابة خريجة الكونسرفتوار. وقد أمل جان بول رابينو أن تجري البروفات لمدة ثلاثة أسابيع في الأوبرا كوميك! كان شيئاً مفيداً، ولكنه كان يعول على عمل الكاميرا.... كانت تكفيه موسيقى روستان، تصعد تارة وتنخفض تارة أخرى. عليك أن تكون كآلة لتنجح في أداء شخصية سيرانو... وسرعان ما التأم فريق العمل في بودابست وتفاعل الجميع بسرعة في كيمياء العمل.... بدأ التصوير في خريف ١٩٨٩ فيما رياح الحرية ترفرف على أوروبا الشرقية، تزامنت معها إبداعاتنا.... كان التأثر بادياً في مئات اللقطات وفي الحوار، خاصة في الحوار. أفادتنا البروفات في تفهم الملاحظات، ولكن أكثر ما كان يهمنا هو تجسيدنا للعمل، ونقل سيرانو إلى الشاشة الفضية كان إلى حد ما متطلباً لعناصر المسرح.

-: وكانت النتيجة أن نال الفيلم، تسعة جوائز سيزار، ذهبت إحداها لأفضل ممثل، كما نال الفيلم جائزة الكرة الذهبية Golden Globe مع خمس ترشيحات لجائزة الأوسكار. وبالطبع لم تكن هذه المرة الأولى التي يقبل فيها الأميركيون أن يتحدثوا عنك، لكنها كانت المرة الأولى التي رقيّت فيها، فجأة، إلى مصاف كبار النجوم الأميركيين....

-: ولكن سبق أن كان لي هذا الشرف حين تصدرت صورتي غلاف مجلة التايم عام ١٩٨٣ حيث علقّت الصحيفة، حينها، أني الوحيد الذي يجسد الموجة الجديدة في السينما الفرنسية، وقد رافقني أحد الصحافيين كظلي مدة شهر كامل، وسافر معي حتى موريتانيا والسينيغال حيث كنت أُعنى بالأطفال المرضى. ولكن هذه المرة، وفيما يخص سيرانو، فقد حدث إجماع كامل في الصحف الأميركية حول رأي واحد، واستُقبِل الفيلم استقبالاً حافلاً، وانهالت عليه مقالات التقريظ والمديح وتجاوزت كل حد... لقد سار كل شيء بأفضل ما يكون إلى أن خرجتْ للعلن قصة الاغتصاب، التي حدثتك عنها، فانهار كل شيء...

-: ما هذه الأفلام الرائعة، فيلم بعد فيلم: (جان دوفلوريت)، (ثياب السهرة)، (سيرانو)، لقد استقبلت جميعها بحماس منقطع النظير فيما وراء الأطلسي. ترى هل راودك حينها «الحلم الأميركي»، وهل كانت لديك رغبة في غزو هوليوود؟

-: كلا لم يكن هدفي «الحلم الأميركي». والواقع أن هوليوود لا تعني لي شيئاً. ناهيك أن أجندة أعمالي كانت حافلة على مستوى أوروبا، ومنها على سبيل المثال: فيلم (أورانوس Uranus) للمخرج كلود بيري، المقتبَس عن رواية لمارسيل إيميه بالاشتراك مع فيليب نواريه وميشيل بالان وفابريس لوتشيني، كذلك فيلم (شكراً لك أيتهاالحياة merci la vie) للمخرج بيرتران بلييه بالاشتراك مع أنوك غرينبرغ وشارلوت غينسبورغ....

-: ولكن في هذه الحال، كيف لي أن أصدقك، حيث أنك وفي عام ١٩٩٠ قمت ببطولة فيلم (كارت أخضر Green Card) للمخرج بيتر وير من إنتاج والت ديزني، كذلك في عام ١٩٩٢ جسدت دور كريستوف كولومبوس في فيلم (١٤٩٢) للمخرج ريدلي سكوت، وفي عام ١٩٩٣ شاركت في فيلم (والدي البطل My father the hero)، من إنتاج والت ديزني، وهو النسخة الثانية لفيلم جيرار لوزييه.... إن لم تكن هذه الأعمال بداية للحلم الأمريكي، فهي شبيهة بها إلى حد بعيد، أليس كذلك؟

-: لنقل أني بدأت، والفضل لبعض الأفلام، أعرف الشهرة في الولايات المتحدة. وبالفعل عرضت علي أفلام لكبار المخرجين أمثال بيتروير وريدلي سكوت، لكني لم أفكر لحظة واحدة في غزو هوليوود. في المقابل، بدأت في توسيع شبكة صداقاتي مع أسماء لامعة في السينما الأنغلوساكسونية وهذا ما أتاح لي فيما بعد العمل في فيلم (الرجل ذو القناع الحديدي l‘ homme au masque de fer) للمخرج راندل والاس، وهو النسخة الثانية لفيلم الفرسان الثلاثة، بالاشتراك مع جون مالكو فيتش وغابرييل بايرن وليوناردو دوكابريو، كان ذلك في عام ١٩٩٧. كذلك قمت ببطولة فيلم (les 102 **Dalmatiers**) للمخرج كيفن ليما بالاشتراك مع غلين كلوز.

-: غالبية هذه الأفلام لم تحقق النجاح الفني الكبير، ولا النجاح التجاري الكبير....

-: ما تقوله غير صحيح، لأن غالبيتها سوّق بشكل جيد. وسأترك لك الحكم في هذا الأمر لأنها مسألة تذوق شخصي، ولكن عليك أن تفهمني جيداً، لم أكن أرغب ولا بأي ثمن في غزو الولايات المتحدة، وكانت قد عرضت علي مشاريع كثيرة هناك، لكني رفضتها جميعاً، وخاصة أفلام رجال العصابات، لماذا؟ لأن لديهم أفضل الاختصاصيين في هذه الأدوار! ثم هناك مسألة اللغة فهي تشكل إحدى العقبات بالنسبة إلي، ففي النسخة الثانية لفيلم (والدي هذا البطل)، كنت لا أفهم دوري تقريباً، وفي أغلب الأفلام الأميركية التي مثّلت فيها، لم أكن أفهم كلمة واحدة مما أقوله! كنت أنظر إلى وجه شريكي لأعرف إن كان ما أقوله قريباً من الصواب. لم أسع إلى التمثيل في الولايات المتحدة طلباً للشهرة، لأني نلتها حيث أنا هنا. فقط كنت أتمنى أن ألتقي بذوي الأفكار الجديدة، وإقامة شبكات جديدة من الممثلين والمخرجين والمنتجين. كنت أرغب في توسيع دائرتي.... ولم أكن أطمح لشيء آخر غير الذي ذكرت!

-: إن لم يكن لديك طموح أميركي، كما تقول، فعليه لن تكون هناك خيبات أمل أميركية أيضاً.

-: لا، بالتأكيد، ولكنها وسائل الإعلام المتآمرة، حين قدمت جوائز الأوسكار التي حدثتك عنها، لم يشكل ذلك عندي شعور بخيبة أمل، قدر ما كان شعوراً بالغضب والمرارة. أنا أحب أميركا، بل بعض أميركا. أميركا دوس باسوس وجون شتاينبك، أميركا جينا رولاندز وجون كاسافيتس.... لهذا قمت بتوزيع كاتالوغ يحوي أفلام كساسافيتس أمثال:

(opening night) و(امرأة تحت التأثير une femme sous influence) و(وجوه Faces) ثم شاركت بعد ذلك في فيلم من إخراج ابنه نيك كاسافيتس بعنوان (أنزل النجوم de croche les etoiles) وإكراماً لأميركا هذه قمت بدور وسيط ومهرب على الحدود. سلمتني جينا مخطوطة الفيلم التي أعدها ابنها، وعملت كل ما أستطيع مع آشيت لتمويل المشروع، وتم تصوير الفيلم. واجهتني الإشكالية ذاتها في فرنسا حين سعيت لتقديم أفلام المخرج الهندي ساتيا جيت راي.... لقد أردت توسيع أفقي الفني الخاص.

-: جينا رولاندز، كانت إحدى معبوداتك، كما أظن...

-: أوه، أجل! إنها أم الممثلات جميعاً تقريباً. إنها مثل ووبي غولد برغ حالياً، مثل صوفيا لورين في إيطاليا، مثل آنا مانياني سابقاً، وهذه المجموعة تمتاز بلطافة لا نظير لها، ولديهن القدرة على فعل المعجزات.

-: وأخيراً يمكن القول بأن سعيك للترويج لكاسافيتس أو ساتياجيت راي، كان بالقدر نفسه من الأهمية في مشاركتك في أفلام تدر الملايين....

-: بالتأكيد، وفي الحقيقة أعتبر هذا الأمر جزءاً من عملي. فأنا في الواقع وسيط. وسيط في السينما وفي حياتي الخاصة وفي أعمالي. لي ولع بلقاء الناس، ومواصلة الاتصال بهم لابتكار مغامرات فنية جديدة، وهكذا أنا منذ طفولتي. أذكر أني حين وصلت باريس عام ١٩٦٨ رافقت كلود براسور إلى أحد المقاهي الليلية، لم أكن أعرف أي شيء ولم أكن أعرف أحداً ومع ذلك قضينا الليلة نشرب ونتحدث في أخبار العالم. هذه طبيعتي وهي بإيجاز أشعر أنه عليّ أن أعقد روابط بين البشر....

-: وللسبب ذاته كان عليك، عند وصولك إلى طنجة لتصوير الفيلم، مقابلة الملك محمد السادس أو بعض وزرائه لتحدثهم عن كرومك. كذلك اقتضى الأمر عند تصويرك أحد الأفلام في سانت بترسبورغ، أن تتصل بالوزير المختص، عن طريق أحد أصدقائك، للحصول على تفويض بممارسة التجارة مع مرفأ المدينة...

-: لن أغيّر في طبيعتي، لأني هكذا. ولكن أصدقني القول، أليس من الخطأ مساعدة الأصدقاء؟ لدي انطباع دائم بأن نشاطي المفرط يشكّل صدمة لدى الآخرين، فهم يريدون لي حصر أنشطتي في مجال واحد، أعني في التمثيل وليس أي شيء آخر. أعبّر عن أسفي لاقتصاري على مهنة واحدة، لكنها،على الأقل، مهنة جيدة، تفتح جميع الأبواب أمامك، إذن لماذا، لماذا أفوّت على نفسي كل ذلك؟ إن مثلي الأعلى هو بيتر أوستينوف، لأنه لم يكتفِ بمهنة التمثيل، بل أفاد منها بالطواف في أرجاء الدنيا، مشاركاً في آلاف المغامرات المختلفة. وأنا مثله أرفض أن أكون ممثلاً وحسب. أرغب في أن أكون مواطناً عالمياً، متعدد الهويات (يضحك)، وأن يكون لي أصدقاء من كل الأوساط، وأن أتعرف على كرة القدم في أوكسير، وعلى البترول في كوبا، وعلى النبيذ في الجزائر أو في المغرب...

-: لنا عودة إلى هذه السمة في شخصيتك، لكن أتمنى أن نتابع في موضوع السينما. خلال صيف ١٩٩١ وتحديداً قبل أدائك لدور كريستوف كولومبس في الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أميركا، عملت مع غييوم للمرة الأولى في فيلم (كل صباحات العالم tous les matins du monde) للمخرج آلان كورنو. ترى كيف اتجه غييوم للعمل في السينما؟ هل كان ذلك بدافع شخصي، أم أنك كنت، إلى حد ما، واسطة عبور بالنسبة إليه؟

-: أولاً عليّ أن أذكرك بشيء أساسي وهو أن غييوم كان ممثلاً متميزاً في هذا الفيلم، علاوة على أن الفيلم كان مميزاً، وكان إحياءً بديعاً لموسيقى الباروك وللفكر المبدع عموماً. ولم تكن صدفة حيازته على جائزة لويس ديلوك بالإضافة إلى سبع جوائز أوسكار! قبل تصوير الفيلم، جاءني آلان طلب رأيي، فكان جوابي له حرفياً: «شخصياً تصيبني قشعريرة لدى سماعه وهو يعزف على البيانو، اعلم أن غييوم هذا ممثل كبير». وطلب منه آلان العزف على الكمان الأوسط فاستجاب لذلك بحماس.

-: كيف جرت الأمور بينكما في أثناء التصوير؟

-: كانت علاقتنا جيدة جداً، رغم أني كنت مرهقاً. كنت أشرب بشراهة كعادتي، ولم آت سوى خمسة عشر يوماً للتصوير. وكنا نسكن معاً في مطحنة لاكروز، ونتحدث كثيراً عن عمله، وكان غييوم يتهيب الجمهور، كان الأمر عادياً فحين ترن في أذنك هذه الكلمات «محرك، سكوت، هيا، أكشن!» وحين يطلب منك النطق بالكلمات الأولى أمام عملاق كجان بيير ماريل، لابد لك أن تكون متماسكاً وهادئاً تماماً. أنا شخصياً، أعشق اللقطات الأولى حين يكون الممثل في وضعية اللاتوازن.... لكن جان بيير كان متعاوناً معه بشكل رائع، وكان له بمنزلة الأب في السينما، ومن جهتي لا أدعّي أني ساعدته أو حتى دعمته، ولنقل إني حاولت فقط أن أشرح له أن كل تلك الهواجس وذلك الخوف، سوف يكونان عوناً له في أداء دوره في الفيلم، وأعني بذلك شخصية الشاب مارتان ماريه. لكني لم أساعده ولم أهدىء من روعه أكثر مما أفعل مع زملائي الشباب في أفلامي.

-: عام ١٩٩١ سافرت بالطائرة إلى مدريد وبعدها إلى كوستاريكا لتقوم بدور كريستوف كولومبس، ثم بعد ذلك بعدة أشهر قمت ببطولة فيلم (يا للأسف بالنسبة لي Helas pour moi) بإدارة جان لوك غودار، وكانت تلك فترة مضطربة في حياتك. روكسان الوليدة، والأزمة مع زوجتك، وغييوم ومشاكله مع العدالة... هل كان العمل تحت إدارة غودار أفضل علاج لحالتك وقتذاك؟

-: كان الفيلم من النوع الذي يثير القرف، أتفق معك في هذا. لقد أخرج غودار في حياته الفنية أعمالاً عظيمةً، ولكن حين بدأت العمل معه كانت كاميرته تحمل لقب أستاذ، وهذا ما أمقته في العمل السينمائي! لقد حاول غودار، من جانبه، وعلى عكس ما فعل جان رينوار وروبرتو روسيليني أن يفسّر السينما كما يراها، وأنا شخصياً لا أحب أن يشرح لي الآخرون طريقة إحساسي، لأنها أفضل السبل لقتل الأحاسيس. كنت دوماً أصارح غودار: «اصمت يا هذا ودعني أشاهد! دعني لانفعالاتي!».

-: وهو الآخر كان غليظ القول حين وصفك قائلاً: «ليس من السهل قيادة دبٍّ ولو كان محبوباً، ديلون رجل شرير لكنه يفي بوعده، ديباردیو رجل خجول لكنه لا يفي بوعده».

-: هذه أوصاف غودار تماماً. لأنه عملياً ليس للرجل الخجول بالضرورة أن يتفوه بكلمة، لأنه خجول مع ذاته، أما علاقته بالآخرين فذلك أمر آخر. وأنا لا أخفي هذا الأمر: أنا قروي وأعمل بوصفي وسيطاً لبيع الخيول، أستطيع أن أبيع أي حصان لأي كان، لكن ليس من مهامي وضع لائحة بعيوب الحصان.... أنا أعمل بوصفي وسيطاً لبيع الأحصنة، وهذا كل شيء. قلت ذات يوم في مهرجان كان كي أثيره: «شاركت في حياتي في إعلانين هما: (باريلا Barilla) و(يا للأسف بالنسبة لي). غودار هو إنسان مثقف وعاشق حقيقي للسينما، واستطاع أحياناً استثارتي، لكنه استطاع أن يثير إعجابي، لكن ذكاؤه لا يكمن في هذه المهنة كشارلي شابلن وباستركيتون ومارتن سكورسيزي وساتياجيت راي: هؤلاء شيء آخر! وإليك تروفو وبيالا، هذان العبقريان حقاً! أفلامهما قوية مؤثرة تخترقك في الصميم وتصحبك إلى عمق الحياة. هذه هي العبقرية الحقّة. ولا تكون العبقرية في إثارة الصحافة خلال مؤتمر في ساعتين مستفيضاً في شرح أهدافك من الفيلم! العبقرية كالحب: واضحة، ولا يمكن تفسيرها....

-: عملت في بداية أيلول ١٩٩٢ مع رينو وميوميو وجان كارميه في آخر أفلام المخرج كلود بيري، أعني فيلم (جيرمينال Germinal) المقتبس عن رواية لأميل زولا. هذا الثنائي بيري – ديباردیو، إنها قصة قديمة: فقد سبق أن عملتما معاً في الأفلام التالية: (أحبكم je vous aime)، (جان دوفلوريت jean de Florette)، (أورانوس Uranus)، ومع هذا لم تكن الأمور بينكما في أفضل حال في أثناء تصوير هذا الفيلم....

-: لا، لا على الإطلاق. كنا متفاهمين تماماً أنا وكلود.

-: في الحقيقة ما أعرفه يخالف ما ذكرت. لأن بيري، على ما يبدو، كان يستثيره فريق العمل وتأتي أنت لإثارته من جديد. بصراحة لم تكن معاملته للممثلين والتقنيين جيدة برأيك في أثناء التصوير....

-: هذا غير صحيح، وإن كنت تريدني أن أنعت بيري بالوحش سأخبرك في صريح العبارة: نعم كلود بيري كان وحشاً! إنه مثل مارغريت دوراس أو موريس بيالا الذين كانا وحشين في فنهما. وكما ترى أنا أتمتع بالقدرة على التعاون مع وحوش كهذه. في المقابل شيء واحد كان يزعجني، أن أرى جانو (جان كارميه) وهو يتألم. كان يعاني من جو العمل تحت إدارة كلود، وكلود لم يكن محبوباً من فريق الممثلين، كان يصور في الليل وفي البرد. كنت تقريباً لا أبالي بذلك، لكن جان كان يتأثر كثيراً. كان يحبس كل ذلك في قلبه، وكان كلود يبالغ في إعادة تصوير اللقطة الواحدة مرات ومرات، من دون أن يفهم أحد السبب الحقيقي لذلك، وجان كان يعاني من ذلك كثيراً وكان مرهقاً.... كنا نسكن معاً في أحد القصور ونلتقي مساءً على المائدة وأمامنا الجعة والنبيذ برفقة صهري باتريك بورديبه. كنا نخفف عنه برواية النكات حتى مطلع الفجر، وندعو حارس القصر لمشاركتنا الشراب ثم يبدأ هذا في الرقص والغناء. وفي اليوم التالي يعود جان إلى الصدام من جديد في أثناء التصوير....

-: كان كلود بيري مع ذلك ذا مزاج مهيب....

-: نعم أعلم ذلك. إنه إنسان خاص إلى درجة ما. لديه ما يصدم الآخرين أحياناً. مثلاً كان من المقرر في فيلم (جان دوفلوريت) أن يلعب الدور جاك فيبر، لكنه استدعاني بسرعة وأسند الدور لي بدلاً منه. وتكرر الأمر في فيلم (لوسي أوبراك) فقد فضّل أن يستبدل جولييت بينوش بشارلوت بوكيه. هو هكذا، وهذا بعض من شخصيته. لكني شخصياً لا مشكلة لدي في التعامل مع هذا الطراز من البشر، شيء واحد كان يزعجني في أثناء التصوير: هو رؤيتي لمخرج الفيلم وهو يتألم.وأعطي مثالاً على ذلك، معاناة موريس بيالا خلال تصوير فيلمه (لولو). كان بالفعل شيئاً مؤلماً، لأنه كان مقتنعاً بلا جدوى عمله، كما كان يقول. وهذا شيء قاسٍ على الممثل.... المهم في الأمر أني أتعاون مع الجميع. ورغم كل هذا يبقى كلود بيري فناناً يفيض بالأحاسيس وهاوياً للفن ومتنوراً ويدير مجاميع كبيرة...

-: وهذه إحدى صفاتكما المشتركة....

-: هذا صحيح، فأنا شغوف بالفن كشغفي بالنبيذ، وقد جاءني هذا بسبب فضوليتي المرضية. تفهمني ولا شك، أنا كالإسفنجة! فقد اهتممت بالرسم والنحت خلال عملي في فيلم (رودان)، وبعد ذلك اطلعتني كارول (بوكيه) على مدارس فنية أخرى، وعلى فنانين آخرين وعن أشكال من النقاء وشرّعت أمامي أزمنة أخرى من تاريخ الفن، لقد كشفت لي وعلّمتني، كما فعل كلود ريجي منذ ثلاثين سنة، أشكال المسرح المختلفة وإدارة الفراغ، وتدمير الممثل، وعلم الصمت، والفن الإيمائي كما في مسرح (**nô**) الياباني....

-: بعد أن انتهيت من تصوير فيلم (جيرمينال) وفيلم (الكولونيل شابير)، عملت في فيلم (إيليزا) مع المخرج جان بيكر: وهذا الفيلم، كما أرى، جميل وعنيف كفيلمه السابق (الصيف القاتل) والذي أخرجه قبل عشر سنوات. ماذا تتذكر عن لقائك بفانيسا باراديس؟

-: فانيسا هذه أعبدها، وأظن أنها كانت تتفهم جيداً علاقتي بجان بيكر، وهذه العلاقة شبيهة إلى حد ما بعلاقتي مع جان كارميه. كانت لغتنا واحدة، وكانت له جاذبية آسرة، لكن كان يبدو عليه التعقيد في حياته أكثر من أفلامه. عند تصوير الفيلم، لم تكن فانيسا بعد تلك النجمة الكبيرة، لكنها كانت شديدة البأس. وكانت في نظر الآخرين كأنها على وشك الإنفجار، كانت تفرض قوة وحضوراً لافتين، ولكن في الوقت ذاته، على عكس بنات جيلها، لم تكن تتصرف بجدية...لم تكن مدعية ولا متكبرة مثل بقية الممثلات الشابات، لأنها، ببساطة، كانت صاحبة موهبة...

-: بعد عملك في فيلم (إيليزا) عام ١٩٩٤، وفي فيلم (الغرّ Le Garcu) عام ١٩٩٦، غيّرت نمط عملك، واخترت بعض العروض الفنية، ويصعب على المرء أن يفهم ذلك الترابط المنطقي بينها. والسؤال هو لماذا عملت في فيلم (المهنة الأكثر جمالاً في العالم le plus beau metier du monde) لجيرار لوزييه؟ ولماذا شاركت في فيلم (Bimboland) لآرييل زييتون؟ ولماذا شاركت أيضاً في فيلم (الرجل ذو القناع الحديدي) لراندل والاس، وهو كما نعرف اقتباس تافه لرواية دوماس؟

-: بخصوص فيلم (الرجل ذو القناع الحديدي) يمكن تفسير الأمر بيسر وسهولة، وهو أن القائمين على الفيلم لم يكن باستطاعتهم إنجاز هذا الفيلم من دوني. كانوا في أمس الحاجة إلى ممثل فرنسي. جون

مالكوفيتش، وكنت لا أعرفه، طلب مشاركتي في هذا الفيلم، وكان الفيلم أول فيلم روائي لراندل والاس، وأنا يسرني دائماً التعاون مع مخرجين في بواكير أعمالهم. علاوة على أن اسم ليوناردو دوكابريو تصدر شارة الفيلم....

-: ربما تناسيت السبب الرئيس، أقصد أجرك عن الفيلم وكان ثلاثة ملايين دولار!

-: المال، المال.... أنا لست بحاجة إلى المال. أكرر القول إن عملي في هذا الفيلم كان قبل أي شيء آخر، لتوسيع دائرتي الفنية، أي أن أشارك ديكابريو ومالكوفيتش وغابرييل بيرن.... لماذا أحجب نفسي عن مشاركة نجوم كهؤلاء؟ ثم أني أسعى دائماً في أفلامي للوصول إلى العالمية. وحين عملت في فيلم (سيرانو دوبيرجراك) مع المخرج رابينو، لم أكن أتوقع سلفاً تلك النتيجة التي وصل إليها. ولو كان المرء يعرف الوصفة السحرية لذلك، لكان تدبر أمره. وهكذا كان الأمر حين وافقت على لعب دور أوبيليكس في فيلم كلود زيدي، لم أكن أقدّر سلفاً أنه سيحصد الملايين، وأنه سينال كل هذا النجاح الجماهيري الرائع. أقول ببساطة، إن دوراً كهذا يجسد السعار لا يمكن لي أن أرفضه. في الواقع كنت أفرط في عملي من دون شك. وهاك النتيجة! كنت أغفو أحياناً ويدي على مقود الدراجة النارية، وأنا في طريقي إلى مكان التصوير ثم تزحلقت على منعطف عند مدخل كلير فونتين داخل الإيفلين على مسافة كيلو مترين من الاستديو، وكانت النتيجة أن تفتت ركبتي، وتشظى رباطي العظمي، وأصبت بكسر ثلاثي في فخذي الأيسر بالإضافة إلى ثلاثة أضلاع متكسرة، ورئة مثقوبة....

-: إن كانت معلوماتي دقيقة فقد وقع ذلك الحادث في ١٨ أيار ١٩٩٨، وكان مقياس الكحول في دمكَ ٢.٥غرام، وكلفك هذا الحادث ثلاثة أشهر في السجن، مع وقف التنفيذ، وسحبت منك رخصة القيادة لمدة خمسة عشر شهراً، وكان الحادث سبباً في استرداد وسام جوقة الشرف منك.

-: نعم، أعرف هذا كله، ولا عذر لي، لكني كنت أعمل في ألف عمل دفعة واحدة. في ذلك الأسبوع سافرت إلى كان ثلاث مرات، ذهاباً ومجيئاً، لأنهي دوري في مسلسل البؤساء التلفزيوني. شربت الشمبانيا بشراهة في ذلك اليوم، ولم أذق طعم النوم سوى ثلاث ساعات... قال لي نونور (وهو الساعد الأيمن لجيرار ديباردیو ويعمل في كل شيء وفي جميع الظروف، ويرافق جيرار في جميع تنقلاته): «ألست مرهقاً للغاية؟» أجبته: «لا تقلق ستنعشني هذه الرحلة»، وانظر ماذا كانت النتيجة. لقد تسمرت على بعد كيلو مترين من مكان التصوير... وجدير بالذكر أني كنت سابقاً أقطع على دراجتي النارية مسافة خمسين كيلو متراً وأنا في كامل راحتي....

-: وماذا بشأن وسام جوقة الشرف: هل اسُترِدّ منك بشكل نهائي أم لا؟

-: لا، لم يسترده أحد مني أبداً، ولكن بالفعل وُجّهَ إليّ توبيخ، لكني أستحقه، وقد ذكرت هذا أمام المحكمة قائلاً: «أنزلوا بي ما شئتم من عقاب وإن شئتم اسجنوني، لأنه لا عذر لي». لأن قيادة الدراجة النارية وأنت في حالة سكر شيء لا يغتفر، أقصد أن الأذى لم يصب أحداً غيري. ويا للعار لو تسببت في مقتل أحدهم. ومع ذلك فقد شلّني ذلك الحادث قرابة ثلاثة أسابيع، لكن الفيلم لم يتوقف....

-: ولكن لماذا في المقابل وفي العام نفسه، رفضت عرضاً من فرانسيس فيبر للمشاركة في فيلم (عشاء المغفلين le diner de cons)؟

-: لأنني ببساطة لم أكن مؤهلاً للقيام بالدور، لم تكن لدي القابلية لذلك، ولم تكن لدي تلك المزايا الجسدية والكفاءات النفسية. وكنت حينها أمرّ في فترة من الكآبة الشديدة وأعاني من الصداع، كنت موزعاً بين ألف نشاط ونشاط... أشارك في بعض الأفلام لأرضي بعض الأصدقاء، وكان الوقت الذي أمضيه في الطائرات أكثر من الوقت الذي أقضيه في الاستديو.... كان عقلي متجهاً إلى البترول أكثر من السينما... في ذلك الوقت جاءني المخرج فرانسيس ليقنعني بالعمل في فيلمه، لدرجة أنه عرض علي أربعة عشر مليون فرنك كأجر عن دوري في الفيلم.

-: ومع ذلك رفضت عرضه؟

-: كما ترى خياراتي لا يحددّها المال فقط! رفضت العرض، لأني ببساطة لم أكن في وضع مناسب. كنت أمرّ في مرحلة من الاكتئاب العميق، ولا رغبة لي بشيء، ولا مزيد من التطلعات، لا مزيد من تذوق الأشياء، ومع ذلك تفهّم فرانسيس الأمر جيداً. وأذكر أني قلت له إنه إن كان لي أن أشارك في فيلمه لكنت أفضّل أن أقوم بدور المغفل وقد قام بأداء الدور الممثل جاك فيليريه، ولكن فرانسيس كان يصرّ أن يكون الدور من نصيب جاك. وجاك هذا كان صديقاً لي، وكان يشكو، حينها، من مشاكل كبيرة وشخصية... ولم أتناول أي موضوع آخر مع فرانسيس...

-: وبعد ذلك بعامين، طلب منك، من جديد، أن تجسد دور الأبله في فيلمه (خزانة الحائط le placard)...

-: في الواقع كتب فرانسيس هذا الدور خصيصاً لي، من دون أن ينسى حديثنا السابق عن فيلمه (عشاء المغفلين). باختصار أنا أرى أن دور مجنون الضيعة، في الأفلام الكوميدية، هو من اختصاصي. أقدر عالياً تلك القناعة الراسخة الضرورية للغوص في أعماق النفس لأداء دور أحد المهابيل. في ذلك الوقت كنت قد بدأت العمل في فيلم (Vidocq) للمخرج بيتوف مما اضطرني لزيادة وزني إلى مائة وثلاثين كيلو، كنت أتنفس كالبقرة وأنا أصعد الأدراج وأشعر بالإنهاك، ثم بدأت آلام شديدة في صدري، وحددت موعداً في مشفى فوش في سوريزن (أعالي السين) لإجراء فحص طبي شامل. وفي المشفى أخبرتهم بكل شيء: عن إفراطي في كل شيء، عن التعب الذي يصيبني، عن الكحول وعن مشاكلي مع الوزن، وأذكر أنه كان يوم سبت، وكان البروفيسور درايفوس ينظر إلى أمعائي عبر شاشة التلفزيون في غرفة مجاورة، فقلت له: «عليك أن تخبرني إن كنت لا أستطيع التصوير يوم الاثنين!»، كنت أتذاكى، لكن في الواقع لم أكن ساذجاً إلى هذه الدرجة. كنت أشعر شعور من أضاع جميع وسائله. اقترب درايفوس مني، وضوء النيون الأبيض يبهرني، ثم خاطبني قائلاً: «جيرار، إن لم ترغب في نهاية كنهاية جان بواريه أو جاكلين ميلان وفي هذه الحال ينبغي أن أجهز لك بعض الأسلاك، ثلاثة منها ضرورية داخل جسمك على الأقل. أشرت إلى فرانسيس فيبر ليقترب من السرير وقلت له: فرانسيس، في المرة السابقة كان السبب هو رأسي أما الآن فالسبب هو في قلبي»، كان فرانسيس متفهماً كعادته، فأجابني: «لا بأس، نفذّ ما يطلب منك وأنا في انتظارك». أجريت العملية صباح الاثنين، وفي النهاية تم تركيب خمسة أسلاك بدل ثلاثة. وبعدها بثلاثة أسابيع كنت أتابع العمل في الاستديو....

-: كما كان متوقعاً، نال الفيلم (خزانة الحائط) بمشاركة دانييل أوتوي وتييري ليرميت، نجاحاً تجارياً واسعاً. ولكن طارت الأموال إلى جيوب آخرين، والفضل إلى الأسلاك الخمسة هذه. لكنك في السنة التالية، عملت في ثمانية أفلام على الأقل، أحدها كان فيلم (مهمة كليوباترا) وكان هذا الفيلم هو ثاني اختيار دقيق لمغامرات آستيريكس وأوبيليكس من إخراج آلان شابا. ترى ماذا كان يدور في رأسك؟ هل كنت ترغب في تعويض الأيام الضائعة في المشفى؟

-: كلا، فأنا كنت كالمولود الجديد. وكان عليّ أن أسرع في عملي، كنت أشعر أنني في أحسن حالاتي. أنقصت من وزني واحترمت تعليمات الأطباء، ولم أتناول الكحول، وهذا كان ثنائي الخاص على عمل الأطباء الرائع، لأنهم زرعوا في صدري قلباً جديداً تماماً، وهكذا أصبح لي قلب صالح للعمل...

-: في السنة التالية، مع إطلالة عام ٢٠٠٢، كنتَ أنهيت العمل في خمسة أفلام جديدة، وكان مجموع أفلامك في ثمانية عشر شهراً هو ثلاثة عشر فيلماً، شاركتَ غييوم البطولة في إحداها وكان بعنوان (أحبب أباك aime ton pere) للمخرج جاكوب بيرجيه، ويحكي الفيلم قصة ابن يخطف أباه مقابل فدية، والسبب هو محاولة الابن فهم السبب وراء عدم وجود والده بقربه وقت الحاجة. من وجهة نظر الطب النفسي، هل كان توقيت الفيلم مناسباً للبدء في مثل هذه المعالجة النفسية سينمائياً؟

-: جاءت مشاركتي في هذا الفيلم من أجل غييوم لأنه كان يعوّل الكثير عليه...هذا الفيلم لم يحسّن من علاقتنا ببعض، لكني غير نادم على المشاركة فيه وأعتقد أن هذا هو شعوره أيضاً.

-: باستثناء هذين الفيلمين (خزانة الحائط) و(مهمة كليوباترا) لم يلق أي فيلم من هذه الأفلام الثلاثة عشرَ أي اهتمام لدى الجمهور، كما أشيع همساً، ولكن في الحقيقة أن أحد عشر فيلماً من هذه الأفلام الثلاثة عشرَ لم ينل أي نجاح يذكر!

-: نعم، هذا صحيح، ولكن أشد ما كان يسعدني في أغلب هذه الأفلام، ليست الأدوار وشخصيات الأفلام بقدر ما هي محاولتي في إقناع البعض لاستثمار أموالهم. كنت أعمل وسيطاً في هذه الأفلام جميعها. وحتى وإن جاءت إيرادات هذه الأفلام في حدود خمسين أو ستين ألفاً فهي على العموم صفقة رابحة. أفضّل فكرة التعاون مع مخرجين شبان من أمثال: براد ميرمان في فيلم (الاستمتاع بالجريمة Crime spree) أو غراهام غويت وفيلمه (ميثاق الصمت le pacte du silence). ولكن عذراً لو أضفت فيلم (خزانة الحائط) وفيلم (آستيريكس) بجزأيه لارتفعت إيرادات هذه الأفلام أكثر من ثلاثين ألفاً. ثم هناك المسلسلات التلفزيونية: مونت كريستو، بلزاك، البؤساء، نابليون.... ومع ذلك أتساءل هل أستطيع أن أسمح لنفسي بالعمل في بعض الأفلام العزيزة على قلبي؟

-: تحدثت للتو عن مخرجين شبان في أول خطواتهم. لكن ماذا بشأن الممثلين الشبان، ومن منهم يثير انتباهك؟

-: لن أذكر اسم غييوم واسم جولي، لئلا تصفني بالانحياز واللاموضوعية، ولكن عذراً، سأقول لك إن جميع أعمال جولي رائعة، وهي من الذكاء أنها لم تحترف التمثيل وتعرف كيف تحدد المسافة بينها وبين هذه المهنة، وأظن أنه لن يصيبها الغرور في يوم ما، لكنني أعتقد أنها سوف تتجه إلى الإخراج، وعملها كممثلة قليل

جداً. وفي العودة إلى سؤالك، أعني الممثلين الشبان الذين أحبهم كثيراً، أقول إن هناك بينوا بولفورد حيث تفوّق في فيلم (منصة الفائزين Podium) أيضاً هناك الممثل جان بول روف في فيلم (روبنس الغابات Robins des bois) وكان قد عمل معي في فيلم (ررر R R R) للمخرج آلان شابا، كذلك هناك الممثل إيفان آتال الذي عمل معي في فيلم (رحلة سعيدة bon voyage) للمخرج جان بول رابينو..

-: فيما يخص فيلم (رحلة سعيدة) كان من المتوقع أن يلاقي نجاحاً جماهيرياً واسعاً، لكن إيراداته لم تصل إلى المستوى المطلوب.

-: شخصياً لم أفهم هذا الذي حدث، فقد توفر كل شيء في هذا الفيلم: سيناريو جيد، وشارة الفيلم تصدرها أسماء لنجمات شهيرات من أمثال إيزابيل أدجاني، إيفان آتال، فيرجيني لودويان، ولكن الأمر الغريب الآخر أن عدد مشاهدي الفيلم على شاشة التلفزيون فاق العشرة ملايين مشاهد من دون شك...

-: هناك بعض الممثلين ممن يحسن اختيار أدواره. أما فيما يخصك، فثمة انطباع بأنك لا تعمد إلى الاختيار، بل أنت تقبل كل ما يعرض عليك من أفلام متواضعة التكاليف إلى أفلام ذات إنتاجية عالية، من أفلام جيدة وأخرى سيئة. ترى هل هناك من يشير عليك بالعمل في هذا الفيلم أو ذاك أم أنك أنت من يختار كل شيء؟

-: أظنك على صواب. لأني تقريباً أقبل كل ما يعرض عليّ من أعمال. كل فيلم جديد له أهميته، سواء لطبيعة الفيلم أو للسيناريو أو لشخصية مخرج الفيلم، أو للممثلين الذين سأتعاون معهم. هناك دائماً سبب وجيه للعمل في فيلم ما. أما بشأن توقع حصول الفيلم على ما يستحق أو لا، فهذه حجة غير مقنعة. وأنا في الحقيقة أطلب النصيحة من بعض الأصدقاء في اختيار أفلامي، ومن هؤلاء بيرتران دولابي وكلير بلودنديل، وهما مستشاران في شركة آرت ميديا للإنتاج، حيث يديران المسائل المالية والقانونية وعقود العمل وبقية التفاصيل، وأنا أثق بهما جيداً. بيرتران رجل أمين في عمله، وكنت أردد على الدوام أن أمانته لا مثيل لها. أيضاً هناك نصائح كلود دافي والتي أقدّرها عالياً، وكلود هذا هو الناطق الصحفي باسمي منذ ثلاثين سنة. ومهنتنا مهنة شاقة خاصة إذا عرفنا أن خمسمائة فيلم تكون جاهزة للعرض في كل عام... لكن كلود هو صديقي أولاً ويعرف كل شيء عني، عن حياتي الخاصة، عن عيوبي، ولا يتردد في التذكير بها عند الضرورة، لكنه وبشكل خاص مثال الذاكرة الحية للسينما.

-: من بين أفلامك الكثيرة، ثمة أفلام شاركت فيها وندمت عليها، لأنه لا يمكن أن تكون راضياً عن الأفلام الثمانية التي تصورها في كل عام.

-: هذا صحيح، لكني لا أندم أبداً على أي فيلم شاركت فيه ولو كان فيلماً فاشلاً. كان من الضروري أن أعمل في (١٦٥) فيلماً، وأنا لست نادماً على أي فيلم منها. لكن يحدث أحياناً أن أفقد صبري في أثناء تصوير فيلم ما، لأن بعض المخرجين لا يقوم بعمله بالسرعة المطلوبة. ولهذا تحولت إلى العمل في التلفزيون، حيث تجري الأمور بسرعة أكبر. لكن مشكلتي في الحياة هو عدم توافر الوقت لإنجاز كل أعمالي ومشاريعي. والعنوان الذي اخترته لكتابنا هذا هو: مفعماً بالحياة Vivant وهو يلخص على وجه أكمل حالتي النفسية منذ

إجرائي للعملية الجراحية: طالما أنا حي لماذا لا أفيد من ذلك. سعادتي في العمل مع أندريه تيشنييه، هنا في طنجة، هي سعادتي نفسها حين أنتج الخمرة في آنجو، وحين أتلو مقاطع من كتاب سانت أوغسطين في كنيسة المادلين أو حين أتذوق أطباق مطابخ لافونتين غايون. وفي النهاية هذه الأمور جميعاً تقتضي توفر معرفة العطاء عند الإنسان.

-: أصدقني القول: هل يصيبك الضجر غالباً في الاستديو في أثناء التصوير، وتبدأ، أحياناً، في فيلم ما من دون أن تعرف أي شيء عن قصة الفيلم، بل حتى من دون أن تتمكن من الحوار...

-: هذا مؤكد، وأنا لا أخفي شيئاً ومن الممكن أن يحدث أمر كهذا، وفي بعض الأحيان لا يكون لدي الوقت الكافي لقراءة مخطوطة الفيلم، فأكتفي بقراءة بعض المشاهد، المشاهد التي تعنيني.

-: يبدو أنك، في بعض أفلامك، تعمد إلى إلصاق نص حوارك على سترة الممثل أمامك أو بالقرب منه.

-: نعم، هذا صحيح، ألصق حواراتي حيثما يكون التصوير، فهي كأعقاب سجائري، وهي حواجز أمان وخطوط ضمان لي، وفيما شريكي يلقي حواره، أختلس النظر إلى حواري، وحين يجيء دوري لا أهتم كثيراً بالنص قدر اهتمامي بالأداء، والأداء هو المهم، الأداء يعلو على كل شيء. وقد حاول جون مالكوفيتش أن يقلدني لكنه فشل في ذلك.

-: ألا يزعج تصرفك هذا، شريكك في التمثيل؟

-: عموماً لم يشتك أحد من الأمر. أحياناً ألاقي بعض التذمر من بعض المخرجين، أمثال فرانسيس فيبر على وجه الخصوص، ويتكرر الأمر على خشبة المسرح أيضاً. ولكن كما تعلم بعد حوادثي على الدراجة النارية وبعد تركيب الأسلاك في جسمي والأدوية التي أتناولها للنوم، أصبحت ذاكرتي ضعيفة أحياناً. كم من مرة ضبطت فرنسوا بيرييه وحيداً، يرتعب من هاجس الذاكرة الضعيفة. إذا حصرت تفكيرك في حوارك فلن تبدع، وأنا إن خانتني الذاكرة في العمل، أتريث قليلاً وأنتظر ريثما أتذكر المشهد، من دون أن أقرّع نفسي قائلاً: سحقاً ماذا سأقول الآن؟ ماذا سأقول الآن؟ وحين تتحرر من النص، يتحرر أداؤك.

-: أنا هنا برفقتك، في طنجة، منذ عدة أيام، ورأيت السعادة على وجهك وأنت تعمل إلى جانب كاترين دونوف وبإدارة أندريه تيشينييه. في المقابل أشعر منذ عدة سنوات أنك بدأت تسأم من السينما الفرنسية. هل أنا مخطئ في إحساسي؟

-: بالفعل هناك بعض المخرجين وبعض الكتّاب وأيضاً بعض الممثلين من يأخذ الأمور بجدية مفرطة شيئاً ما، والسينما الفرنسية غالباً ما تعزو لنفسها أهمية فيها الكثير من المبالغة، ويتجلى هذا في نوعية السيناريوهات، والمشكلة هي في فرنسا ذاتها التي تصطبغ بطابع البرجوازية، علماً بأن الناس أجمعين متشابهون سواء فنياً أم سياسياً. لقد فقدنا الأصالة والإبداع. وأصبحت لا ترى إلاّ نادراً أفلاماً ذات موضوع، أفلاماً تأسرك من الأعماق. إن السينما الإيرانية والصينية أو الكورية لديها ما تقوله. والسينما الفرنسية، ذاتها، تتكلم كثيراً ولكن من دون معنى. لا أريد التعميم، فحين أقول «السينما الفرنسية» لا أعني جميع الأفلام وكل المخرجين الفرنسيين، وهذا من حسن حظي وإلاّ لكنت بدّلت مهنتي. لكني متأكد أن السينمائيين الأميركيين لم يتوقفوا أبداً،

عبر أفلامهم، وفي أدق الأمور حساسية من عرض تاريخهم، بدءاً من الهنود الحمر وغزو الغرب إلى تجارة الرقيق وحرب فيتنام إلى خفايا السلطة السياسية. ترى كم فيلماً فرنسياً تجرأ وتعرض لرئيس الجمهورية؟ إلى متى سيطول انتظارنا إلى فيلم طويل يحكي قصة الأسرار الرهيبة لحرب الجزائر والتعذيب؟ أين مايكل مور فرنسا؟

-: هل أصبح مايكل مور بطلك الحالي؟

-: مع ذلك هو أفضل من جان لوك غودار، أليس كذلك؟ في أفلامه، يتفوق الواقع على الخيال. يكفي وجود كاميرا توجهها حيثما يلزم. ولكن العالم بأسره ليس محظوظاً بوجود بطل على شاكلة جورج بوش. ابتسم في صمت، حين أجد البعض يصف مور، للتقليل من شأنه، أنه يصنع أفلاماً سياسية. ترى ماذا كان يكتب شكسبير أو موليير غير المسرحيات السياسية؟ من هو تارتوف تماماً، إن لم يكن تصويراً سياسياً لعصره، وماذا يمكن أن يكون فيلم (القيامة الآن) لفرانسيس فورد كوبولا؟

-: كيف تفسر عجز السينما الفرنسية في التعبير عن الواقع الراهن أو الجانب المظلم في تاريخنا العام؟

-: الأمر ببساطة أن فرنسا هي بلد صغير جداً بعدد سكانه الستين مليون. هوليوود تتوجه قبل كل شيء إلى سوقها في الداخل والبالغ مائتين وسبعين مليوناً، بمعنى أن هناك تبدلاً في التوزيع.لو كان فرنسوا ميتران مواطناً أميركياً، لتمكن الأميركيون، ومنذ زمن بعيد من فهم تاريخه الشخصي وعمله السياسي، وصنعوا له لوحة سينمائية كبيرة. بخصوص E L F كانت قد قدمت فيلماً مثيراً سياسياً وعاطفياً، ولكن خارج Hexagone من يهتم بتلك الروايات. فعلاً، والحق يقال، إن السينما الفرنسية ينقصها أحياناً شيء من الحرية والخيال. لماذا تظن بأني انطلقت في أعمالٍ تلفزيونية باهظة التكاليف؟ لم يعد للسينما الفرنسية لا الوقت ولا الوسائل لاقتباس رواية البؤساء أو رواية مونت كريستو أو فيلماً عن حياة نابليون أو ديغول. ماذا ننتظر لنعرض قصة حياة ديغول على الشاشة الكبيرة؟ أنا على يقين بأن التلفزيون سيقوم بذلك في يوم ما.

-: إن كنت فهمتك جيداً أقول إنك بدأت تشعر بمحدودية هذه السينما.....

-: كلا، أكذب إن قلت هذا، وسيكون ادعاءً مني. ليست لدي الرغبة ولا القدرة للقيام بدور المصلح لأخطاء السينما الفرنسية. أكثر ما يهمني اليوم، اكتشاف المواهب الجديدة، والتعاون مع الشباب الجديد المتحمس. أنا الآن في الخامسة والخمسين، ولم يعد لدي الكثير أقدمه للسينما. ما يسعدني الآن هو انخراطي في تجارب جديدة.

-: أي أن تجد قصصاً تنعش رغباتك وأمانيك....

-: ولكن جعبتي مليئة بأمثال هذه القصص! وتاريخنا الأدبي حافل بالقصص الجميلة. لنعمل على رواية (جوزيف بالسامو) لألكسندر دوماس! أو على رواية (عناقيد الغضب) لشتاينبك. لنقتبس من فولكنر وهمينغواي! وإن فعلنا لن نواجه مشكلة في السيناريو، وسوف يتسابق الناس لمشاهدة هذه الأفلام، ولن يحبطوا.

-: كان أول لقاء بيننا في شهر نيسان عام ٢٠٠٠ في مهرجان كان، أي بعد عدة أسابيع على عملية القلب المفتوح التي أجريتها. كان ذلك اللقاء من خلال مقابلة في برنامج (حدث الخميس)، وقد وصفت السينما الفرنسية، حينها، بكلام قاسٍ.

-: أذكر جيداً تلك المقابلة. والآن وبعد أربع سنوات لا زال ما قلته صحيحاً، وربما الحال الآن أكثر سوءاً. إن السينما الفرنسية هي في خطر شيئاً فشيئاً، وعزلتها تزيد على كل الأصعدة. عرفت، فيما مضى، بعض المنتجين من يراهنون على آخر فلس بحوزتهم لتحقيق أحد مشاريعهم الطموحة. واليوم ليس هناك منتج سينمائي واحد يسهم بقرش واحد لإخراج رواية جوزيف بالسامو. لكن في التلفزيون هناك من يقوم بذلك. ولكن لا يعني ذلك بالضرورة أن يتوقف العمل في السينما، بل يجب المساهمة في التلفزيون لإخراج مشاريع طموحة، مشاريع مكلفة في اللباس وآلاف الكومبارس... ثمة اليوم مؤسسات للمرئي والمسموع أمثال تليفزيون فرانسا واحد أو قناة بلوس، وهي لوحدها القادرة على إنتاج أعمال سينمائية كبيرة على غرار الأفلام الأميركية الرائدة... مثلاً، أحلم بأداء دور تاراس بولبا في السينما. هذا مستحيل! والحل الوحيد هو تشكيل شركة دولية متحدة من فرنسا وروسيا وأوكرانيا لإنتاج هذا العمل تلفزيونياً. أساساً مأخذي الوحيد على شبكات التلفزيون أنها لم تسع لدعوة كبار نجوم السينما للعمل في التلفزيون. لقد سافرت إلى الولايات المتحدة لإقناع نجوم السينما الأميركية للمشاركة في التمثيل في قصص الخيال الفرنسية. سافرت كذلك إلى إيطاليا لإقناع أورنيلا موتي للعمل في مسلسل مونت كريستو. وكنت في هذه الأمور وسيطاً، وهذا جانب من حياتي العملية.

-: ألا يعد مفارقة عجيبة أن تعمل في سبعة أو ثمانية أفلام في السنة، ثم تطلق هذه التصريحات القاسية بحق السينما الفرنسية؟

-: معك حق، لا أريد أن يقال إني أبصق في الصحن الذي آكل منه. لكني أكرر وأقول إني فعلاً أشارك في أفلام كثيرة، لكني لا أعمل سوى مع من أحبهم وأهتم بهم. سابقاً كانت هناك علامة مميزة حقيقية وهي ما يسمى «الخصوصية الفرنسية» والآن فقدنا شيئاً من تلك الخصوصية، ولكن لحسن الحظ لم نفقدها بالكامل. خذ مثلاً الفيلم الذي أشارك فيه الآن، هنا في طنجة، بإشراف أندريه تيشينييه. جرت صياغة الحوار بشكل رائع. إنه سكريبت رائع ذاك الذي كتبه جيرار جونيو وشريكه للنسخة الثانية لفيلم (بودي الناجي من المياه) وسأبدأ تصويره الشهر القادم. يعجبني جداً كذلك أسلوب كتابة آنييس جاوي وجان بيير بكري. المشكلة هي فيما سنقدمه كبديل. لهذا شاركت في إنشاء الـ E mergence وهي مدرسة تديرها أليزابيت في الآكس أون بروفانس. في الواقع أنا لست قلقاً، وأعلم أن ثمة بديلاً. خذ مثلاً فيلم صوفيا كوبولا (خطأ في الترجمة lost in translation)، كل شيء فيه رائع، من النص إلى الإخراج!

-: أريدك أن تتحدث عن الطريقة التي تتبعها في التحضير لأدوارك...

-: الانفعال بالموضوع! هذا هو الشيء الوحيد المهم. الانفعال يولّد الجمال، ومن خلاله يتفجر نبع الإبداع. في أغلب أفلامي كنت أتصرف بعفوية. لم أكن أبداً من مؤيدي الأسلوب الأميركي. لست من أنصار معهد (ستديو الممثل l'Actor ' s studio). عرفت بعض الممثلين من يغوص أسابيع عدة في دراسة دوره، وهناك من لا يتردد في زيادة وزنه ثلاثين كيلو لمحاكاة شخصيته في الفيلم. وللمفارقة هذا الأسلوب بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً في الولايات المتحدة وبدأ يكتسح السينما الفرنسية شيئاً فشيئاً. شخصياً، ليست هذه طريقتي في العمل، ولن أبدل أسلوبي في المستقبل. يبدأ عمل الممثل في اللاوعي حين يبدأ في قراءة مخطوطة الفيلم، وبعد ذلك يزداد

فهمه للشخصية. ينسحب هذا على جميع الأفلام. والكلمات على لسان شخصيتي في الفيلم، والمشاعر التي تمر بها وأوضاعها المعيشية، جميعها تنعش ذكريات اللاشعور عندي وستحاكي شخصيتي في الفيلم، من دون وعي مني بالضرورة، حياتي الشخصية والماضي الذي عشته وذكرياتي. لكن الأهم هو تلك اللحظة الخالدة حين يصيح المخرج: «تحرك! أكشن!». عندها يبدأ العمل وعلى الممثل أن يقدم كل ما لديه، لأنه في هذه اللحظة، وفي هذه اللحظة فقط، يبدأ العمل الخلاّق ولا شيء آخر. كل شيء مكتوب سلفاً، ما على الممثل سوى إثبات وجوده.... لكن في حالة الأب دونيسان في فيلم (تحت سماء الشيطان) لم يكن مجدياً الغوص في النصوص الدينية أو في زيارة الكنائس قبل ثلاثة أشهر من التصوير. كذلك لدور بوب في فيلم (ثياب السهرة) لم يكن ضرورياً أن تتحول إلى شاذ وأن تجرجر رباط حذائك ليالي بطولها في الغرف السرية في العاصمة. أكرر القول إن حياتي وتجاربي في الحياة وذكرياتي جميعها، كافية لتجسيد أي دور سواء كان كوميدياً أم تراجيدياً.

-: إذن تكتفي بها وتتوارى خلف شخصيتك في الفيلم، أليس كذلك؟ ماذا يمكن أن نطلق على هذه الطريقة؟ هل هي «الانفعال الحقيقي»؟

-: نعم، إلى حد ما. لقد زعم جوفيه بأن طريقة الإلقاء تستدعي الإحساس. يكفي أن تنتزع الإحساس، كما تسحب الخيط من الصوف وشيئاً فشيئاً تتشكل كبّة الغزل، ولكن، كما تعلم، حين أتفوق في دور من أدواري، أؤكد لك بأن ٨٠% من قدراتي أكون غفلت عنها. واليوم مع ازدياد الخبرة، اكتسبت حرفية كافية للقيام بأي دور. ولكن عند العمل أحس بنوع من الطاقة تطفح في داخلي. أنا في حركة دائبة كما كان بيكاسو في اختصاصه، أحترق وأحس بالحرارة تسري في بدني، يصعب تفسير ذلك. وربما في عمق كل شخصية ألعبها ثمة، في اللاشعور، ما يذكرني بأحداث مرت في حياتي. في جميع الأحوال أصرّ دائماً على الحرية الفنية...

-: هل هذا «الانفعال الحقيقي» يعفيك فعلاً من التحضير لأي دور ستلعبه؟ لأنك حين قمت بدور رودان، توجهت إلى كلية الفنون الجميلة للاستعانة بالوثائق عن أعماله وحياته وعن الجمهورية الثالثة، وكذلك في فيلم (الميترو الأخير) قرأت الكثير من مؤلفات ساشا غيتري...

-: بالطبع، ولكن ما أحاول قوله هو أني أكون في حالة من الإبداع عندما تبدأ الكاميرا عملها. عرفت بعض الممثلين يستظهرون نصوص حواراتهم لمدة أسابيع قبل بدء التصوير. شخصياً لا قدرة لي على هذا. طلب مني أندريه فايدا أن أردد بصوت عالٍ بعض المشاهد وبخاصة خطاب دانتون الطويل، وقمنا بذلك في سلسلة من اللقطات، لكني طلبت استبدالي بممثل آخر...وبعد ذلك وصلت الاستديو في اليوم J وطلبت أوراقي، وعند السابعة أطلق فايدا شارة البدء، وفي السابعة والنصف قال لنا: «لم نوفق سوى في لقطة واحدة، لكنها جيدة». فلو فكرت مسبقاً بالحركات التي سأنفذها وبالطريقة التي سأتحرك بها، لما كان ذلك مجدياً!

-: مع ذلك عمدت أحياناً إلى تغيير شكلك الخارجي رغبة في محاكاة شخصيتك في الفيلم...

-: لم يحدث هذا الأمر مطلقاً وإن حدث فهو بغير إرادتي تماماً. الممثل الأميركي لا يعمل إلاّ بنصيحة طباخه وأخصائي الريجيم المرافق. شخصياً لا أتبع هذا الأسلوب في عملي. أحياناً أبدأ العمل في فيلم ما، ووزني تسعين كيلو وأنتهي من الفيلم وقد أصبح وزني مائة وعشرين كيلو. (يضحك). أما بخصوص أنفي المزيف في

دور سيرانو، لم يكن ذلك بداعي تغيير في الشكل الخارجي. ليس المهم ما يراه الناس بل ما يحسون به. وفي فيلم (٣٦) لم أكن في حاجة لتغيير مظهري وأن أتنكر بشخصية شرطي هزلية لا على التعيين، كنت بحاجة لإحساس الجمهور بأني فاسد وجاهل ووصولي، لهذا لم أضطر لزيادة وزني عشرة كيلوات أو أن أطلق شاربي أو أن أتعلم كيف أمسك بزجاجة الخمر الكبيرة عيار ٣.٥٧.

-: اثنان من عشاقك في التمثيل، مارلون براندو وروبرت ميتشوم، كانا يزعمان بأن الشكل الخارجي، هو وحده الذي يسمح بتقمص الشخصية.

-: هذا ليس خطأ، لكن المهم ليس التمثيل بل الحضور لدى الممثل. أرى أن لا فائدة في تبديل المظهر الخارجي، عليك أن تكون كما أنت، وهذا كل شيء، أيضاً عليك أن تكون على قناعة كافية بقدراتك كي تتاح لك الفرصة لإقناع الآخرين. والممثل الذي يبدل في مظهره هو كالممثل الذي يعد العدّة لدوره، إنه بهذا يفقد كل شيء. ليس ثمة ممثل أكثر حضوراً وأشد إقناعاً من ممثل لا يفكر،لأن الممثل الذي يفكر ينظر إليك، وإن نظر إليك أصغى إليك، وإن أصغى إليك استلفت انتباهك، وهنا ضربة حظ أن تكون أنت الشخصية الناجحة.

-: ومع ذلك، هل كان شكلك مصدر إزعاج لك في بعض أدوارك؟

-: نعم، حدث ذلك في بدايات عملي. لم أكن أتحمل شكلي، كان هذا الإحساس يضنيني، وبفضل هذا الإحساس تتحول إلى إنسان نرجسي تقريباً، كمن يرى في هذا الشكل مظهراً جميلاً. تمضي وقتك في النظر إلى شكلك وأنت متكدر..... لكن هذه قصة قديمة. والآن ألعب جميع الأدوار بأفضل ما يمكن.

-: كان يقول عنك بيرتران بلييه: «ينوء جيرار في حمل جسده، كمن يعتل حقيبة ثقيلة جداً ».

-: كان حملاً ثقيلاً، هذا صحيح. وبعد، أقول بصدق بأني لم أول هذا الجسد أي اهتمام، لم ألتفت إلى نفسي أبداً، أقصد جسدياً. لم أكن أبالي إن زاد وزني عشرة كيلو أم نقص أم زاد ثانية.... بدءاً من التدخين وشرب الكحول، إلى قضاء ليالٍ بكاملها من دون نوم.... يا لهذا الجسد المتخم بالندوب... لكن لحسن الحظ صحتي كالحديد، وأشفى من أمراضي بسرعة كبيرة....

-: واليوم، هل يعيقك هذا الجسد في أداء بعض الأدوار؟

-: سوف أكون صريحاً وأقول بإنه لا يعيقني أبداً في شيء! أستطيع القيام بكل الأدوار إن جاز التعبير، وكلما ازددت سناً، كلما شعرت بالراحة عند أداء أي دور... وهذه هي الخبرة دون شك.

-: كنت تخاطر بنفسك في بعض أدوارك، كما في أفلام بيرتران بلييه وفي فيلم (المرأة الأخيرة) لماركو فيريري.... هل لا زلت تقدم، وأنت في الخامسة والخمسين، على مخاطرة كهذه كما كنت تفعل حين كنت في الثلاثين أو الأربعين؟

-: بلا شك. ولكن تلك الأدوار التي تفكر بها، كنت أقوم بها وكأني أضع رسالة في صندوق البريد! في الواقع الإحساس بالخوف ليس هو ذاته في عمر الثلاثين وفي عمر الخامسة والخمسين. وفيما يخص فيلم فيريري بقيت طوال الفيلم عارياً، أما أن أصور اليوم أحد الأفلام وجسمي عارٍ فلن يكون لهذا أي معنى، يلزمني لفعل ذلك أن أكون براندو وفيلمه (آخر تانغو في باريس) ولطافة بيرتولوتشي ونضارة ماريا شنايدر...

-: ماذا تتمنى للسنوات القادمة؟

-: أتمنى متابعة العمل لأطول مدة ممكنة، وأن أستمر في الحياة ما أمكنني ذلك. ليست لدي مشاريع للمستقبل، ولم يكن لي مشاريع فيما سبق، لم أسع أبداً لتحقيق أحلامي. آخذ المغامرات الجديدة كما هي، ومن المؤكد أني لن أبدّل فلسفتي في الحياة وأنا في هذا العمر!

الفصل الخامس

الرجل العجول

«لا يمضي المرء أبداً في البعيد البعيد إلاّ حين لا يعرف طريقه»
كريستوف كولومبس

طنجة، ٢٩ أيار ٢٠٠٤ فندق موفينبيك.... يصّور جيرار عصر اليوم أربعة مشاهد أمام كاميرا أندريه تيشينييه.

-: هل حديث المال يشكل أي إزعاج لديك؟

-: لا ليس هناك مشكلة. هذا الأمر هو الأقل أهمية من بين مشاكلي الأخرى، لأني، في الغالب، لا أعرف أجري عن الفيلم، وعموماً لا أعرف أجري إلاّ بعد أن يبدأ التصوير، وأقول بصراحة أكثر، بعد انتهاء الفيلم. بيرتران دولابي، من شركة إنتاج آرتميديا، هو من ينظم عقود عملي، وكما أسلفت، لي كامل الثقة به.

-: إذن يمكنني أن أطرح عليك ما أريد في الشؤون المالية، من دون إزعاج لك على الإطلاق...

-: على الإطلاق. فكما تعرف أنا أحلم بالفن وبالناس وليس بالمال! ولا تسبب لي أسئلتك أي إزعاج: فكل ما أكسبه تنقله الصحف تباعاً. وحين يقرأ المرء الخطوط العريضة للصحف والمجلات الفرنسية «راتب الموظفين الإداريين»، «مداخيل أرباب العمل»، «أجور النجوم»، يصدق فعلاً أن حرمة الأموال انتهكت في العلن منذ زمن بعيد. وأنا في الواقع لا أصدق حرفاً مما ينشر في وسائل الإعلام بهذا الشأن. إن أصحاب المداخيل الكبيرة، وأنا واحد منهم، لا يرغبون في نشر الأرقام عما يكسبون ولا عن ميراثهم عبر الصحف، والشيء ذاته لذوي الدخل المحدود. حاول، مثلاً، أن تطلب من جارك، ومن الشريحة الاجتماعية ذاتها، اطلاعك على فاتورة ضرائبه، وسترى رد فعله.... إن كان الأغنياء وأرباب العمل ونجوم السينما والمغنون، ولاعبو كرة القدم، يفضلون عدم كشف أسرارهم فذلك كي لا يظهروا في مظهر لا يليق. ومن المؤكد أن ذلك الموظف الذي يقضي أشهراً في عمله ويقبض ألف وخمسمائة أو ألفي يورو، سيصاب بالغثيان حين يقرأ تلك الأرقام الفلكية. أنا شخصياً ولدت في أسرة متواضعة، ولكنني أعتقد أننا لم نفتقد إلى المال أبداً. وحين كنت أمارس التجارة في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة مع الجنود الأميركيين في قاعدة شاتورو، كنت أجني من المال أكثر مما يكسبه والدي حين كان يتلف صحته في طرق الحديد. في الحقيقة أظنني كنت غنياً على الدوام في حياتي، لأني كنت راضياً بما أملك. حتى في السبعينيات في أثناء عملي في الأدوار الثانوية، كنت أجد أجري جيداً. وليس المال شيئاً مقدساً سوى لمن لا يرضى بما قسم له، أو لمن ينتابه الخجل من إيراداته أو من رصيده. وشخصياً لا أمتّ لكليهما بصلة.

-: ومع ذلك فقد جاء على لسانك في كتابك (حروف مجنحة): «المال خدعة ينبغي أن نعتادها بالسرعة الكافية قبل أن يبتلعنا.... وفي وقت ما يتحول هذا المال إلى مرض يتغلغل في أعماقك فتتحول إلى إنسان بخيل،{.....} ومع ذلك لن أصبح في حياتي إنساناً غنياً». لكنك غني بل وغني جداً....

-: ما قصدت قوله، إني في أعماقي، لا أنتمي إلى طبقة الأغنياء. أعرف منشأي جيداً. في الحقيقة كنت غنياً على الدوام، لكني لا أتكلم عن الغنى الذي تعنيه، لأن الغنى الحقيقي شيء آخر، ولا يمكن حسابه بعدد الأصفار في حسابك المصرفي.

-: هذه لغة خشبية...

-: ولكن لا، ليست لغة خشبية، أنا صادق فيما أقول. بدايةً أقول أن الغنى هو على قدر الكرم. لدي ما يكفل عيشي بسعة وأنا أساعد من أحبهم. وغييوم، فيما يبدو، ذكر في كتابه أنه كانت لدي مشكلة مع المال، أي أنه يقول وبصراحة إني بخيل. أؤكد لك أنه أخطأ في حقي. ليس لدي الوقت لأكون بخيلاً. كان كريستوف كولومبوس يقول: «المال، لا يصنع منك رجلاً غنياً، بل يزيدك هموماً». وهذه هي الحقيقة. أعيش وسط أصدقاء، هم، أغنياء حقاً، لكني على يقين بأن حياتهم مثقلة بالهموم. وعلى الصعيد الشخصي، لا أتمنى أن أكون غنياً. إن الغنى الحقيقي، بالنسبة إلي، هو ما تأتي به الحياة، هو عملي ورحلاتي ومزارع الكرمة ومطعمي. غير أني لا أحسب حساب نفقاتي وما أكسبه، وأظن أن هذه ليست من صفات البخيل! يتصل بي مدير المصرف قائلاً: إيه جيرار هل يجب التدقيق وسحب النقود حسب بطاقات الاعتماد المصرفي، أجيبه: «تصرف كما تشاء» وينتهي الأمر. ولكن في الأساس لم يكن المال همي الأول.

-: ولكن عن أي بطاقة زرقاء تتحدث؟ هل عن بطاقتك أم عن بطاقة شركتك؟

-: هذا سؤال جيد. من دون أن ألفت الأنظار إلى أرباحي ومصاريفي، امتنعت عن امتلاك كارت أزرق ودفتر شيكات عائد لشركة د. د. للإنتاج لأني لا أريد المخاطرة في الخلط بين الحسابين وبالتالي أقع، كما حدث مع بعضهم، في سوء استخدام الأموال الاجتماعية. لدي كارت أزرق خاص بي أدوّن فيه جميع مصاريفي في المطاعم والمحلات، وهذا كل شيء.

-: سبق أن قلت إنك لا تعرف أجرك عن الفيلم، لن أجادلك في هذا، ولكني، مع ذلك، أفترض أنك لست عاجزاً على حساب ثروتك، أليس كذلك؟

-: نعم، عموماً أعرف ما أملك. ولا سيما منذ بدء إجراءات الطلاق من اليزابيت، حيث تتم المحاسبة بالمليم. من المعروف أنه لا تعطى القروض المصرفية إلاّ للأغنياء. على سبيل المثال، لم يتقدم لي أحد بملكية مزارع الكرمة في مراكش، بل اكتفيت في الحقيقة باستئجارها. لا تهمني ملكية المزارع بقدر ما يهمني إنتاج الخمرة المحلية. في الحقيقة أنا فلاح حقيقي، لأني حين أشتري قطعة أرض، لا أقدر على بيعها ثانية، لأني إن فعلت لكأني أقطع شيئاً من جسدي، أو كأنما ولدي خطف مني. وسببت لي هذه، مشكلة كبيرة، ولا سيما بخصوص الدراجات النارية التي أملكها، فحين أشتري دراجة جديدة، لا أقوى على بيع الدراجة القديمة، لهذا كنت أهديها لأحدهم على الفور.... لكن لحسن حظي هناك نونور فهو من يشرف على هذه الأمور!

-: من هو نونور هذا؟

-: نونور هو ميشيل بويار، يعمل معي منذ عشر سنوات ويتبعني كظلي. ويعنى بمقطورات الممثلين ومقطورات البضائع. يرافقني حيثما أذهب، في أسفاري وفي أثناء التصوير.... فمثلاً هو موجود معي هنا في طنجة منذ بدء تصوير فيلم أندريه تيشينييه وسوف يسافر معي، الشهر القادم إلى إيكس أون بروفانس لتصوير فيلم جونيو... ببساطة هو يهتم بكل شيء... إنه عيني وأذني ومفكرتي.... وأنا أقدّره عالياً.

-: أثرت منذ قليل موضوع شركة د.د. للإنتاج.... ماذا تقدم لك هذه الشركة من خدمات تحديداً؟

-: تقوم على إنتاج الأفلام، والأفلام القصيرة، وتدير أموالي التي أستثمرها في الأفلام كمنتج مساهم كذلك تشرف على أفلامي الطويلة.

-: ومن الذي يقرر أجرك في العمل؟ من الذي يقرر أجرك عن هذا الفيلم أو ذاك وبالتالي الكيفية التي سيتم فيها استثمار هذه الأجور، أقصد الأمرين معاً؟

-: كما أخبرتك، إنهما برتران دولابي وكلير بلونديل وهما يهتمان بكل شيء. أحياناً أقبض أجراً عالياً في بعض الأفلام وأحياناً يكون الأجر صغيراً، إن لم يكن بلا مقابل، وهذا في الحقيقة مرتبط بميزانية الفيلم المحددة. لا أتدخل سوى في حالة واحدة، حين لا تكون لدي أي رغبة في العمل في الفيلم، وفي هذه الحال، يصرّان على أجر مرتفع جداً، وهما على علم بأن منتجي الفيلم سيسحبون عرضهم. لكن المشكلة هي أني أوافق دائماً على أي عرض يقدم لي مما يتسبب في مشاكل لبيرتران وكلير.

-: ومع كل ما ذكرت، هل تقرأ السيناريو قبل الموافقة على العمل في الفيلم؟

-: طبعاً أقرأ مخطوطة الفيلم، لكن لا يكون للمال أي أثر في قراري.

-: تقول ليس له أي أثر أبداً؟

-: أؤكد لك بأنه لا يؤثر في قراري أبداً.

-: علمت، مع هذا، بأنك قبضت ثلاثة ملايين دولار عن أجرك في فيلم (القناع الحديدي)، لكنك اقترحت على منتجي الفيلم حسم مليون دولار من أجرك مقابل إعفائك من ثلاثة أسابيع من التصوير.....

-: فعلاً هذا صحيح. كان ذلك عام ١٩٩٧، وكنت أعاني حينها من نفاذ صبري على التصوير. كنت أفضّل أن تجري الأمور بسرعة، وكنت أشعر بعدم الاستقرار، وقد وافقت بالفعل أن يحسم من أجري ثمانمائة ألف دولار (وليس مليون دولار) شرط أن تقلص عدد الأيام التي أقضيها في التصوير. وهذا أفضل برهان، وعكس ما قيل، بأن المال ليس هو المعيار الحقيقي للاختيار. يتكرر هذا في بعض الأفلام، حين ترفض شركات التأمين استخدام دراجتي في أثناء عملي في الفيلم.

-: يتوجب القول إن حوادثك قد زادت، وخاصة ذلك الحادث الخطير في ١٨ أيار عام ١٩٩٨ على ناصية شارع ماليرب في باريس، كذلك في آب ٢٠٠٢ حين سقطت في حادثة ولكنك لم تصب إصابات خطيرة في أثناء عملك في فيلم (رحلة سعيدة)، وحادث آخر في أيار ٢٠٠٣ في جادة الأوبرا.... كان عدد هذه الحوادث، على الأقل في حسابي، ستة حوادث!

-: نعم، ولكن رفض شركات التأمين لا علاقة له بهذه الحوادث، لأنها رفضت أي مجازفة من قبلي. أعترف بأن هذا شيء غريب! ولا يخصني شخصياً. شركات التأمين هذه ترفض كذلك التأمين على حياة الممثلين من هواة رياضة التزلج على المنحدرات الخطرة أو أي نوع آخر من أنواع الرياضة الخطيرة. ولكن بعد كل هذه الخبرة في هذه المهنة، أعتقد أنه يحق لي تنظيم أعمالي بنفسي، وهذا الأمر يختلف من شخص لآخر. هذه مسألة علاقات بين قوى متعددة. وحتى حين كنت منشغلاً بقضية تركيب الأسلاك في جسمي، لم أتأخر سوى ثلاثة أسابيع عن بدء التصوير، وأظن أن كلفة هذا التأخير لم تكن باهظة على شركة التأمين.

-: ذكرت منذ قليل أن ثمة رجلاً يتولى شؤونك المصرفية. فهل هو من يدير ثروتك؟

-: أجل، إنه غابرييل ميار وهو في الثامنة والسبعين، مدير مصرف متقاعد، يتابع شؤوني المالية منذ فترة طويلة. وهو الذي يجهز الأموال لدفع الضرائب، وهو من يطلق جرس الإنذار إن تجاوزت مصاريفي الحدود المطلوبة، وزيادة على زيادة فقد استدعى محامياً مختصاً بالشؤون المالية كي يشرف على تصريحي عن ضرائبي وعن حسابات شركتي وهو المحامي ميشيل غرينيه ولا زلت أتعاون معه في هذه القضايا منذ ثلاثين سنة.

-: بخصوص الضرائب، لقد صرّحت منذ فترة قصيرة قائلاً: «أعمل بلا انقطاع لأدفع الضرائب، وقد حصرت أعمالي في نظام القروض لأني لا أفقه شيئاً في عالم المال. إن أجوري مرتفعة، ولهذا ضرائبي مرتفعة.... ينبغي علي أن أعمل كثيراً لأسدد الضرائب، لا أتمنى أن تكون أجوري مرتفعة أكثر».

-: هذا هو نظام اللعبة. تكسب كثيراً إذن تدفع كثيراً. وكلما دفعت أكثر كان عليك أن تكسب أكثر كي تتحمل تبعات ذلك. ولكن بصراحة من غير اللائق أن أتذمر. فبقدر ما أكسب، عليّ أن أدفع ضرائب كبيرة. الجميع يرى إجحافاً في ضرائبه، ولكن هذه هي الحياة. شخصياً كنت أدرك بالفطرة أن جزءاً من أرباحي سيعود إلى الدولة، وهذا حقها، ويجب إعادة توزيعه. أنا مع التقسيم وإعادة توزيع الثروات، ومع هذا لست من ذلك الطراز من البشر الذين يكنزون المال. حتى ولو كنت عقلانياً ومن أصحاب الذوق النخبوي، فمهنتي هذه تفرض عليّ إتباع نسق ما في الحياة.

-: لا تعرف أجرك عن أي فيلم من أفلامك، ولا تعرف شيئاً عن حسابك المصرفي، فهل يا ترى تعرف، على الأقل، مجموع ضرائبك السنوية عن مداخيلك؟

-: أخضع لضريبة الثروة، وعليه يجب أن تكون نسبة ضرائبي بما يقارب ٥٥% أو ٥٦% من مجموع أرباحي. عموماً أنا أدفع على شكل ضرائب سنوية بما يعادل ٢.٣مليون يورو سنوياً. وهكذا يا صديقي وكما ترى، لا أخفي عنك أي شيء. وربما للمرة الأولى، في السنة الماضية، لم يكن لدي من السيولة النقدية ما يكفي لتسديد ضرائبي، لهذا طلبت سجل المستحقات في مقابل الرأسمال الأساسي لتأجيل موعد استحقاق الثلث الثالث من الضريبة، وبعدها في الشهر التالي توجب أن أدفع ما يقارب الستمائة ألف يورو.

-: أعترف بأني لم أكن أنتظر منك جواباً بهذه الصراحة....

-: أخبرتك منذ البداية بأني سأجيب على جميع أسئلتك، وها أنا أفي بوعدي. ثم أني لا اخجل من دفع الضرائب المرتفعة بل أقول إني فخور بذلك. أجني الكثير من المال ولهذا يترتب علي دفع ضرائب مرتفعة، هذا منطقي وعادي جداً.

-: اختار بعضهم، منذ فترة طويلة، العيش في بعض الدول حيث الضرائب أكثر رحمة. ألم تراودك قط فكرة الانتقال للعيش في سويسرا أو في أي جهة ضرائبية أخرى؟

-: وهنا أيضاً أريد أن أكون صريحاً معك. نعم، فكرت سابقاً في الهجرة إلى سويسرا. ليس لضرائبها المعقولة، ولكن لأعيش في هدوء. لأهرب من الضغط الإعلامي، والذي تسبب، سابقاً، بالكثير من الأخطاء في حق عائلتي وحياتي الخاصة، كذلك لألحق ببعض أصدقائي الذين اختاروا الإقامة هناك منذ فترة ليست قصيرة. وكنت طلبت، منذ سنة ونصف، من مصلحة الضرائب السويسرية أن يقدموا لي قائمة بحسابي الضريبي، فجاء المبلغ مرتفع جداً، ومع هذا فكرت في الأمر مرتين، وبعدها قلت لنفسي إن الأمر معقد جداً، ولكوني، خاصةً، مواطناً فرنسياً لذا يتوجب علي تسديد ضرائبي لفرنسا. في الواقع، أنا هنا، في أحسن حال ومن دون شك، أفضل من أي مكان آخر. أحببت أن يعرف الجميع، ببساطة، أني حين أقبض أجراً مرتفعاً عن فيلم ما، أسارع لدفع جميع مستحقاتي من الضرائب ومن واجبات اجتماعية ومن أقساط البطالة. وهذه الأجور المرتفعة التي تتحدث عنها الصحف، لا تدخل إلى جيبي مباشرة، وحين يتم ذكر هذا الأمر، يداخلني الشعور أني مميز وأني أجني الكثير من المال، ولكني لا أخجل أبداً من هذا.

-: في هذا الخصوص، تابعت ولا شك السجال الذي دار حول الممثلين الذين يتناوبون على الأدوار. ففي شهر أيلول ٢٠٠٣ اقتحم وفد من هؤلاء المناوبين فندقك في شارع شيرس ميدي في باريس للاحتجاج ضد مشروع الحكومة. ومن بين الهفوات العديدة التي ارتكبت، قيل إن بعض الممثلين من أصحاب الأجور المرتفعة كانوا يتابعون قبض عمولة بين فيلمين. هل كانت هذه حالك؟

-: أبداً على الإطلاق! هذا عمل لا يمت إلى الأخلاق بصلة، ثم إن هذا لا يحدث معي، لأني منشغل طوال الوقت. في نيسان كنت أصوّر فيلماً في باريس بعنوان (٣٦) ومن أيار إلى منتصف حزيران كنت أصوّر فيلم (الأزمنة المتغيرة les temps qui changent) في مراكش مع أندريه تيشينييه، ثم عدت إلى باريس لمدة أربعة أيام لأداء لأُؤدي في شاتليه ولأنهي بعض الدوبلاج في فيلم كندي، ثم توجهت إلى إيكس أون بروفانس، لأؤدي دوري في فيلم (بودي الناجي من المياه Boudu sauve des eaux) لجيرار جونيو، وبعد عودتي في نهاية آب، بدأت التدريب على مسرحية لهنري جيمس مع فاني آردان. لم أتوقف عن العمل، فكيف تريدني أن أقبض عمولات عن بعض المشاهد؟ أما فيما يتعلق بمشكلة الممثلين المناوبين على الأدوار، فحتى لو لم أولِ تلك المشكلة الاهتمام الكافي ولم أدلِ بأي تعليق، فأنا متضامن مع قضيتهم بشكل تلقائي.

-: لم تكن السينما مصدراً وحيداً لدخلك، لأنك، ومنذ سنوات، اقتحمت الميادين التالية: صناعة النبيذ، استخراج البترول، استثمار المطاعم.... ما الهدف من هذه المشاريع جميعاً؟ هل لكسب المزيد من المال؟

-: لا، ليس لكسب المزيد من المال. لكني مع الاستثمار بذكاء. ما يهمني في «عالم الأعمال»، كما تصفه، ليس الربح بل هي المغامرة وسعادة لقاء العقول الجديدة، واكتشاف آفاق جديدة والتعرف على كل شيء.... لو كان هدفي الأوحد مراكمة الأموال، لاستثمرت كل ما أكسبه في البورصة. أنا إنسان قروي: أؤمن بالحجر والأرض. وحين يتوافر لدي المزيد من المال أشتري شققاً أو مزارع للكروم. وأعرف تماماً أن آخرين سيصدمون حين يروني برفقة جيرار بورغوان في كوبا ونحن نبحث في موضوع البحث عن النفط. وفي الحقيقة لقد وجه إليّ الكثير من الناس اللوم على هذا الأمر، تماماً كما فعلوا، سابقاً، مع غابان عند شرائه أراضي زراعية في النورماندي. وفي الواقع، أظنني ضحية لشهوة الحياة في داخلي. إن القاسم المشترك في كل أعمالي، خارج السينما، هو الأرض وما تنتجه من: نبيذ وبترول.... إنها القيم نفسها وأسلوب الحياة نفسه القائل: «كل جيداً، اشرب جيداً، عش جيداً، احترم الطبيعة والأرض وما تحتها....» إضافة إلى كل ما ذكرت، وراء كل مغامرة من هذه المغامرات قصة من قصص الصداقة....

-: بصراحة أنت تشارك في أعمال متنوعة، لكنك لست رجل أعمال....

-: في الواقع، يمكنك أن تقول هذا. أنا لست رجل أعمال. أنا إنسان وديع يعشق الحياة وفي الحقيقة يمكنني أن أصف نفسي كرجل أعمال فاشل جداً. لا أملك من الصبر ما يكفي، ورجل الأعمال، الحقيقي، يجب أن يتحلى بالصبر كصياد السمك بالسنّارة، يلقي بسنّارته إلى الماء وينتظر في هدوء إلى أن تبتلع السمكة الطعم.... أنا رجل عجول جداً، أطحن طحيني بسرعة فائقة، كما كان يجري في بعض أماكن التصوير، حين كان يتملكني شعور بأني قادر على إنهاء عملي بسرعة أكبر، وأمقت أن يضيع المرء وقته. في المقابل، أجدني ناجحاً في بعض الأعمال. فأنا، مثلاً، أعرف كيف أفيد من حماسي وكيف أستثمر شهرتي ولباقتي في تسريع بعض الملفات، وفي الاهتمام بعلاقاتي العامة وفي التسويق.... أنا في الحقيقة سمسار في السينما وفي كل شيء! هكذا كنت منذ طفولتي. وفي المقابل، لا أقدم على شيء يتعارض وطبيعتي. أحب الناس وأعشق الحياة، وأحب أن أرى أموالي في الاستثمار، ولا أحب، مثلاً، فكرة كسب النقود من دون عناء تأكيداً لقول فرنسوا ميتران. يبدأ المال في اكتساب قيمته، حسبما أرى، حين يتحول إلى شيء محسوس وصلب: كالحجر والأرض والمطعم.....

-: بالنسبة إليك، ترى أنه من غير المعقول استثمار أموالك في البورصة أو في شراء أسهم....

-: منطقياً يمكنني اللجوء إلى التأمين على الحياة، لكني لم أعتد شراء الأسهم أو المستندات المالية. جميع استثماراتي هي قبل كل شيء بإرادتي. فأنا لم أسع لشراء قصر تينييه في آنجو سوى من أجل الخمسة والعشرين هكتاراً من الكرمة المحيطة به، وشيئاً فشيئاً توسعت أملاكي وقمت بشراء أراضي أخرى. الأرض تعمل وتنتج، لكن تظل البورصة شيئاً غير ملموس بالكامل. ولهذا قررت ذات يوم بيع جميع أسهمي، منطلقاً نحو مغامرة جديدة في البترول الكوبي. يمكن أن تكسب الكثير الكثير من البورصة، لكن يمكن أن تخسر كل ما جنيته في لحظة ما. أما فيما يخص البناء ومزارع الكرمة تكون الأشياء أكثر ثباتاً وديمومة.

-: تقول إنك لست من رجال العمال، ولكن في المقابل، الكثير من أصدقائك والمقربين إليك هم من رجال الأعمال، ويصفهم البعض بـ «التجار» الحقيقيين.....

-: هؤلاء الأصدقاء، رجال الأعمال، الذين تتحدث عنهم، هم قبل كل شيء من عشاق المغامرات، وشخصياتهم شبيهة بشخصيات شكسبير. وأكثر ما يجذبني إليهم هو أنهم كالحيوانات ذوي الدم البارد، وأنا على النقيض منهم تماماً. وهكذا، مثلاً، لا يمكن اعتبار بيرنار تابي رجل أعمال بل هو بهلوان مشعوذ.

-: ثمة قاسم مشترك بينك وبين أصدقائك، رجال الأعمال، هو أنكم جميعاً بدأتم من نقطة الصفر لتتحولوا بعد ذلك إلى ذوي الثراء الفاحش.

-: روجيه زانييه وميشيل ريبييه وجيرار بورغوان، هؤلاء المغامرون الثلاثة، صنعوا مجدهم، بكدهم، وجهدهم وليس بأي شيء آخر، وكما يقال هم رجال عصاميون self-made men. ونحن نشبه بعض إلى حد ما. وفرنسوا بينول هو من صنّف هؤلاء من أرباب العمل. ثم من جهة أخرى، أنا على يقين بان جميع هؤلاء الصناعيين الكبار ذوي الثراء الفاحش سوف يتوجهون في استثماراتهم إلى الأعمال التي تعنى بالفن أو الأشياء المطلقة، فقد أقام بينول مجموعات فنية نادرة، وأعترف بأني أجده في هذا غير لائق، ولكن منذ اللحظة الأولى، حين قرر بناء متحف كبير للفن المعاصر حيث يتاح للجمهور العريض أن يأتي ويشاهد هذه المجموعات الفريدة بتواقيع أصحابها، هنا في هذه اللحظة سأرفع قبعتي وأهتف له مهنأً: «أحييك ثم أحييك».

-: أود لو نتحدث قليلاً عن أملاكك في تينييه: هل اخترت آنجو كإشباع لرغبتك في النبيذ؟

-: هذه قصة شغف بمذاق النبيذ والكروم المحلية. اخترت تينييه، ببساطة، لأني أحب كثيراً كروم كابيرنيه سوفينيون وهي كروم غير مطعمة، إنها كروم نموذجية حتماً وهي التي تكسب النبيذ صفة الديمومة وذلك الطابع الريفي في آن معاً. فضلاً عن ذلك الشينونيه le chinonais في جانب الرابلي من آنجو ومذاق آنجيفين يتناسبان مع طبيعتي تماماً. وعلى النقيض من العقلية البوردلية، أنا شخصياً أحب الميزة الفلاحية للخمر، ولا أحب برجزة الخمر.

-: من ساعدك في اكتشاف قصر تينييه؟

-: اكتشفت هذا القصر خلال إحدى جولاتي الفنية مع باربارا، وكنت زرت، سابقاً، قصر غينيو نيير حيث تذوقت الخمر الريفي الرائع. نبيذ آنجو الحلو مقطر ١٠٠% من كروم شوم وهي التي تنتج النبيذ الأبيض ذا المذاق الوسط بين الحلو والمز من ماركة بونزو Bonnezeaux أو من تلال لايون في آنجو أو فوفري ومون لوي في التورين. وفي الواقع فإن صديقي جان جاري وهو أحد مُخَزّني الخمور في بوجيفال وصاحب خبرة طويلة في الخمور وصديق حميم لجان كارميه، هو من دفعني إلى حب تلك المنطقة واكتشاف كرومها ومذاق نبيذها المحلي وكرمتها. كان بإمكانه التعرف إلى نوع الكرمة من أوراقها. اصطحبني معه في الخريف إلى مزارع الكرمة لأرى عملية التشذيب..... لقد علّمني كل شيء.

-: والآن أصبح القصر ومزارع الكرمة من ممتلكاتك؟

-: نعم. في الواقع كلفني هذا الأمر ثروة كبيرة. كان ثمن القصر مضافاً إليه الخمسة والعشرين هكتاراً من الكرمة، مليوني فرنك، وربما أكثر قليلاً لأن القصر كان مهجوراً. توجب إصلاح السقف ومواسير المياه والكهرباء، ولا سيما أيضاً بعد شرائي للكروم المحيطة بالقصر، وقد كلفني استثمار أقبية الخمور ما يقارب الخمسة عشر مليون فرنك، واليوم أملك في تينييه مائة هكتار من الكرمة، إضافة إلى القصر وغابة جميلة. وإذا حسبنا الإنتاج بواقع مائة ليتر للهكتار الواحد فإن مجموع إنتاج هذه الأرض يبلغ خمسمائة ألف ليتر من النبيذ في العام أي ما يعادل سبعمائة ألف زجاجة. يشرف على الأرض دومينيك بوللو وعائلته، ولا أدفع أي أجر باسمي الشخصي. يبلغ مجموع مبيعاتي حوالي خمسة عشر مليون فرنك (حوالي ٢.٣مليون يورو). وهذه الأرباح جميعها يعاد ضخها كاستثمار منتظم في هذا المجال.

-: قرأت أنك تبيع الخمور في إطار توزيع واسع إلى جهات مختلفة، وأنك تنتج كل سنة ما يقارب مائة ألف زجاجة من الخمر، وهذا الرقم غير معلن. علمت أيضاً، أن رَجُلَيْ دين يهود (حاخامان)، كانا يحضران دائماً إلى قصر تينييه لمراقبة كل ذلك...

-: كلا، لقد انتهى هذا كله. فعلاً كنا نبيع إنتاجنا من النبيذ إلى إسرائيل، وفي حوانيت سرية عبر العالم، وخاصة في الولايات المتحدة، مع ذلك لا زال لدينا مخزون لا بأس به من أدنان الخمرة.... لكننا توقفنا منذ ثلاث سنوات، لأن التعامل مع إسرائيل أصبح صعباً للغاية. وفعلاً كان يزورنا، لمدة عامين، اثنان من الحاخامات، أحدهما شاب والآخر كبير في السن، إلى القصر للاطمئنان على نوعية الإنتاج، وكنت مولعاً بالنقاش معهما في المسائل اللاهوتية. لم تكن لهما النظرة ذاتها إلى الدين، نظراً لاختلاف السن بينهما، لكن لم يصل بهما الأمر إلى حد الصدام. وفعلاً تابعت بيع النبيذ، عند مفارق الطرق بمعدل مائة وخمسين ألف زجاجة في العام، كذلك كنت أبيع النبيذ إلى مخازن شامبيون، ومنذ عدة سنوات كنا نصدّر النبيذ إلى روسيا، لكننا توقفنا ووجدنا بديلاً لها في إيطاليا، وسوف أستمر في تصدير النبيذ إلى الولايات المتحدة.

-: وأملاكك في تينييه ليست هي النشاط الوحيد لك في مجال الكرمة....

-: طبعاً، هذا صحيح، فقد شاركت بيرنار ماغريز ملكية قصر باب كليمان، واستثمرنا معاً مزارع الكرمة في آنيان في الأود وفي مكناس بالمغرب وفي تلمسان بالجزائر. لم تكن المزارع في المغرب والجزائر ملكاً لنا بل كانت مؤجرة. يتركز عملنا، نحن الاثنين، في استثمار قطع صغيرة من الأرض بمساحة ثلاثة إلى أربعة هكتارات، حيث نقيم أقبية للخمور ولوازمها الخاصة، كزجاجات النبيذ الصغيرة. وماركة النبيذ في مكناس «نور الأطلس»، وفي تلمسان أي في مسقط رأس سانت أوغسطين، وأدنانها الشهيرة، يطلق على نبيذها اسم «مونيكا» (على اسم والدة القديس أوغسطين)، حيث يتم توريقه وجمعه باليد. كذلك هناك ماركة «الثقة»، وماركة «الجودة المميزة»..... وهناك تصنيف في دليل باركر لنبيذ بورديليه ولانغيدوك وهيروك. في الحقيقة أصبح النبيذ عشقي الحقيقي، ولا أسعى لإنتاج كمية كبيرة من النبيذ البلدي كما فعل جان كارميه، بل أفضّل نبيذ العطش، النبيذ البسيط، القريب من الأرض.... الخمور الشائعة. وقد بلغ بي الشغف بعالم الكرمة إلى درجة أني سأقوم، قريباً، بدور بطل من الماضي، لصالح التلفزيون. وهو مسلسل سوف أشارك في إنتاجه مع G M T وآرنو لاغاردير.

ويحكي المسلسل قصة بطل، وللمرة الأولى لن يكون شرطياً ولا طبيباً ولكنه خبير بأنواع النبيذ، وفي كل حلقة يكتشف الخبير لغزاً بوليسياً جديداً، ويصبح مثل تحري خاص عليه أن يجد حلاً لكل المشاكل بفضل فطنته النادرة.

-: إذن سيكون مسلسلاً مثيراً، لكن على أي قنال سيعرض؟

-: لم يتم تسويقه بعد. يتم الآن استكمال التحضير للحبكات والدسائس، ثم يبدأ تصوير الحلقة الأولى، لكن بالفعل شخصية البطل شخصية آسرة، هو عاشق للنبيذ وهذا يمنحه الموهبة والخبرة لخدمة الحقيقة.

-: بمناسبة الحديث عن القصص الخيالية، يبدو أنك ستشتري حقوق كتاب J2 M.com للكاتب جان ماري ميسييه، لإخراجه في فيلم سينمائي..... هل هذا صحيح؟

-: أجل، أجل صحيح. إن مسيرة الكاتب ميسييه تذكرني بمسرحية بيتر هندكه (المغفلون في طريقهم للفناء)، وقد عثرت على هذا النموذج المذهل: يقرر فجأة شراء أرض مزروعة، يتحقق من وجود الماء عن طريق فيفاندي وهو مراقب عام سابق للمياه، ثم يقرر على الطريقة الأميركية، أن يغزو الفضاء بالأقمار الصناعية وشبكة الاتصالات ليصبح بعدها، الرائد رقم واحد في البرامج الترفيهية.... هذا جنون العظمة المطلق! إنه يشبه على نحو ما شخصيات شكسبير، وهو من الوجهة الإنسانية مثير للاهتمام. لكني تخليت عن فكرة تحويل القصة إلى فيلم حين تأكد لي بأن أحداً غيري لا يهتم بذلك.

-: بمناسبة الحديث عن شخصيات شكسبير، هل تحدثني قليلاً عن شركتك مع جيرار بورغوان وعن هذه المغامرة بخصوص التنقيب عن البترول في كوبا؟ وبالمناسبة ما الذي دفعك إلى هذا العمل الشاق؟

-: كان جيرار بورغوان صديقاً، وظل صديقاً بالرغم من جميع مشاكله القضائية. أحب فيه طبعه الحاد، وإدراكه لمغزى المغامرة الإنسانية، واندفاعه نحو المخاطر. أما قصة البترول في كوبا فهي بالدرجة الأولى تجسيد للصداقة بيننا ولهذه المغامرة الإنسانية المشوقة، وقد كان لتلك المغامرة قدر من المساهمة في تحرري على نحو ما. كنت فيما سبق أستثمر من حسابي المصرفي، على قدر حصتي في شركة د.د. للإنتاج، ولكن في العام ١٩٩٦ وضعت جميع مدخراتي في الاستثمار ولا يمكنني الآن تحديد كم كان ذلك المال المستثمر. منذ ذلك الحين، كنت أعمل كوسيط يعمل على إقناع الناس باستثمار غير مضمون، اعتماداً على دراساتنا الهزيلة. ولقد جرى الاتفاق مع الحكومة الكوبية، أن تحصل شركتنا، بيير كان، على كل ما يتوافر في باطن الأرض على عمق أربعمائة متر....

-: ولكن فشلت الشركة خلال ثلاث سنوات ولم تعثر على النفط....

-: استمرت الحالة هكذا إلى ١٢ شباط ١٩٩٩، حيث عثرنا، فجأة على بئر من النفط. أعتقد أن معدل إنتاجنا اليومي من النفط حالياً يبلغ أربعة عشر برميلاً، لكن كل مبيعاتنا من النفط يعاد استثمارها من جديد. الأبحاث الزلزالية مكلفة جداً، لأن كل حفرة تكلف ثروة من المال، من دون ضمان بالعثور على البترول. أي بعبارة أخرى لست حريصاً على الربح من استثمار كهذا. ولا أهمية لذلك لأن ما يعنيني بالدرجة الأولى هو وجودي برفقة مغامرين أفذاذ من هذا الطراز. البترول مادة سحرية، تفحص بالمجهر عينة صخرية، تثقب، تنقب، وتحفر لعمق

أربعة آلاف متر..... إنه عالم آخر. ذهبت إلى كاليغاري، حيث كانت الحرارة خمس درجات، لرؤية الناس يجهزون معدات الحفر.... إنه عالم غريب حيث أصغر برغي يعادل دولاب سيارة. علمنا بوجود البترول في خليج المكسيك، على الشاطئ وبعيداً عنه ولكن أين؟ شيء غامض. شركات النفط هي شركات مغامرة، كمناجم الذهب ومناجم الألماس. تحفر وتنقب من دون أية ضمانة بالعثور على شيء ما، وهذا أجمل ما في الأمر.

-: إن ما تسميه معدات الحفر، هو في الواقع بئر للتنقيب....

-: أجل إنه بئر للتنقيب وهيكل فوق البئر..... في البداية لم تكن لدينا تلك المعدات، ذهبت مع جيرار وبقية الشركاء لإحضارها من أقاصي الأمازون، عندها تدرك أن عملية البحث عن البترول هي قبل كل شيء مغامرة، بكل ما للكلمة من معنى. اشترينا المعدات ولكن بعد وصولنا إلى المواقع اكتشفنا أنه قد بيعت مرتين، لنا ولبعض الأميركيين، كنا خمسة شركاء مقابل أميركي واحد..... وفي النهاية كسبنا الصفقة!

-: ألم تجد أية ممانعة، في أية لحظة، من النظام الكوبي، في القيام في مغامرة كهذه....

-: بالطبع، تم استجوابي. أعلم أنه جرى في كوبا، خلال السبعينيات، أشياء مروعة كوضع البعض في سجن انفرادي لممارستهم الشذوذ الجنسي. لكني أعلم أيضاً أن الحكومة الفرنسية تهتم بالنفط الكوبي عبر مجموعة E L F، وقد ألغي برنامج الأبحاث النفطية بعد وفاة بيير بيريغوفوا. زار الموقع ميشيل شاراس برفقة جيرار بورغوان وابنه الذي كان يعمل في تجارة الدجاج في كوبا، وابن جيرار هذا كان صديقاً لفيدل كاسترو. وحين قررت الحكومة الفرنسية متابعة أبحاثها، قال جيرار في نفسه: «رغم أن مجموعة E L F لم تحضر، سأقيم جولة من المحادثات مع أصدقائي». جان كارميه تحدث بشأني مع جيرار بورغوان، فطلب هذا الأخير مقابلتي، وهكذا تم كل شيء بيننا....

-: سؤالي محدد: هل أصابك شيء من التردد بسبب طبيعة نظام كاسترو....

-: كلا، وأنا أصدقك القول. لكن هذه هي طبيعتي في اتخاذ القرار. أحاول أن لا أطرح الكثير من الأسئلة على نفسي، ولا أدري قد يكون هذا أحد عيوبي، أو إحدى الحسنات، لا أدري، لكن هكذا أنا. بل يمكن أن أطرح بعض الأسئلة على نفسي أحياناً، لكنها تظل أسئلة بلا أجوبة. قبل سقوط جدار برلين، وقبل أن تبدأ مسيرة التحرر في دول المنظومة السوفيتية، اقترح عليّ البعض، المشاركة في مهرجان موسكو للترويج لأحد الأفلام، كان بإمكاني رفض هذه الزيارة كمناهض للنظام الشيوعي، لكني قلت في نفسي: «ولكن ما ذنب المشاهد الروسي؟»، كانت تلك حقبة البيروسترويكا. وكان يدير المهرجان روبرت دونيرو... مارسيلو ماسترويواني كان حاضراً.... وأخيراً قررت المشاركة في المهرجان. قابلت ميخائيل غورباتشوف، وأحسست حينها برياح الحرية وقد بدأت ترفرف على الشرق.... لم أندم على هذه المشاركة. هكذا كان الحال في كوبا. وحين ترى هافانا في نهاية التسعينيات سترى أنها غير هافانا في السبعينيات. لقد تبدل نمط الحياة بشكل ملحوظ وأصبح النظام السياسي أكثر مرونة....(فِيدِلْ) نفسه تغير. باختصار وافقت على مقابلة هذا الرجل الذي جعل الكثيرين يحلمون، وقيلت فيه أقاويل كثيرة عن أحداث مروعة، ويمكن أن أقول لك، إنه هو الآخر يشبه إلى حد ما، أحد غيلان شكسبير. في الواقع إنه في لقائنا الأول، أذكر أني عرضت عليه طريقة إعداد وجبة مفرومة الأرانب (ينفجر ضاحكاً).

وأذكر أنه قال لي: «ولكن جيرار، ما هو سر وجبة مفرومة الأرانب هذه؟»، أجبته: يتعلق الأمر بنوع الأرنب، يا (فِيدِل).... حسب نوع الأرنب. ثم تابعنا حديثنا السوريالي. كان يعرف كل شيء عني، عن مهنتي، عن أفلامي. وكان يشكرنا باستمرار وخاصة أن زيارتنا له تختلف عن أولئك الباحثين عن الذهب في الغرب الأميركي.

-: هل توفر لديك الوقت لترى الوجه الآخر للمشهد الكوبي؟

-: تنزهت قليلاً في الجزيرة وزرت بعض المشافي والمدارس، ولا أعني أنني استطعت أن أخترق حجب الوجه الآخر للمشهد الكوبي، لكني، مع ذلك، استطعت التحقق إلى أي درجة تبدلت الأشياء منذ عشرين عاماً. الطبابة متاحة للجميع، ٩٨% من الشعب يتقن القراءة. وأذكر في أول حديث لي مع كاسترو أني كنت مندهشاً لعدم وجود وسيلة نقل عامة لديهم، والآن تحسنت الأمور وأصبح لديهم باصات عامة. وأعلم تماماً أن ليس كل شيء لديهم على أفضل حال، ولكن أبعد من ذلك، يمكن القول إن شروط حياتهم تطورت بشكل جيد. وقد تزامن وجودي في كوبا، مع ضرب كاسترو للناقلة المنطلقة من فلوريدا، من فوق سفينة عليها بعض الكوبيين من ميامي، وكانت ترمي المنشورات السياسية فوق هافانا. قال لي: «ليس لي أن أختار، ولا أقدر على اعتراضها بطائراتنا المطاردة»، وأضاف: «لو فعلت هذا فوق الأراضي الأميركية، لأسقطوني أيضاً».... أكذب لو قلت أن كوبا أصبحت أنموذجاً للديمقراطية والليبرالية، لكني متأكد من أن هناك دولاً أخرى، في هذا العالم، أكثر سوءاً منها. في المقابل، ألمحت (فِيديل) أن يبني في هافانا نوعاً من Villa Medicis في جزر الكاريبي كنوع من العمل على إخراج كوبا من عزلتها الثقافية. طالبته بتشجيع الموسيقى والشعر الكوبيين، والتعريف بخوسيه مارتي في أوروبا.... إنه مشروع جميل، أليس كذلك؟ لكن لسوء الحظ لن يرى هذا المشروع النور أبداً. ورغم كل ذلك، أقام الكوبيون مهرجاناً للأفلام العالمية، وقد حلّ الأميركيون ضيوفاً على المهرجان. وتأكد لي، بكثير من الدهشة، ورغم الحظر، أن هناك تواجداً كبيراً لرجال الأعمال الأميركيين في كوبا ولاسيما عبر الشركات الكندية. وفي كوبا أيضاً هناك مكسيكيون وإسبان وإيطاليون يمارسون هواية المغامرة، وحتى إن جنرالات أميركيين يحضرون إلى هنا للمشاركة في حفلات صيد السمك.... أعتقد أن ثمة نفاقاً كبيراً بين الأميركيين والكوبيين.... بمعنى آخر، أنا مدرك بأن ليس كل شيء في كوبا على ما يرام.

-: وفي أثناء عملك مع فلاديمير ميسيار، ألم تطرح أيضاً على نفسك الكثير من الأسئلة. حين سافرت في ٢٠ أيلول ١٩٩٨ إلى سلوفاكيا، برفقة عارضة الأزياء العالمية كلوديا شيفر مع نجوم سينما آخرين، لدعم رئيس الوزراء السلوفاكي السابق. لماذا قبلت هذا الصغار وأنت إلى جانب هذا الزعيم الشعبي؟ هل لطلب المزيد من المال؟

-: إن فلاديمير ميسيار هذا، هو أسوأ من زعيم شعبي، إنه فاشي، ونسخة أخرى عن لوبين le pen. والمشكلة أني لم أدرك الأمر إلاّ مؤخراً. إن قضية ميسيار هي قضية حقارة كبيرة، وكم ندمت على هذا الأمر. وكان قد أقنعني بالسفر إلى هناك وسيط فرنسي، فقلت في نفسي؛ سأذهب لمقابلة مزارعي الكرمة السلوفاك، سأحاول بيعهم النبيذ كما فعلت في هنغاريا، وفي كل الدول التي زرتها. ولكن حتى مزارعي الكرمة الذين قابلتهم كانوا ينتمون إلى الحزب القومي. إنه كابوس حقيقي، لم أشعر بالراحة أبداً، ولكن لسوء الحظ كان قد فات الوقت

للعودة إلى بلدي. ولكني أقول لك إن هذه الزيارة قدمت لي الدرس التالي: أنه يجب ألاّ أشارك أبداً في مثل هذا النوع من السيرك....ولم أكن لوحدي في هذا الشرك، كان معي أيضاً كلوديا شيفر وكلود براسور....

-: ولكن أؤكد على السؤال: هل قبضت شيئاً من المال للذهاب ودعم ميسيار؟

-: أجل، قبضت بعض المال. ومع ذلك صرّحت عما قبضته إلى مصلحة الضرائب، غير أني أشددّ بأنها كانت خطيئة خطيرة وأنا نادم عليها أشد الندم، ولن تتكرر ثانية. أعترف بأني لم أكن أعرف ميسيار، وقبل سفري إلى سلوفاكيا كنت اتصلت بجاك أتالي لمعرفة رأيه في هذه الرحلة، أجابني قائلاً: «ليست هناك أية مشكلة، لأن ميسيار هو رجل سياسة ديمقراطي، ويشارك في الانتخابات في بلده بطريقة ديمقراطية فريدة»، لكنه لم يشرح بما فيه الكفاية عن الأفكار التي يناضل من أجلها ميسيار. أكرر القول إني كنت مخطئاً، لكن يمكن القول إن هذا الخطأ كان درساً أبدياً لي!

-: ثمة صديق آخر لك لم ينجُ من نقدك، أعني عبد المؤمن خليفة.

-: آه، عبد المؤمن هذا أمره مختلف. عبد المؤمن كان صديقاً لي ولا يزال حتى اليوم، وليس من عادتي أن أتخلى عن الأصدقاء عند الشدائد. أعرف كل ما قيل وما كتب عنه. قيل إنه كان يعمل برشاوي من ضباط جزائريين، هل لديك أي شك في عدم معرفتي التامة بهذا الأمر. أفترض أن وراء هذه القصة بالضرورة رهانات سياسية أجهلها. ربما في لحظة ما، ولسبب أجهله، قرر عبد المؤمن إيقاف اللعبة مع الحكومة الجزائرية. لكن عليك ألاّ تلح بطلب المزيد حول هذا الموضوع، لأني لا أعرف شيئاً على الإطلاق، كل ما أعرفه أنه بدأ يغرق في شرب الفودكا وأن الخمرة أتلفت عقله.

-: كيف تعرفت به؟

-: كان قد دعاني لزيارة الجزائر، لحضور مباراة كرة القدم بين الفريق الوطني الجزائري ونادي الأولمبيك في مارسيليا، وكان يقدم فيها ألبسة الرياضيين بالمجان. وعلى المنصة الرئاسية، وجدتني إلى جانب جاك شانسيل وكاترين دونوف وعبد العزيز بوتفليقة رئيس جمهورية الجزائر... نهض بوتفليقة واتجه نحوي وأخذني بين ذراعيه هامساً في أذني: «شكراً لمجيئك يا جيرار، أنا معجب بكل أعمالك....» كان الجو طيباً جداً، ولاسيما بعد خسارة المباراة بين فرنسا والجزائر في باريس حيث اقتحم الجمهور أرض الملعب قبل انتهاء المباراة. وكانت تلك هي المرة الأولى أيضاً التي ألتقي فيها برئيس الوزراء (علي بن فليس)، وفي أثناء المباراة، كنت جالساً إلى جانبه، وكنا نتبادل أشعار مسرحية phedre وأندروماك Andromaque، وكان يحفظ راسين عن ظهر قلب. باختصار أمضيت ليلة مميزة، ومنذ ذلك الحين بقيت وفياً لعبد المؤمن خليفة. ثم وافقت على طلبه في المشاركة في حفلات ساهرة، وكرد للجميل قمت بمساعٍ حميدة مع الحكومتين الفرنسية والكندية للسماح له بافتتاح خطوط جوية جديدة، ولكن من دون أن يدخل جيبي فلس واحد، لا شك في أنك تفهمني: ولا فلس واحد. وأعرف أن عبد المؤمن كان يغدق الرشاوي لمن حوله، لكني شخصياً لم أقبض منه أي مبلغ....

-: هكذا من دون أي مقابل مادي؟

-: أكرر القول، تدخلت إلى جانب عبد المؤمن لدى جان كلود غيسو الشيوعي وكان حينها وزيراً للنقل، وكنت أعرفه جيداً. كذلك تدخلت لدى الحكومة الكندية لمساعدته في افتتاح خطوط جوية جديدة بين الجزائر العاصمة وباريس، وبين الجزائر العاصمة وتورنتو ومونتريال، حتى إني حاولت أن أنشئ له فروعاً في واشنطن، وكنت في كل هذا أقوم بدور «مدام كلود» كعادتي ولكن بلا مقابل. لم أقبض أي شيء ولا سنتيم، سواء لحضوري تلك المباراة في الجزائر أو للخدمات التي أقدمها مجاناً. جميع ما قمت به كان باسم الصداقة. ومما لا شك فيه لو كان أحد سواي وقام بالمساعي ذاتها وفي ظروف مماثلة لكان من دون شك، قبض عمولة على ذلك، أما أنا فلم أقبض أي مبلغ. ولأسباب أجهلها، أعتقد بأن الحكومة الجزائرية لم تثق فيه. وأنا شخصياً منحته ثقتي ولا أملك استردادها منه.

-: ومع ذلك ترك آلاف المدخرين يقعون في ذات الخانة، العشرات من الذين يتقاضون أجورهم من دون عمل، وهو مطلوب إلى القضاء...

-: أنا أعلم كل الذي ذكرته، ولكن لا أجد فيما ذكرته أي سبب يدعوني للتخلي عنه. وأنا لم أعد أراه لكن أعلم أنه في لندن، وقد هاتفني منذ فترة قصيرة. ومن وقت لآخر أتكلم مع عمته، ولكن لا أعرف كيف ألتقي به. ومن جهة أخرى، يجب أن أسافر إلى الجزائر لمقابلة عبد العزيز بوتفليقة، لأنسق معه بعض الأمور بخصوص كرومنا في تلمسان، و(خليفة) أيضاً كانت له أسهم في هذه الكروم التي كنا قد استأجرناها في الجزائر. (علي بن فليس) هو الذي طلب مني إحضار رجال أعمال إلى الجزائر. قدمت له بيرنار مغريز وروجيه زانييه ثم التقينا نحن الثلاثة بوزير الزراعة، وهكذا قامت مزارع كروم سانت أوغسطين. نقوم اليوم بإنتاج النبيذ في الجزائر، لكن كم أتمنى العمل على إنتاج البندورة المعلبة وعصير البرتقال...

-: أقل ما يقال بشأن خليفة، أنه شوّه صورتك برابطة الصداقة معك....

-: لا أهتم لهذا الأمر!

-: تقول إنك لا تهتم بهذا الأمر، ولكن رئيس الجمهورية جاك شيراك كان يعد لزيارة رسمية إلى الجزائر في آذار ٢٠٠٣ وكنت في عداد الوفد، لكنك لم تذهب مع الوفد الرسمي، وقد علّق بعضهم أن الأليزيه شطب اسمك من قائمة الوفد الزائر، لصداقتك القوية مع خليفة وزعم آخرون أنك لم ترغب في المشاركة مع الوفد كي لا تزعج رئيس الجمهورية... ترى ما هي حقيقة الأمر؟

-: كلامك دقيق من حيث أنه كان يتوجب علي المشاركة في تلك الزيارة الرسمية. لقد تعذر علي المشاركة لارتباطي بمواعيد التصوير ولم يكن بالإمكان الاعتذار عنها. لم يشطب أي اسم من القائمة. وقد عبر لي بوتفليقة، شخصياً، عن أسفه لعدم حضوري. أما فيما يخص الرئيس شيراك، فقد كانت علاقتي به مميزة على الدوام. وقد نصحني المقربون من الرئيس بأخذ جانب الحذر من علاقتي بعبد المؤمن، ومن دون تقديم أي سبب دقيق عن السبب. لكني لم أكن في أي وقت متلاعباً. وعموماً أنا لا أشارك في أي نشاط خارج مجال السينما إلاّ إذا كان موضع ثقة وإن استطعت تطوير تلك الأنشطة مع الأصدقاء، ومنها على سبيل المثال شراكتي في نبيذ الجزائر مع بوتفليقة وخليفة، وشراكتي مع جيرار بورغوان في التنقيب عن النفط.

-: وماذا بشأن A.J.Auxerre، أقصد نادي كرة القدم لـ غي رو؟

-: الأمر هو ذاته. فأنا قمت بهذا النشاط لوجود جيرار بورغوان. وكانت مسألة حماس بكل بساطة. أقدّر عالياً الطريقة التي تفكر بها إدارة هذا النادي. إنهم يقومون بالمعجزات بميزانية رمزية إذا قورنت بالأسطوانات الضخمة المحجوزة لبطولة فرنسا. ستون مليون فرنك مبلغ يعادل نصف أو ثلث ما ينفقه النادي الأولمبي في ليون أو نادي P S G. أؤيد بحماس، في هذا العصر المادي، أن نربح المباريات فوق ملاعبنا ضد النوادي البالغة الثراء وفريقها من اللاعبين ذوي الأجور المرتفعة. يدفعني إلى هذا الحماس أصولي الريفية بالتأكيد.... وبعد هذا تسير الأمور سيراً طبيعياً. أحضر أحياناً بعض المباريات المهمة حيث يفوز فيها نادي A.J.Auxerre. في عام ١٩٩٦ تحولت إلى تميمة تجلب الحظ للنادي، ركبت الباص مع اللاعبين ثم لحقت بهم إلى حجرة الثياب في نهاية المباراة. كنت صديقاً مقرباً من بيرنار ديوميد ولوران بلان وليونيل شاربونييه وآخرين، وبعد وخلال المباريات أترك نفسي تنطلق بهتافات النصر.... لقد سعدت بحضور المباريات ومساندة الأصدقاء. وهكذا كان وإليك مغزى القصة كلها: أن تعيش مع أصدقاء تحترمهم، بسعادة بسيطة وفي مغامرات غير مألوفة....

-: وماذا بشأن لعبة الركبي في نادي بوردوبيغل، وهل هي الأخرى سعادة بسيطة في العيش؟

-: أجل، هي الأخرى سعادة في العيش وصداقة. لم أقدم سنتيماً واحداً للنادي باسمي الشخصي، اللهم إلاّ بوقتي وشهرتي. صديقي بيرنار ميغريز كان رئيساً للنادي، وكنت ألمحت لعبد المؤمن خليفة ليصبح راعياً للنادي، كما كان سابقاً في الـ O M. كان عليه أن يسهم بمليوني فرنك في نادي بوردو- بيغل، لكنه لم يفعل، فحل مكانه بيرنار ميغريز عبر شركة وليام بيترز وبيرنار هذا رجل مستقيم ككل رؤساء المشاريع الذين صادقتهم.

-: ثمة قاسم مشترك بين جميع أرباب العمل الذين تعاونت معهم، وهو عدم انتسابهم جميعاً، إلى مؤسسة الأعمال الفرنسية...

-: إنهم يقفون حتى على الضفة الأخرى من أرستقراطية رجال الأعمال الفرنسية. وهم ليسوا مدينين بشيء للدولة، ولم يستأثروا بالطيبات على حساب مصرف الكريدي ليونيه. كانوا عصاميين. بعضهم ارتكب أخطاءاً، مثل جيرار بورغوان، لكنهم على الأقل، وبالتأكيد ليسوا مدينين لأحد. لقد بدأ جيرار يتخبط في أعماله، بعد وفاة ابنه وكان قد أورثه كل شيء.

-: يحدث أحياناً أن تتخذ قراراتك بطريقة حادة، ويتبين بعدها أن قرارات كهذه تساهم في تشويه صورتك. مثال على ذلك ورود اسمك، في تشرين الثاني ٢٠٠٠، في إحدى المجلات وفي زاوية الأخبار التافهة. في الواقع استمع إليك القاضي كوروا، في إطار عملية تبييض الأموال المنسوبة لمحامي الضرائب آلان غييو. هل يمكنك أن تخبرني بماذا كنت تفكر حين قبلت دفع الكفالة عن هذا المحامي وقد حددها القاضي بمليوني فرنك؟

-: ينبغي العودة إلى سياق الأحداث في تلك الفترة. كنت في ذلك الحين أعاني من تركيب الأسلاك في جسمي. اقتربت كثيراً من الخطر، كنت أحس، نفسياً، بأني مولود جديد أو أني بعثت من جديد. وفي أحد الأيام

تلقيت مكالمة هاتفية من زوجة آلان غييو، وكانت مرتبكة. وكنت قبل هذه المكالمة بعدة أشهر قابلت آلان غييو عن طريق كارين (سيلا) حيث كانت إحدى صديقاتها تعمل في مكتب المحامين ذاته. غييو كان لطيفاً جداً، يعشق السينما وكانت له كاريزما آثرة، كاريزما حقيقية، وكان لنا صديق مشترك هو المنتج السينمائي آلان تيرزيان. وأعترف بأن آلان غييو لم يكن بالفعل في يوم ما محاميّ الخاص. لأن محاميّ الخاص بالضرائب، وكما أخبرتك، كان ميشيل غرينر.

-: إذن اتصلت بك زوجته....

-: اتصلت بي وأخبرتني أن زوجها في السجن، وقالت إن جميع مساعيها باءت بالفشل لتأمين الكفالة المالية المطلوبة لإطلاق سراح زوجها وهي بقيمة مليوني فرنك، وهذا مبلغ كبير، وقالت إنها اتصلت ببعض الأصدقاء ولكنها لم تستطع تأمين سوى مبلغ خمسمائة ألف فرنك، فقلت لها: «سأبذل كل ما في وسعي في هذا الأمر»، وعلى الفور اتصلت بصديقي المصرفي غابرييل ميار وسألته إن كان ممكناً سحب مبلغ مليوني فرنك في الحال «لدفع الكفالة لأحد الأصدقاء»، أجابني بالموافقة. وعلى الفور وضعت المبلغ في تصرف زوجة آلان غييو. ومن غير المفيد أن أخبرك الآن أني كنت، حينها، أجهل تماماً السبب وراء اعتقاله....

-: إذن في هذه الحال كان السبب مسألة تبييض أموال. لكنك أنفقت مليوني فرنك في سبيل رجل لم تلتقِ به سوى ثلاث أو أربع مرات، وحتى إنك كنت تجهل التهمة الموجهة إليه من المحكمة....

-: والقاضي كوروا بدوره رأى في تصرف كهذا شيئاً غير مألوف، وكان رأيه أني حين قبلت دفع مبلغ كهذا فذلك بالضرورة نوع من رد الجميل لخدمة قدمها لي غييو. لا، ليس الأمر هكذا، فأنا أقدمت على هذا الأمر هكذا، من دون مقابل، فكرة جالت في رأسي وكفى.

-: ترى أين أصبحت هذه القضية؟

-: استقبلني القاضي كوروا في تشرين الثاني ٢٠٠٠، ومنذ ذلك الحين لم يعلن أي شيء. واستمع القاضي لصديقي المصرفي غابرييل ميار، كشاهد في القضية. أظنهم تابعوا البحث في القضية، لكنهم، كما يبدو، لن يعثروا على شيء. كل شيء واضح، فقد حصرت جميع أعمالي في الشركة العامة منذ ثلاثين سنة. جرى السؤال عن ضرائبي مرات عدة في شركة د.د. للإنتاج، أنا لم أرتكب أي خطأ أبداً، ولو مرة واحدة. باختصار ليس لدي ما أخفيه، ولا أستطيع فعل شيء، لأن ميشيل غرينر، المحامي الخاص بضرائبي، يقوم بكل شيء. تمكنت منذ فترة وجيزة من أن أحصل، بسهولة، على سجلي الضريبي الذي يؤكد على التزامي الدائم بكل الضرائب، والفضل في هذا يعود إلى ميشيل، وأنا أعلم بأنه يتلقى ثناءات شفهية من مصلحة الضرائب على الأسلوب الذي يتبعه في إدارة أعمالي، وهذه إحدى حظوظي في الحياة، فأنا محاط بنخبة من المستشارين، يقومون على تنظيم أعمالي، ويقدمون النصح لي بالقيام بعمل ما أو الامتناع عن عمل آخر، وأنا في حراستهم منذ ثلاثين عاماً، وأستمع إليهم بدقة، وأحياناً يكون الأمر متعباً ولكن يجب أن أعترف بأني غير نادم قط على فعل ذلك.

-: وفي قائمة مختلفة، رأينا اسمك ملصقاً على شعار نجم هوليوود Planet Hollywood من بين نجوم هوليوود الآخرين أمثال: سيلفستر ستالون، بروس ويليس، ديمي مور... هل هذه أيضاً بدافع الصداقة، حقاً؟

-: نعم بالتأكيد، تصور! كانت ووبي غولدبرغ هي من أشركني في هذه القصة. ووبي هذه هي إحدى أفضل صديقاتي وأنا أعبدها. فهي امرأة محترمة على الصعيدين الإنساني والسياسي. ومن جهة أخرى كان علي أن أصطحبها معي إلى كوبا لمقابلة فيدل كاسترو، ولكنها تلقت تهديداً بالقتل وأكرهت أخيراً على التخلي عن هذه الرحلة، وفيدل كان محبطاً جداً، وأظن أنهما تبادلا الحديث على الهاتف.... وكانت هي دوماً صلة الوصل بيني وبين إدارة بلانيت هوليوود.

-: كم كان حجم استثماراتك في هذه المطاعم؟

-: خلافاً لما كتب لم أستثمر سنتيماً واحداً، ولم أجتمع إلى مجلس الإدارة. بالطبع يدفعون لك الأموال لتسهم في إجراءات العلاقات العامة، ولكني هنا أيضاً رفضت أن أقبض أي مبلغ. كان همي الوحيد أن يبتاعوا من نبيذي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أبيع فيها من إنتاجي، وكان النبيذ كثيفاً ورغم ذلك منحت ثقتهم، وكما أذكر اشتروا من إنتاجي سبعين ألف زجاجة..

-: أوردت الصحف قصة امتلاكك لأسهم في شركة بلانيت هوليوود،فهل هذا صحيح أم لا؟

-: بصراحة، لا أعتقد ذلك، لكن فيما يتعلق بي، أكرر القول إن همي الأوحد أن أبيعهم من إنتاجي من النبيذ.

-: من بين أنشطتك المتعددة، ثمة نشاط لم نأت على ذكره بعد، ألا وهو عملك في الإعلانات. ترى ما هي تلك الحاجة التي دفعت بك لتقديم صورتك إلى شركات إعلانية، كشركات معكرونة باريلا؟

-: أولاً، وأقولها بصراحة، هذا النوع من العمل يكسب كثيراً....

-: كم قبضت عليه؟

-: في النتيجة قبضت حوالي تسعة عشر مليون فرنك مقابل خمسة أفلام إعلانية مختلفة. ولكن بعيداً عن المظهر المادي، فإن هذا العمل الإعلاني يتناسب وطبيعتي في العيش برخاء. كان شيئاً في غاية المتعة لي، أن أقوم بتصوير الإعلانات والأطفال من حولي، ولا سيما أن تلك الأفلام أتاحت لي، فيما بعد، أن أعمل مع مخرجين من أمثال ديفيد لينش وريدلي سكوت وقد عملت تحت إدارته في فيلم (١٤٩٢)، كذلك ساعدتني الإعلانات في العمل مع جان بول رابينو وجان بيير جينو.....

-: أعتقد أنك صورت أيضاً إعلاناً عن جبنة بيضاء....

-: نعم وكان الإعلان لصالح ماركة سينوبل وصاحبها الذي توفي في السرطان كان رفيقي في رحلات الصيد، وعلى ما أذكر كان ابنه هو من طلبني لتصوير هذا الإعلان، ولم أستمر في تلك التجربة. ولكن نظراً لعدم رغبتي الأكيدة في تصوير الإعلانات فقد طلبت مقابل تصويرها أجوراً خيالية. وكما تعرف جملة كورتيلين الشهيرة: «إن أردت طرد عشيق زوجتك، طالبه بالمال!».

-: كنا تحدثنا منذ لحظات، عن علاقاتك مع جاك شيراك. لقد شاركت رئيس الجمهورية في زيارة رسمية إلى رومانيا في آذار ١٩٩٧، وكان معكم في الوفد الرسمي أرباب الصناعة الكبار من أمثال، جان لوك غارديير ومارتان بويغ. لكن بأي صفة شاركت في هذا الوفد؟ هل بصفة رجل أعمال أم كممثل؛ أعني كواجهة ثقافية لفرنسا؟

-: بالتأكيد ليس بصفة رجل أعمال، ولكن عليك طرح السؤال على جاك شيراك. من جهتي وجدت الأمر مشوقاً أن أشارك في رحلة كهذه. وعلى عكس ما يشاع فشيراك هو بحر من العلوم ومغرم بالثقافة اليابانية، ولديه دائماً آلاف النكات يرويها، لكنه بشكل خاص إنسان مرح. وأنا أيضاً على تفاهم تام مع ابنته كلود....

-: كتبت إحدى الصحف البريطانية، وكانت قد قامت بتغطية تلك الزيارة الرسمية، تقول: «إن الذي بين كلود شيراك وجيرار ديباردیو يتعدى الصداقة». ولكن، كما يبدو، غيّرت الصحيفة رأيها خوفاً من تخريب العلاقة مع الإيليزيه.... ترى ما حقيقة هذه العلاقة؟

-: كلا، كل ما قيل كان خطأ بالكامل، وعلاقتي بكلود شيراك لا تتعدى الصداقة. وكلانا على تفاهم تام ونعشق الضحك سوية. وأنا في العموم وفي رحلات رصينة جداً كهذه، أقوم بمساعٍ حميدة وأسلّي الحضور.... كلود هذه فتاة أحبها كثيراً. وفي الواقع بدأت علاقتي بعائلة شيراك بفضل لين رينو التي تربطها علاقة مميزة ببرناديت شيراك. لقد أذهلتني كلود، وأعلم أنها تقوم بدور أساسي إلى جانب والدها، وهي ناجحة جداً، وتتقن الكتمان وهذا دليل على ذكائها. أما من ناحية الإشاعات المرتبطة بي فهي لسوء الحظ كثيرة. وخلال ثلاثين سنة من عملي في هذه المهنة، سمعت الكثير منها بالتأكيد.....

-: تحدثنا كثيراً عن الأموال التي تكسبها وعن أعمالك، ولكن لم نتحدث أبداً عن تفاصيل حياتك....

-: لا فرق إن كنت غنياً أم فقيراً، فلن تتناول سوى وجبات ثلاث في اليوم. وعلى العكس حياتي لا تحفل بالتفاصيل اليومية التي تتسم بها حياة أصحاب المليارات، فأنا ما زلت ذلك الإنسان القروي. أعيش في بحبوحة، وهذا لا جدال فيه، لكني لا أستسيغ حياة البذخ، بل أتذوق الأشياء البسيطة، كالنبيذ والأكل الطيب، أتذوقها بقدر ما أستطيع الاستمتاع بها برفقة أصدقائي الذين أحبهم. لا أرمي بما لي من النافذة، وليس هذا من طبعي، لكن أظنني كريم اليد بما يكفي مع الأصدقاء والمقربين. وبذخي الوحيد هو السفر عبر الطائرات. أعيش حياة السرعة، أقوم برحلات على متن الطائرة في فترة الراحة بين عملين، ودائماً بين الرحلة والأخرى في الداخل أو في الخارج. وللقيام بأسفاري جميعها كان علي أن أختلس وقت الفراغ، وليس أفضل من الطائرة للقيام بذلك. في العادة أستأجر طائرة خاصة تنقلني إلى حيث أريد، وهذا ترف حقيقي، طائرة خاصة لجميع تنقلاتي تقريباً. يكلفني هذا مبالغ طائلة، لكنها الطريقة الوحيدة لإنجاز كل أعمالي. لا أملك الوسيلة للحصول على طائرة نفاثة خاصة والإنفاق عليها، لهذا أستأجر طائرة بطاقمها وأدفع الأجرة من مالي الخاص، لأن شركة د.د. للإنتاج لا تدفع أي مبلغ وهكذا منتجو الأفلام الذين يقتسمون الضرائب، بل ديباردیو هو الذي يدفع فقط. أستخدم الطائرة للانتقال من مكان إلى آخر وبالسرعة اللازمة، من دون أي إزعاج، وهذا هو بذخي الوحيد. وحين أضع قبعتي لا يعد أحد يعرفني. أملك دراجة نارية ماركة ياماها ١٣٠٠سنتم^{٣}، لكني لا أملك سيارة فارهة مع سائقها.

-: تملك أيضاً بعض التحف الفنية الجميلة....

-: كان ذلك سابقاً. صحيح أنا أحب الفن، ولكن ليس لجمع التحف ضمن مجموعات لغاية في نفسي. وفي الواقع أفضل ما في الفن هم الفنانون أنفسهم. تعرفت، منذ فترة قريبة، إلى (ناتزوكي) وهي فنانة يابانية في الثلاثين. لم يكن جلّ اهتمامي اقتناء أعمالها بقدر مساعدتها وتعريف الآخرين بفنها. التقيت بعد ذلك بأسرتها: والدها كان مدير متحف، والدتها تعمل في المعهد العالي للموسيقى في طوكيو، شقيقها مثقف متميز.... وبعد انتهاء معرضها في إيطاليا، جاءت اليوم إلى باريس، وقدمت لها المساعدة لإقامة معرض للوحاتها، وقد حظي المعرض بنجاح واسع، وكانت هي متأثرة للغاية. وسيتكرر الأمر بعد عدة أيام في مطعمي الخاص، لافونتين غايون، حيث سأقيم معرضاً للفنان دين تافولا رينس. ودين هذا فنان لا نظير له وهو صديقي، كذلك هو زوج الممثلة أورور كليمان وهو أيضاً المدير الفني للمخرج فرانسيس فوردكو بولا، وقد ذكّرني إلى حد ما بموريس بيالا. لكم تمنيت لو أن موريس أقام معرضاً للوحاته كي يشاهدها أكبر عدد من الناس.... لست شغوفاً بجمع اللوحات والمتاجرة بها. إن شراءك لتحفة يتناغم وميلك لهذه التحفة، وأنا حين أقتني تحفة فنية لا أفعل هذا بغية المتاجرة بها ولا لإغناء مجموعتي. بل أفعل ذلك بغرض العيش يوماً بيوم إلى جانب تحفة تفصح عن أجمل ما فيها. هل شاهدت جدران بيتي: إنها عارية تقريباً. أفضّل الحد الأدنى من اللوحات والذي يتيح فهماً أفضل للفراغ، وهكذا يمكنك أن تتخيل ما يمكن أن تضعه على هذا الجدار أو ذاك.... المهم هو القيمة العاطفية للعمل: أثمّن كثيراً لوحات موريس بيالا، كهذه الكنبة التي صمّمها وقدمها هدية لي، أو تلك اللوحة التي تمثلني وهي من إبداع فنان روسي.... لا أريد أن يحوي بيتي سوى الحد الأدنى الدقيق. لا أستطيع العيش وسط ركام من التذكارات والتحف.... فيما عدا الكتب، التي أحتاجها، ولم يخرج من رفوف المكتبة سوى الكتب التي سبق أن قرأتها، وأحس بالذنب حين أرى كل هذه الكتب التي لم أقرأها بعد. ولا أتحمل أن يقع بصري على كتب أجهل محتواها. والكتب التي لم أقرأها، لا تزال رهن الصناديق، أفتح بعضها من وقت لآخر. جميع الكتب مفهرسة وحين أرغب في البحث في أحد الكتب أعرف مكانه. هنا مثلاً انتهيت لتوي من قراءة أشعار جاك بريفير في سلسلة بلياد....

-: الحد الأدنى، ممكن، ولكن مع ذلك لدي انطباع بأنك أكثر إسرافاً مما تريد الاعتراف به..

-: يحدث هذا أحياناً، أعترف بذلك، فأنا أقدم هدايا جميلة لمن أحب وأغلب هداياي من الحلي، كذلك أحب الأحجار الكريمة وأعشق إهداءها للنساء.... بالطبع إلى كارول أو لصديقات أخريات...

-: عودة إلى بعض التفاصيل في حياتك. هناك أولاً هذا الفندق الخاص والذي تعيش فيه، في الدائرة ١٦ في باريس....

-: نعم، إنه منزل جميل، مع حديقة رائعة أحس فيها بالراحة التامة.

-: هناك أيضاً الفندق الخاص الرائع في شارع شيرس – ميدي في الدائرة السادسة في باريس...

-: نعم، ولكنه يعود إلى شركة د.د. للإنتاج. من جهة أخرى سأقوم عما قريب بأعمال كبيرة وسأتكفل بجميع التكاليف، لأن شركة د.د. للإنتاج لا تتحمل مصاريف كهذه.

-: لا زلت منذ ثمانية عشر شهراً تستثمر مبلغاً محترماً من المال في مطعم لا فونتين غايون القريب من الأوبرا في فندق خاص ساحر، قام على بنائه هارودين مانزار عام ١٦٧٢. مكان مليء بالقصص، وكانت ابنة لويس الرابع عشر ثم الدوق ريشيليو من بين آخرين امتلكوا المكان. لماذا رغبت في امتلاك مطعم؟ هل من أجل المتعة فقط؟ أم هي زيادة في التنوع في أعمالك؟ أم لجني الأرباح؟

-: في الحقيقة، افتتاح مطعم، كان أحد أحلامي القديمة. وحين قامت شركة آرتميديا في جادة جورج الخامس في باريس، غالباً ما كنت أذهب للغداء في مطعم «ماريوس وجانيت» حيث كان فريدريك راغو ولوران أوديو يعملان في المطبخ، وفي ذلك الحين، كنت أنوي شراء Relais Georges - V، الملاصق لملهى الكريزي هورس، ولكن المالك طلب مبلغاً يزيد على تسعة ملايين فرنك، من دون الفناء الخارجي، وكان المبلغ باهظاً جداً بالنسبة إليّ، ثم إن افتتاح مطعم مسألة ينبغي الإعداد لها، وأنا لم أكن جاهزاً بعد، من دون شك، للدخول في مغامرة كهذه. وأخيراً منذ ثمانية عشر شهراً، أصبحت جاهزاً للخوض في هذا الميدان. كنا أربعة شركاء بيرنار ميغريز، ميشيل ريبييه، روجيه زانييه وأنا. وكان مبلغ استثمارنا في الأرض والعقار قرابة عشرين مليون فرنك. جرى كل شيء بالتقسيط، وكنا نحن الأربعة مساهمين في شركة بيير المالكة للمطعم. استلم لوران أوديو المطبخ والمأكولات، كمعلّم في المهنة، وكانت له أيضاً أسهم في شركة للاستثمار معي ومع كارول بوكيه.

-: هل لديك دخل ثابت؟

-: كلا، كما كان الأمر في تينييه Tigne، لم أقبض أي مبلغ، ولكن بعد هذه السنوات منحت نفسي مرتباً شهرياً من ثلاثين ألف فرنك من شركة د.د. للإنتاج، وفي المقابل آخذ حصصي من أرباح المطعم.

-: وهل حقق المطعم أرباحاً؟

-: نعم حقق أرباحاً. فقد ارتفع حجم المبيعات أكثر من ٣٠٠% مقارنة بحجم المبيعات السابق. من جهة أخرى طلبت بمنح علاوة للعاملين غير المساهمين، وهذا أقل ما يمكن فعله، لأن الجميع تفانى في العمل، وهكذا انطلقت الأمور، ومن الطبيعي أن ينال كل امرئ جزاء عمله.

-: ما هو «بالضبط» دورك في هذا المطعم؟ هل اكتفيت باستثمار علاقاتك العامة في اجتذاب الزبائن؟ هل تسهم في اختيار الوجبات؟ هل لديك علاقات مع متعهدي التموين؟

-: أقوم بهذه الأمور جميعاً، رغم أني لا أمنح ١٠٠% من وقتي لهذه الأعمال. أستيقظ فجراً كل يوم، ولكني أتابع وصول التموين للمطعم. نتعاون بشكل خاص مع صديق ليتواني مطعمه قريب من مطعمنا واسمه (الكوبا le Koba)، وبفضله نقدم كل يوم أفضل أنواع الطونا في البحر المتوسط. واخترنا، مع لوران أوديو، التعاون مباشرة مع صغار مربي العجول الرضيعة، والحملان والخنازير والسمك....

-: هل تقرر أن يحصل مطعم لافونتين غايون على نجمة ميشلان؟

-: في العادة لا أتهافت وراء النجوم، ولا أعبأ كثيراً بالميداليات الذهبية، كذلك الأمر فيما يخص إنتاجي من النبيذ، لا تهمني الميداليات الذهبية. ليس هذا هو الهدف الأخير بالنسبة إلي. بل سعادتي أن نقدم وجبات بسيطة مميزة تنال الرضا وفي مكان لطيف، وليس هذا بالأمر الصعب.

-: إذا سمحت، سأطرح السؤال الأخير لهذا اليوم. ينسب كثير من المشاهير، ممثلين ومغنين، شهرتهم لدواعٍ إنسانية. هل يمكن اعتبارك من هذا النوع؟

-: نعم، ولكني أفضّل عدم الحديث في هذا الأمر. أخشى دوماً أن يفهم الآخرون أني أقوم بذلك لتلميع صورتي. لهذا أفعل كل ما أفعل في صمت وكتمان.

-: هل يمكن أن تحدثنا عما تقصده بذلك؟

-: أنا مثلاً، دعمت الدكتور ريختر في عمله الفريد في كمبوديا. إنه طبيب أطفال يقيم هناك منذ السبعينيات، وقد أقام عدة مشافٍ خاصة بالأطفال فقط وكانت المعالجة بالمجان. كنت أزور هذه المشافي برفقة كارول، وقد ساعدته أيضاً في إقامة حفلات خيرية لجمع الأموال، ووضعت تحت تصرفه، منذ فترة قريبة، بطاقة بعنواني لجلب أكبر عدد ممكن من المانحين، إلى حفلة خيرية أقيمت مؤخراً في ميونيخ. من جهة أخرى قدمت مساهمتي إلى مؤسسة إيرازم للبحث الطبي وهي التي تمول البعثات الدراسية للباحثين الشباب. وفضلاً عن ذلك أسهمت بمالي لمظاهر اجتماعية أو إنسانية أخرى كالجمعية التي أقامتها كارول بوكيه تحت عنوان (صوت الطفولة)، ولكن أعود وأكرر أني لا أحب الحديث في هذا الأمر. وهذه من الأمور التي أفضّل القيام بها في صمت ودون تباهٍ.

الفصل السادس

الثورة، لكن أي ثورة هذه؟

«أعتقد أنك على صواب، حينما تتخذ من السياسة سبيلا
للوصول بأي وسيلة كانت، إلى هدف لا يمكن التفاخربه»
جول رومان

باريس في ٢٧ حزيران ٢٠٠٤، منزل جيرار ديباردیو، شارع ليكونت دوليل.... الطقس جميل، ديباردیو في حالة صحية جيدة،رغم حالة القلق التي يعيشها الآن على صحة ابنه..... ديباردیو اشترى منذ فترة قريبة دراجة نارية حديثة...

– لوران نيومان: أمرك عجيب، فأنت تهتم بكل شيء وتلتقي بأعداد كبيرة من الناس وتسافر إلى كل مكان خارج الوطن، ولكن يبدو أنك لا تقيم للسياسة أي وزن.... قل لي بربك، هل تدلي بصوتك في الانتخابات؟

–: اسمع، أخشى أن تصدم أو أن يصيبك الإحباط إن أخبرتك بأني فعلاً لا أدلي بصوتي في الانتخابات ولا أعرف حتى إن كان لدي بطاقة انتخابية، أذكر أني دخلت آخر مرة إلى أحد المراكز الانتخابية عام١٩٨١ في بوجيفال، لألقي في الصندوق بورقة اقتراع لفرنسوا ميتران. أهتم بما يجري في البلد، لكني لا أولي السياسة، كسياسة، أي اهتمام. بالفعل أنا معجب جداً ببعض السياسيين، لكني غير مبالٍ على الإطلاق بالأحزاب السياسية والإيديولوجيات والصراع على السلطة وممارسة الصغائر للوصول إلى المراكز والأمجاد. والسياسة، كما أراها، من خلال معرفتي المتواضعة بخفاياها، تتمثل أولاً وقبل أي شيء آخر في الاستيلاء على السلطة. تتحالف الأحزاب والتيارات وأموال الأحزاب والأحكام الصغيرة المشبوهة والظروف المؤاتية للانقضاض على السلطة. إن ممارسة السلطة شيء رائع في نظري وهي على النقيض من الاستيلاء على السلطة. وهذا ساعدني، من دون شك، في أن أظل إنساناً حراً! لا أتبع أياً كان، ولأن السياسة لا تعني لي شيئاً، تراني منكباً على قراءة شكسبير وبيتر هندكه وألكسندر دوماس أو فيكتور هيغو، فهذه تمثل السياسة الحقيقية، العظيمة، النبيلة، الجديرة بالثقة، وهي أشد إثارة للاهتمام ألف مرة من ذلك الاستعراض اليومي للخلافات السياسية التي كنت أقرأ عنها في الصحف. لا أتمنى الانخراط في السياسة، ولست ملزماً بالضرورة، لكوني أحد المشاهير، في الالتزام بها. غير أني ألتزم بكل قضية تهزني، وأرفض بالتأكيد كل القذارات السياسية، ولا يعني قيامي بدور دانتون، أني من مناصري الثورة. إن تربيتي الشخصية شبيهة بتربية جان جاك روسو، وأعني البراغماتية قبل كل شيء. أقصد حين يكتشف الإنسان الأشياء بنفسه من دون أحكام مسبقة أو خلفيات إيديولوجية، وأن يختبر مخاطر الحياة، وكما أخبرتك، تجربتي السياسية كانت عبر الشارع: العنف اليومي، العنصرية المعتادة، الرهاب المثلي، والخلل العجيب بين الواقع والخطب السياسية، وهذا ما يطلق عليه اليوم بالهوة بين الشعب والنخب الباريسية.... إذن هذه مكوناتي السياسية، والأحزاب السياسية في شكلها الحالي لا تجيب على هذه الأسئلة، بل تكتفي فقط بطرح الأسئلة، لكن من دون جواب. هكذا تعلمت الإجابة على هذه الأسئلة على طريقتي الخاصة.

-: ولكن هذا لم يمنعك من الإعلان في الصحف اليومية عن الدعوة لإعادة انتخاب فرنسوا ميتران مردداً القول: «إما ميتران وإما لا أحد»....

-: صحيح ما تقوله. وقد أشيع في وقت من الأوقات أن جاك لانغ هو من دفعني إلى هذا، وأيضاً لأن المغني رينو كان قد فعل الشيء ذاته. هذه الإشاعة خاطئة، لأني فعلت ذلك من نفسي، وهذا ما في الأمر. ناهيك أن أجرة الصفحات الإعلانية كانت من حسابي الخاص.

-: إذن لماذا قمت بتلك الخدمة لميتران، وأنت كما يبدو تنفر من الحياة السياسية؟

-: لا أريدك أن تسيء الظن. فأنا لم أقل أبداً إني لم أكن ملتزماً في المطلق، فالسياسة تعنيني حين يكون لها وزن وقيمة. مثلاً في حرب الجزائر، كنت أعرف بشكل لا بأس به هؤلاء الذين كانوا يشكلون OAS ولم أكن أقاسمهم بالضرورة ذات القناعات، فقد كان المرتزقة بالنسبة إلي لا يطاقون، ولكن في الوقت نفسه كنت أرى، بعد عودتهم، الصدمة النفسية لهؤلاء المجندين الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين والذين كانوا يرفضون المشاركة في هذه الحرب. لم أكن مضطراً للالتزام، لكني طرحت على نفسي الكثير من الأسئلة. أما فيما يتعلق بميتران فتلك قصة أخرى. كان ميتران، بالنسبة إليّ، كنغمة عيد في بلد حزين جداً. وأنا في حياتي القصيرة هذه، أحببت اثنين من رجال السياسة، ويا للمفارقة فقد كانا خصمين كبيرين، وهما: ديغول وميتران. ورغم صغر سني كنت أجد في الجنرال ديغول شخصية غريبة ورجلاً استثنائياً وغولاً مقدساً، وأكاد أقول إنه بطل رومانسي.

-: عن أي ديغول تتكلم؟ هل عن ديغول الجزائر؟

-: كلا، لأنه لم يكن قد خرج منها بعد ذلك الخروج المذلّ. لا، بل ديغول الذي أحب، هو ديغول المقاومة، الرجل الذي عرف كيف يقول «لا»، الرجل الذي عرف كيف يصالح فرنسا مع ذاتها، هذا الرجل كان يتحلى بشجاعة التسامي فوق الأحزاب السياسية وفوق المنافع المادية كلها... أحب ديغول أيار ١٩٦٨، نهاية ديغول، المنهك والساخط على دناءات دهاليز السياسة، ديغول المتعب، المنسحب من السلطة ورأسه إلى الأعلى، مع إحساسه بانتهاء مهمته. انسحاب رومانسي لا يزال يسحرني حتى اليوم، وبخاصة حين أرى بأي شراسة يتمسك بعض رجال السياسة بمواقفهم. كان رجل دولة حقيقياً، يليق به وحده أن يجسد الوطن. كما كنت أحب جورج بومبيدو كثيراً، لهيئته وشجاعته أمام المرض والمحن، وربما لأني أشعر بقربي الشديد من هذا الرجل الطيب القلب، المتجذر في هذه الأرض. وفي المقابل، وبقدر ما ذكرت لك، لم أكن أبداً أحب جيسكار ديستان....

-: لقد وصفت ميتران قائلاً: «إنه رجل شريف، سيّد، امبراطور، حكيم، أبو الهول... لا أتحمس لأحد بقدر ما أتحمس له».

-: هذا مؤكد، لأن ميتران، مقارنة بجيسكار، لم يكن ملاكماً من الفئة ذاتها. كانت لميتران عيوب من دون شك. فهو، بلا جدال، طاغية كبير على طريقته، لكنه عرف كيف يظهر للفرنسيين بأن للوطن قيماً أخرى غير الأكورديون!

-: هل خف حماسك له، بعد أن كشف بيير بيان ماضي فرنسوا ميتران الملتبس؟

-: أكذب إن قلت إني لم أتأثر، ولكن ترى من من السياسيين لم يقع في الأخطاء؟ أي رجل في السلطة يجرؤ ويزعم بأن طريقه كانت دوماً سليمة؟ لنقل إني كنت أفضّل، في فترة الاحتلال المضطربة، موقف ديغول على موقف ميتران. ولكن من هنا حيث أتكلم يبدو النقد اللاذع أمراً بالغ السهولة، لهذا النوع من الحقائق. وقد روى لي ميتران عن معارضته لديغول في مناسبات مختلفة، لكنه كان يبدي له الاحترام أو على الأقل يبدي له احتراماً حقيقياً، وهو احترام متبادل كما أظن.... ورغم تعاقب السنين لم يتنكر ميتران لصداقاته الحميمة. هل يمكن أن نلومه على ذلك؟ أتحفظ في الإجابة. إن الضلال شيء معيب حقاً، لكن الأمانة هي فضيلة حقيقية. لكن وأسفاه على من يخسر نفسه.

-: تكلمت عن ديغول وميتران.... ونسيت أن تحدثني عن جاك شيراك.

-: هو شخصياً، أحبه كثيراً. وأجلّ فيه الإنسان أكثر من السياسي المحترف صاحب السلطة. إنه رجل علاّمة، قريب من الناس، إنسان مرح وبالطبع أكثر من ديغول وميتران. يشعر المرء أن لديه طموحاً مجنوناً وشهية أصيلة للسلطة، لكن الوصول إلى هذا المستوى الذي هو فيه، يفضل لو أنه يتمتع بكل ذلك، وهو على الأقل، و على عكس آخرين كثر، لا يخفي هذا الأمر. هناك في الواقع نماذج من السياسيين لا قدرة لي على تحملهم وهم يحاولون إيهامنا أنهم من أرباب النزاهة الحقة. وربما لم أعرف، باستثناء الجنرال ديغول، سياسياً واحداً يستطيع أن يدعي أنه لم يتجاوز الخط الأصفر أبداً. أريد أن أكون متسامحاً مع من يرتكب الأخطاء، وأريد إيجاد العذر لأولئك المخطئين أو من يظهرون الجبن، لكن هذه الرموز من الآباء والأخلاق هي التي تخيفني وأحذر منها حذري من الطاعون. في السياسة كما في الحياة العامة، ارتكب ميتران بعض الأخطاء، وضلّ، لكنه بقي رجلاً بإنسانيته ولا سيما أنه لم يدّعِ الكمال في يوم من الأيام..... والسياسة كالروايات: لا تقوم السياسات الحكيمة على النوايا الطيبة.

-: كان ميتران، من شاكلة ديغول وشيراك، شخصية روائية حقيقية كما أحببت....

-: قصة ميتران، قصة عجيبة: أسراره الخاصة، ازدواجية حياته، ابنته غير الشرعية. وقد سمعت مرة حكاية عن الجنرال ديغول، لا أدري مدى صحتها: تقول الحكاية أنه حين كان في لندن، كان مغرماً بإحدى النساء. قصة حب أفلاطوني، أم لا.... لا أعرف ولا أحد يعرف إن كان هو من قطع علاقته بتلك السيدة، لأنه لم يستطع تحمل المزيد من كتمان العواطف، فخاطبها بهذه العبارة الخارقة: «سيدتي، سنكون عشاقاً في العالم الآخر»، كم أتمنى لو صحت هذه الحكاية لأنها رائعة. جدير بالذكر أن ديغول لم يكن مقتراً بالألفاظ الجميلة، فقد حضر ذات مساء إلى الكوميدي فرانسيز لتحية فريق التمثيل الفرنسي في مسرحية دون جوان Don Juan، وبعد انتهاء العرض وفيما كانت الصالة تغص بالتصفيق والهتاف «ممتاز، رائع»، أسدلت الستارة وصعد ديغول إلى الخشبة، والممثلون في ثياب العرض وكان يتقدمه جورج ديكريير، وبشيء من الانفعال وبلهجة متكلفة خاطبه قائلاً: «سيدي الجنرال، اعذرني، لم أكن في أحسن حال هذا المساء»، عندها أجابه ديغول تلك الإجابة السحرية قائلاً: «ستحكي لي الكثير عنه» (ينفجر جيرار ضاحكاً)، ولك أن

تتخيل رأس ديكريير.... ترى من غير ديغول يملك هذا المعنى في هذا الرد السريع؟ كانت دعابات لا يمكن للمرء أن يتخيلها، لا ينطق بها سوى إنسان كبير، بل صاحب فخامة، في جواب حاذق كهذا. لقد شاهدت عشرات الساعات من الأفلام الوثائقية وصور الأرشيف على L INA، لكنني لم أعثر له مرة واحدة على موقف غير لائق. ومسيرة حياته هي أبلغ درس لجميع السياسيين... كانت له نبرته الخاصة، مشيته الرزينة وفهم خاص للتاريخ. وكان لديه من الذكاء، من دون ريب، بحيث طوّع الإذاعة والتلفزيون لخدمة أفكاره، وأعرف الكثيرين ممن يحسنون العمل يستلهمون الأفكار منه.

-: ألم يخلفه أحد في رأيك؟

-: أجل، لقد خلفه ميتران واليوم شيراك. كان لدى شيراك طموح إلى السلطة، ولم يكن حاذقاً. يعجبني شيراك أكثر حين يمارس السلطة، وقد أثمر تعاونه مع دوفيلبان على أفضل النتائج فيما يخص السياسة الخارجية.... يجب أن تكون لديك الرؤية السياسية الحقيقية كي تجرؤ وتقول «لا» لجورج بوش، «لا» لأمريكا مع قوتها الخارقة، «لا» لحرب العراق. وقد جاء تلاحق الأحداث ليؤكد على صدقية مواقفه.... أحب فيلبان كثيراً وأحب عباراته المميزة، ونبرة خطاباته، وأحب الشاعر فيه، كذلك شجاعته، وباختصار، إنه يتمتع بجاذبية فائقة.... وخلاصة الأمر أقول إن السياسة لا تعنيني في شيء، ولكن لحسن الحظ فهي تخّرج أحياناً أناساً مبدعين.... فيلبان إنسان رائع، وسوف أمنحه ثقتي بشكل عفوي.

-: يبدو أنك تتحدث مع شيراك بحميمية ومن دون تكلف، فهل هذا صحيح؟

-: نعم هذا صحيح، وهكذا كان الأمر مع ميتران، والعكس صحيح. أتكلف في حديثي مع الذين لا أفهمهم، ومع من لا أرغب في توثيق العلاقة معهم. إن استخدام أداة التفخيم هي الوسيلة المثلى لإيجاد المسافة بين الناس، ومع ذلك يحدث أحياناً أن أتحدث مع بعضهم بعفوية، ثم أعمد بعدها إلى استخدام عبارات التفخيم لأبعدهم عني. كان فرنسوا تروفو يتكلف في حديثه مع الجميع إلاّ معي، مع أني لا أعرف السبب.... شيء غريب أن أفكر في هذا. شخصياً كنت أتكلم معه بعفوية، وكان الأمر طبيعياً. إن علاقتي برئيس الجمهورية علاقة صداقة قائمة على الصراحة والبساطة.... وذات يوم سمحت لنفسي بإسداء نصيحة له فقلت: «ينبغي أن تتعلم كيف تعترف بنقاط ضعفك، قبل أن تهاجم خصومك، عليك الإقرار بأخطائك الشخصية، اعترف بها وسوف يزيدك هذا قوة على قوة».

-: وبماذا نصحت نيكولا ساركوزي؟

-: لم أقدم له أية نصيحة! ساركوزي هذا هو أكثر من يزعجني في هذه المرحلة السياسية. وبخاصة تهافته على السلطة. ربما هو جيد، رغم أني دائم الحذر ممن يتوق إلى الظهور كالتلاميذ أصحاب الدرجات الأولى. أظن أنه يؤدي عمله كأفضل ما يمكن، ولكن من حيث المبدأ، لا أقطع الصحراء برفقة سياسي يسعى للاستيلاء على السلطة. وأكرر القول إني أرى جاذبية في رجال السلطة عند الممارسة، أما حين يتهافتون للوصول إلى السلطة فذلك تلبية لحسابات سياسية ضيقة.... أكرر القول هذا لا يهمني.

-: ترى هل نال إعجابك بعض السياسيين الجدد في الحزب الاشتراكي، بعد رحيل فرنسوا ميتران؟

-: أحترم لوران فابيوس كثيراً، لا لآرائه السياسية، وأكرر هنا أيضاً، بل لشخصه كإنسان مثقف ورزين، ولو كان أحد آخر مكانه في قضية الدم الملوث لاختفى. لقد خدعني فابيوس بعزة نفسه وعرف كيف يحافظ عليها في محنته. من جهة أخرى، لنقل الحقيقة، فهو «قد وقع في شرك هذه القضية، ولكن كان من الممكن أن يقع في هذا الشرك أي شخص آخر من اليمين أو من اليسار». أيضاً هناك جاك لانغ والذي أقدّره عالياً، كنا نستمتع كثيراً بالحفلات والمزاح بيننا، لكن جاك لانغ هذا يعبد السلطة. وفي أول لقاء لي معه، خرجت بانطباع أني أمام ممثل في عرض مسرحي، ويلمس كل من يقترب منه أنه أمام رجل محترف، كما يقال. هذا يعني وباختصار أني ومنذ زمن بعيد أراه أفضل من ليونيل جوسبان، وهذا الأخير، لا أتخيل للحظة واحدة أن يكون صديقاً لي، يجلس معي وزجاجة النبيذ الأحمر الفاخر بيننا. إن مظهره التروتسكي وشكله كأستاذ يلقي الدروس، ويتوشح دائماً بوشاح الأخلاق، وبعيد عن هموم الناس.... هل اطلعت على نتائج الانتخابات؟ لم تكن النتيجة في صالحه. وأنا أرى أن جوسبان شبيه بنيكولا ساركوزي: فهو لا يعدو كونه رجل سياسة، ولكن من يدري ربما يصبح نافعاً حين يمارس السلطة.... لنترك الكلمة للمستقبل.

-: علمت، بالمصادفة المحضة، أنك كنت تهب تقدمات مالية، طيلة سنوات، إلى الحزب الشيوعي. فهل لا زلت تقدم الأموال إلى الآن؟

-: لا. كنت أدفع، ولفترة طويلة، من حصتي إلى الحزب الشيوعي الفرنسي. حدث هذا بالفعل، ولكني توقفت عن ذلك. كنت أقوم بهذا لذكرى والدي. وكما أخبرتك سابقاً كان ديه ديه رجلاً شيوعياً، لم يكن كأي مناضل، لكن كان يبيع صحيفة الأومانيتيه مروجاً لها بصوت عالٍ في شوارع شاتورو. ونظراً لكونه جاهلاً بالقراءة والكتابة فأنا لست على يقين بأنه كان ذا فكر نقدي ليعمل في السياسة أو أن يحكم على أفكار الحزب. حسناً ولكنه.... كان ينظر إلى الحزب الشيوعي، كحزب يمثل جملة من القيم وشكلاً من أشكال المثالية البالغة التقدير والتي كان يثمّنها عالياً، ومنها على سبيل المثال: فكرة التوزيع، إعادة توزيع الثروات، وقيم المقاومة كذلك... علينا العودة إلى الأمور في سياقها التاريخي. فقد كنا خارجين من الحرب للتو، والحزب الشيوعي يكسب أكثر من ٢٠% من أصوات الناخبين، وكان الحزب العمالي الأول في فرنسا. في ذلك الوقت كان للحزب الشيوعي وشخصيات من أمثال ديكلوز وتوريز، وزنها السياسي.

-: صرّحت في مقابلة عام ١٩٨٤ إلى مجلة VSD قائلاً: «لم يعد هناك اليوم مناصرون للشيوعية سوى الأميين الذين لا يتقنون القراءة والكتابة». ألا يتناقض هذا مع دعمك المالي المستمر إلى الحزب الشيوعي؟

-: سبق وأخبرتك عن السبب وراء هذا الدعم المالي للحزب الشيوعي: فعلت ذلك لذكرى والدي. ولكن هناك بالطبع، اختلاف بين شيوعية والدي المثالية، وبين ما نشهده اليوم من خراب خلّفته الشيوعية في أنحاء العالم، وكان ستالين وبول بوت وملايين القتلى.... كان الدرس الوحيد، على الأقل، والذي خلّفته الشيوعية والنازية في نفوسنا، هو أن نأخذ جانب الحذر من الأيديولوجيات أياً كانت. ومهما تكن جاذبية

الإيديولوجيات السياسية الكبرى، فشأنها، مع ذلك، شأن الأديان الموحدة، فهي مصدر طبيعي للإرهاب. هل ثمة نظريات أروع من نظريات الشيوعية ذاتها؟ ولكن هل هناك في نهاية المطاف ما هو أكثر رعباً؟

-: ومع هذا لم تتوقف عن التردد على رجال السياسة ورؤساء الدول....

-: تقصد فيديل كاسترو؟ صحيح، أنا لم ألتق فيديل كاسترو في فترة الستينيات، ولكن تعال أخبرك الحقيقة كاملة، أنا لم ألتق أيضاً بعائلة كينيدي، وما يقدم لنا اليوم، صورة، ليس فيها من الواقع سوى النذر اليسير. وفي أثناء حادثة خليج الخنازير، كانت عائلة كينيدي صديقة لكل أميركا المليئة بالمافيا، والكل تساهل بخصوص قضية كينيدي وبخصوص وضع أميركا، كما كانوا تماماً بخصوص ريغان حين الاحتفال بذكرى كينيدي، لدرجة أنهم حاولوا إيهامنا بأنه كان وراء إنهاء الحرب الباردة. ترى هل فقدت ذاكرتي بالكامل، أم أني لم أعاصر تلك الفترة. وحين أسمع قادة اليسار السياسي الفرنسي يتشدقون ويصمّون آذاننا بأحداث أيار ٦٨، وكأنها ملحمة رومانسية أو يتحدثون عن ثورتهم كما يقولون، أبتسم في هدوء.

-: لماذا؟

-: لماذا؟ لأن أحداث أيار ٦٨ لم يكن فيها شيء من الثورة! الثورة هي ثورة الفقراء في مواجهة الأغنياء، لأنهم لا يجدون ما يأكلون. وأنت شخصياً هل عاينت أي ثورة في أحداث أيار ١٩٦٨؟ وكما قلت لك، إن أحداث أيار ١٩٦٨ هي، في رأيي، ثورة صغار البورجوازية! كنت أشاهدهم في شوارع الحي اللاتيني، يقيمون المتاريس ويقذفون كوكتيل المولوتوف، كانوا أبناء وبنات الطبقة البورجوازية، أناساً لا ينقصهم شيء، أناساً متعلمين.... ماذا تريد أكثر من ذلك، كانوا يلهون بالثورة ليس إلاّ. وحين نسمعهم اليوم يتشدقون عن «ثورتهم»، يخال المرء أنهم كافحوا ضد المحتل وبأنهم التزموا المقاومة قضية ضد الطاغية.... لا يجب الذهاب أبعد من ذلك. كنت شخصياً، وخلال اشتباك هؤلاء الشبان مع قوى الأمن مع صوتهم الملعلع بالهتافات، أجدها فرصة لأسرق ساعات اليد في حي الأوديون. وذات يوم وقعت في قبضة الشرطة في شارع البوليتيكينك في مقهى بوليتيش، وكانت قصة قبعة الشرطي الشهيرة التي دستها برجلي..... لكن أصابني القرف من كل شيء وتوجهت إلى الكوت دازور بعيداً عن كل هذه الحركات المسرحية.

-: سبق أن تحدثنا حديثاً عابراً بأن وفداً من الممثلين الذين يتناوبون على أداء المشاهد، قد اقتحم لعدة أيام فندقك الخاص في شارع شيرش ميدي. ترى أين وصلت هذه القصة أخيراً؟

-: كنت في ذلك الحين أصور فيلم سان أنطونيو. في البداية استقبلت هؤلاء المناوبين لأستمع إليهم وأفهم مطالبهم ولأعرف السبب في مجيئهم إليّ، ثم حاولت أن أفهمهم أن هناك أمكنة لها دلالاتها يمكن أن يحتلوها. كان الحوار بيننا ودياً. سارعت إلى زيارة كريستوف جيرار في دار البلدية في باريس وأخبرني، مع آخرين، أن لدي ثماني وأربعين ساعة للحضور إلى مركز الشرطة، كي لا أكون موضع مساءلة، وحذّرني قائلاً: «أنه سيلقى القبض علي في نهاية المدة المحددة إن حدث أمر مفاجئ داخل المنزل». وإن كان فهمي صحيحاً لما حدث فإن اللجنة المشرفة على هؤلاء المناوبين لم تدافع فعلياً عن مطالبهم.... وكنت شخصياً على استعداد لاستقبالهم في الفندق حتى كانون الأول، ولكني كنت أرفض بشدة أن يحتفل المناوبون بعيد

الميلاد في الفندق، خاصة وأن بعض عناصر الشغب نجحت في تسريب المجموعة على مرأى من الجميع. باختصار، لم يكن من المنطق بقاؤهم في الفندق..... جرت بيننا نقاشات طويلة، وبعد انتهاء المهلة القانونية المحددة بثمانٍ وأربعين ساعة، تمكن رجال الأمن من إجلائهم من الفندق في هدوء ومن دون اشتباك... ولكن بعيداً عما حدث وكأنه طرفة، يمكنني القول إني أساند في العلن حركتهم ونضالهم، وقلت هذا لجان جاك إياغون حين كان وزيراً للثقافة. قلت له: «أعتقد أن الحكومة لم تعن كما يجب بمطالب الممثلين المناوبين». ومؤخراً بدؤوا في فهم ما حدث، حين ألغيت المهرجانات، مهرجان إثر مهرجان، لكنهم أساساً لم يفهموا الرهانات، أو بدقة أكثر، لم يريدوا أن يفهموا. وتقع المسؤولية الحقيقية في هذه التجاوزات في نظام تأمين البطالة للممثلين المناوبين، وكما قلت سابقاً، على القنوات التلفزيونية وشركات الإنتاج الخاص فهي التي تسلب الممثلين المناوبين حقهم بالقوة من خلال برامجهم في المقابلات الخاصة talk shows وبرامج التسلية. لقد أحسن المناوبون صنعاً في محاصرتهم لمقر M E D E F ولكن كان من الأفضل لهم لو اقتحموا مكاتب أرباب العمل، وأنا أعلم صعوبة ذلك بالنسبة إليهم. وهناك المئات والمئات من الممثلين المناوبين من يكسبون رزق يومهم من العمل في التلفزيون. وحين اجتمعت بكريستوف جيرار، في دار البلدية، وبجاك إياغون في مقر الوزارة قلت لهما: «إن تصرفتم بشيء من الذكاء، فلن تتجاهلوا أكثر مطالب الممثلين المناوبين». وأنا، مقارنة بهم، في وضع متميز. ولا أعلم إن كان لي الصفة القانونية اللازمة لأثير موضوع كهذا. وحين سأتكلم في هذه المشكلة سأكون كإنسان متطفل في نظرهم. لكني لم أعرف أن الحكومة لم تتراجع عن قرارها وتنظر في مطالبهم. على كل حال، أعرف أن مطالبهم ليست مطالب أغنياء! وأعرف أيضاً أن هذه القضية، لم تتخذ لها صفة نهائية بعد، وأعتقد بأن الوزارة المسؤولة عن حماية القوانين، لم تحسب جسامة الخسائر التي سوف يثيرها إصلاح كهذا ولا ما يتهددها، من جهة أخرى، إن هي رفضت الاستماع للسخط المتزايد في كافة المهن.

-: هذا جيد لمن لا يريد الالتزام....

-: يحسن بي أن أقول أيضاً: أعتقد أن منتجي البرامج الخاصة هم الذين يجب أن يدفعوا الضرائب من أرباحهم الطائلة، لأنهم يتهربون من النظام. وبسبب هؤلاء يكون الجهاز عاجزاً... وعليهم إيفاء ذممهم. أرى على وجهك الدهشة، حين أصارحك بما يجول في رأسي، لكني أذكّرك أنه عند توقيع اتفاقيات الغات GATT، صعدت إلى المنصة لأدافع عن مكانة الثقافة الفرنسية. بداية لم أفعل ذلك بحكم صداقتي بدانييل توسكان دوبالانتييه، من دون أن أفهم تداخلات تلك المعركة، لكني كنت أشعر أنه يجب التحدث فوراً. ومع ذلك، أنا لم أقم بذلك الشيء العظيم، بل اكتفيت بقرع جرس الإنذار، ولكن ما قمت به كان ضرورياً. لم أفعل ما فعلت لأغدر بالأميركيين ولكن كان يجب أن يفهم العالم بأسره، أن لكل بلد ثقافته الخاصة، وأن كل ثقافة من هذه الثقافات تستحق أن يدافع عنها وبالتالي حمايتها. لا ضير إذن من الثقافة الأميركية إن هي اجتاحت العالم بأسره، ومن الطبيعي لا بل الحيوي أن تنتشر في العالم بأسره ثقافات أخرى كالفرنسية والأوروبية بشكل خاص. وهذا ما يمكن أن أسميه بالسياسة الحكيمة، السياسة المفيدة، السياسة التي يفهمها الجميع. وقد أخبرتك فيما مضى، كم

كنت أحب الثقافة الأميركية والموسيقى الأميركية والأدب والسينما الأميركيين، لكن لا أريد للثقافة، مستقبلاً، أن تختزل بالثقافة الأميركية وحدها.

-: بعيداً عن قضية الممثلين المناوبين، وسعيك الحثيث لإبراز الدور الفريد للثقافة الفرنسية، هل شاركت في نقاشات ذات طابع سياسي؟

-: كلا. عفواً، ربما. في الغالب كنت أحجم عن المشاركة في نقاشات كهذه لأني جبان، أعترف لك بأني جبان، وأتحمل مسؤولية جبني. لا أميل لاحتراف الالتزام السياسي. ومن جهة أخرى لا أملك ما يبرر موقفي هذا. على كل حال أنا انفعالي جداً ولا أصلح للعمل السياسي.

-: بمن كنت تفكر حين ذكرت عبارة «احتراف الالتزام السياسي»؟

-: لم أكن أفكر بأي إنسان على وجه الخصوص. كل إنسان يعمل حسب طاقته وإحساسه. شخصياً لست مستعداً لأن أدلي برأيي في كل مناسبة، فقط أعلن موقفي حين أشعر أنه مفيد وذو أهمية. على سبيل المثال، أنا معجب بالأمانة السياسية لبيير آرديتي فهو، على الأقل حين يشرح أفكاره، يعرف ماذا يريد أن يقول. إنه رجل قانون، يتابع الحياة السياسية، ولديه بعض القيم التي يسعى في سبيلها، وهو إنسان جيد جداً. وحين انتهت إيمانويل بييار إلى حركة غير الحاصلين على الجنسية، كان لديها الحق أن تتزوج هذه القضية. وحين خرجت ووبي برغ في تظاهرة في الولايات المتحدة، مع حشد كبير من الممثلين تأييداً لحق الإجهاض ولمعارضة الحرب على العراق كنت متعاطفاً كلياً مع مطالبها. ولحسن الحظ يستغل المشاهير ما لهم من شهرة لخدمة القضايا التي تستحق الاهتمام. لكن في المقابل، أبدو أكثر تحفظاً حين تخرج علينا بعض الرموز المتطفلة على شاشات التلفزيون لتشرح لنا الطريقة التي يجب أن نفكر بها فيما يخص الأزمة الاقتصادية وقضية الجوع في العالم والإبادة البشرية في راوندا، عندها أعود إلى الماضي متسائلاً.... ولكن هل تذكر إيف مونتان (جيرار يقلد صوت مونتان) حين قال: «حسناً، سأشرح لكم الآن الأزمة الاقتصادية وسعر النفط....» كم هذا سخيف حقاً! المهم أن نعرف من نحن ومن أي منبر نتحدث.... من الأفضل أن يصمت المرء على أن يتفوه بحماقات. اسمع، تذكرت الآن هذه الطرفة التي رواها لي مونتان نفسه عن أديث بياف... في أحد الأيام كان مونتان وبياف في زيارة لأحد معسكرات الاعتقال، وأظنه معسكر أوشوتيز. إديث بياف، من جهتها، كانت مؤمنة إلى درجة التصوف الظلامي obscurantiste[1]. في المعسكر قالت بياف لمونتان جملة بدت غريبة ومقيتة، حين وصفت ملايين اليهود الذين قضوا في المحرقة: «لا بد أنهم ارتكبوا في حياتهم السابقة، ذنوباً خيبت رجاء الله فيهم». حين يكون المرء بهذا الجهل عليه أن يصمت، أليس كذلك؟ أن تكون فناناً لا يبيح لك أن تصدر أحكاماً في التاريخ وفي أحداث الكون. وأنا مثلاً أخشى التجمعات العرقية والعداء للسامية التي أحسها في ازدياد في فرنسا، كذلك تصيبني بالرعب تلك الصلبان المعقوفة المرسومة فوق الأضرحة اليهودية والإسلامية، كذلك أقشعر لمشاهد العنف التي أراها في كل يوم على شاشة التلفزيون الفرنسي وفي كل مكان.... لا أملك الحق، بوصفي ممثلاً مشهوراً في أن أتحدث للملايين من على شاشة

(١) obscuratiste: ظلامي (من يعارض تثقيف العامة). المترجم

التلفزيون عن هذه القضايا، ثم إن المجيء إلى التلفزيون للقول إن العنصرية ومعاداة السامية يمثلان هزيمة للفكر ويجسدان خطراً جسيماً، لا يتطلب كل هذه الشجاعة الفائقة.

-: استخدمت عبارة «هزيمة للفكر»، ماذا تقصد بذلك؟

-: لا أعرف إن كان لرأيي أي فائدة تذكر في هذا الشأن، لكني أؤكد في الواقع أنه لم يعد هناك مفكرون كبار وأصحاب جدل حقيقي، ويذهب بي الفكر إلى سارتر وكامو ودولوز وحلقاتهم الفريدة، أفكر بسبينوزا أو هجائيته. لا أعرف إن جاء من يتابع مسيرة هؤلاء في أيامنا هذه. أنا في غاية الدهشة من القضية التي أثيرت بشأن بيرنار هنري ليفي، لأنك حين تمعن التفكير قليلاً بهذا الإنسان، يتبين لك أنه من أولئك المثقفين الندرة الذين يؤكدون في كل مرة عن شجاعة في المواقف.... يمكنك انتقاد ثروته أو قمصانه البيضاء أو توقه للظهور في استديوهات التلفزيون، لكنها جميعاً لم تقف حائلاً أمام ذهابه إلى الميدان في البوسنة وإلى باكستان. وفي الإجمال أرى أننا، ومنذ عشرين عاماً نعيش حالة افتقاد إلى مفكرين يملكون القدرة على تحليل ما يجري في العالم وتفسيره أو أن يكرسوا المثل الصالح، وحين يعمد أصحاب الرأي اليوم إلى توضيح أفكارهم، يخطئون في ذلك غالباً ومثال ذلك حرب العراق. والمضجر أنهم نادراً ما يعترفون بالندم.

-: يا للعجب، كل هذا التناقض يأتي منك، وأنت الذي يحاذر التقرب من الإيديولوجيات ومن أنظمة الفكر، أراك تأسف لغياب المفكرين القادرين على تقديم «المثل الصالح»....

-: هذا أسلوب في الكلام. أنا أفضّل بيرنار هنري ليفي الذي يحاول معرفة حقيقة التطرف الإسلامي في موطنه الباكستان، كذلك أفضّل Houellebecq الذي يحاول إقناعنا بمزايا السياحة الجنسية في تايلند. والمشكلة هي أنه من بين الاثنين، يقدمون لنا Houellebecq على أنه منارة للفكر الحديث.... وللتحديد أيضاً، أفضّل عرض «من قتل دانييل بيرل» على الملأ.

الفصل السابع

اعترافاتي

«لا يملؤنا الله إلاّ بمقدار الخواء الثاوي فينا»
هنري دومونترلان

باريس، ٢٧ حزيران ٢٠٠٤ منزل جيرار ديباردیو، شارع لوكونت دوليل. (تتمة)

– لوران نيومان: تحدثنا في السياسة، لكننا لم نأت على ذكر الدين. ترى هل أنت رجل مؤمن؟

–: جيرار ديباردیو: أنا رجل مؤمن بالإنسان، أؤمن بالحياة ولا سيما تلك الحياة التي سبقت وجود الله. بالطبع أنا مؤمن بالله، وخاصة لجهة لقب العائلة[١]..... ولكن أخيراً... يمكنني القول إني رجل مؤمن. في الحقيقة أعتقد بأني مؤمن[٢]، وأحترم جميع الأديان الموحدة أو المشركة، ولهذا أظن أني عالمي التدين تماماً. أحب جميع الأديان، أحب المذهب الأرثوذكسي لفخامته المسرحية، وأحب الترانيم الغريغورية.... لكن أعظم ما في الأديان هو الإيمان. لكن ويا للأسف البشر ليسوا جميعاً مؤمنين. في المقابل، أنا أرفض كل أشكال التطرف الديني سواء اليهودية أم الإسلامية. إن الأصولية هي الداء الجديد لمجتمعاتنا المعاصرة. أساساً لا يهم كثيراً أي إله نعبد: لأن الله بالضرورة هو الحب. وأولئك الذين يقتلون باسم الله، كم هم بعيدون عن الله. أكرر القول إني أظن، لسوء الحظ، أن الديانات الكبرى الموحدة هي أصولية بطبيعتها. ويكمن الخطأ في هذا إلى التأويلات المفترضة الساعية إلى تقويل التوراة والأناجيل والقرآن ما لم يقولوه. وفي الحقيقة فإن الخطر الحقيقي الذي تشيعه فينا الأديان يتمثل في الإنسان. هذا الإنسان الذي ينصّب نفسه، في كبريائه وجهله، بديلاً عن الله، ويظن في نفسه القدرة، عبر غروره اللامحدود، على تفسير النصوص المقدسة. إليك القرآن مثلاً: إنه، بلا شك، أعظم نص كتب على الإطلاق في تاريخ البشرية. لكن ترى هل بقي شيئاً لم يُقترفْ باسم القرآن، وباسم الله؟ لم تكن الأصولية الإسلامية بمثل هذا العنف، لم يسبق أبداً، منذ محاكم التفتيش، أن قُتِلَ مثل هذا العدد من الناس المساكين على اسم الله... في الحقيقة تعيدني فكرة الإسلام الأصولي، إلى التفكير في العقيدة الكاثوليكية وكيف كانت منذ ستة قرون.... ناهيك عن أن النزعات الأصولية تستخدم اليوم السلاح الأشد فتكاً وتستغل الفقر كوسيلة لتبرير ما لا يبرر. لا أعرف إن كان بالإمكان إجراء مقارنة كهذه، لكني أخشى أن تكون الأصولية الدينية، هي الإيديولوجية الشمولية الكبرى الثالثة بعد الفاشية والشيوعية في عصرنا الحديث.

–: أنت مؤمن بالله إذن، لكنك حسبما أعلم، لم تتلق أي تربية دينية....

–: أنا لست معمّداً، ولم أتمم مناولتي الأولى، لكني كنت أرتاد المدارس المسيحية. وفي مراهقتي كنت أحمل معي دائماً كتاباً لكاتب مجهول، عنوانه (قصة حاج روسي)، كان جلّ الكتاب، كما أذكر، عن الطريق إلى حب

---

(١) Depardieu لقب عائلة جيرارد ديباردیو وتعني (من جهة الله) يغمز فيها جيرارد إلى موضوع الإيمان (المترجم)
(٢) فعل Croire بالفرنسية له معنيان (يظن، يعتقد) أو (يؤمن) وهنا لعب على معاني الكلمة. (المترجم)

الحياة. لم تفارقني أبداً تعاليم هذا الكتاب. فأي تربية دينية أفضل من أن تبحث ثم تجد «الطريق السوي إلى الحياة»؟ أنا مؤمن بالله، هذا أمر شبه مؤكد، وعلى كل حال لست رجلاً ملحداً. أؤمن بالإنسان وأعتقد بإمكانيته في تغيير البشرية، ولكن الأهم في رأيي هو أني أؤمن بالله من خلال الحياة، كما كان القديس أوغسطين.

-: ولكن قبل الحديث عن القديس أوغسطين، أخبرني أولاً إن كنت تمارس الشعائر الدينية...

-: لا، أنا لا أمارس الشعائر الدينية. لا أذهب لحضور القدّاس، ولا أعترف.... أنا شخصياً أعيش حياتي! سأخبرك الحقيقة: إن كان ثمة أخلاق عند ديبارديو فهي أخلاق الحياة. أن تحيا الحياة! أن تحيا الحياة قبل كل شيء! أن تستمر في حب الحياة، رغم كل شيء، رغم المظالم والمآسي، أن تعيش الحياة رغم كل الظروف. ألا يراودنا في الأعماق شيء من الارتداد؟ أنا في الحقيقة، صرفت نفسي عن الذهاب إلى الكنيسة منذ صباي. ومنذئذٍ لم أعد أتحمل التزين بالذهب والطقوس الدينية. في المقابل، أعود وأكرر، أنا أحب جميع الأديان، بل سأدلي لك بهذا الاعتراف: حين وصلت إلى باريس عام ١٩٦٥، كنت رجلاً مسلماً طوال عامين.

-: مسلم، كيف هذا؟

-: أجل، أجل، مسلم. كنت دائم التردد على جامع باريس في شارع جوفروا سان هيلير، وكنت أمارس صلواتي الخمس كل يوم، والوضوء اليومي في الحمام، وكنت أقرأ القرآن.... في الحقيقة أظن بأن هذه الفكرة اخترقت وجداني بعد حفلة كوكب الشرق أم كلثوم (١٩٠٤-١٩٧٥)، وهي مرجع لا يختلف عليه أحد في مصر وفي كل البلاد العربية... بعد أن استمعت إلى صوتها الساحر، نشأت بيننا مشاركة وجدانية، وكان الحضور يذرف الدموع تأثراً. كانت تغني للدين والحب والسلام. ترعرعت أم كلثوم في عائلة متواضعة من القرويين.... والدها كان إماماً للقرية، وهو من علمها، كما أخبرت، تلاوة النصوص القرآنية وتجويدها ومن خلالها اكتشفت موهبتها في الغناء والموسيقى. ومن هنا انطلقت في درب استثنائية إلى أن أصبحت من أصدقاء ناصر. كانت في نظر المصريين «مطربة الشعب».... وحين خرجت من تلك الحفلة، في إيسي ليه مولينو في أعالي السين، كنت متأثراً، مشوشاً، أذرف الدموع كالآخرين.... وكان علي أن أجرّب ما يطلق عليه العرب «الطرب»، أي عظمة الإحساس والعاطفة، ولا يحتاج المرء إلى ثقافة أوفكر ديني كي يتماهى في الإحساس بهذه المشاعر. يكفي أن تترك نفسك تنقاد إلى سحرها... في تلك الأمسية كنت برفقة أصدقاء لي مسلمين وكانوا يعرفونها، وكان هناك أيضاً أستاذ اللغة الفرنسية، ذلك الجزائري الذي حدثتك عنه وهو م. سوامي. كانت أجمل هدية منهم حين قدموني إليها. وهكذا تحولت إلى إنسان مسلم لعدة شهور...

-: لم أكن أعرف أنك على هذه الدرجة من التصوف...

-: لأني لم أتحدث عن هذا الأمر مطلقاً، ناهيك أن حياتي من النظرة الأولى ليست مثالاً للفضيلة. لكني كنت دائماً في بحث مستمر على طريقتي الخاصة. ثمة ضرورة لوجود الله، لأننا بحاجة لشيء علوي. يحتاج المرء إلى شيء ما أو لأحد ما، كي يستطيع طرد جميع المخاوف من داخله. لقد درست الإسلام عدة أشهر، ولم يكن ذهابي إلى المسجد بدافع ديني محض، لكني كنت أصلي الصلوات يومياً.... كان المسجد بالنسبة إلي شكلاً من أشكال المدرسة.... في الفترة ذاتها دعاني صديقي، الذي كنت أسكن في بيته، ميشيل مويرون، إلى

قراءة التوراة، تعلمت أشياء كثيرة من العهد القديم، كذلك مارست اليوغا فترة طويلة من الزمن، لا لدرجة أن أصبح بوذياً.... جلّ حياتي توزعت هكذا بين هذا البحث وبين اكتشاف الآخر.... هذا الآخر- المختلف يثير اهتمامي، في ثقافته ودينه وشعائره... كل ما عنده يسحرني. تعمقت قراءاتي في كتابات (سهري أوروبيندو) Shri Aurobindo، الخريج المتألق من الجامعة البريطانية الشهيرة كامبريدج، وقد عهد إليه، فيما بعد، بأعلى مركز إداري بريطاني في الهند، وأصبح كالإله الحي بالنسبة إلى الهندوس، لكن تبين بأن هذا العلاّمة الموسوعي، وراعي نضال استقلال الهند، كان قد رفض المنصب الإداري في بلده، لينخرط في تجربة الحياة الصوفية، ويجب أن أعترف بأني كنت مفتوناً بمؤلفاته.... وفي جانب آخر، مختلف كلياً، اهتممت بمؤلفات جورج إيفانوفيتش غورد جييف، هذا الفيلسوف الفرنسي الباطني من أصل روسي(١٨٧٢-١٩٤٩)، من دون أن أنسى بالطبع الكتّاب الروس العظام: ديستويفسكي وروحانيته الطاغية في جميع مؤلفاته، وبوشكين وتولستوي.... وفي السبعينيات كنت أرتاد في الغالب الكنيسة الأرثوذكسية في شارع دارو في الدائرة الثامنة في باريس. كنت متأثراً بالروح الروسية، أتناول طعامي على الطريقة الروسية، وأشرب على الطريقة الروسية.... في الحقيقة، أعتقد بأني دوماً كنت شغوفاً بالقضايا الدينية بشكل خاص. لقد خبرت، إلى حد ما، جميع الديانات الموحدة الكبرى، وحتى الديانة اليهودية، وكانت باربارا تقول لي: أنت أكثر يهودية من بين الغوييم goys[1].

-: ماذا كانت تقصد؟

-: كنت أناقش في كل شيء، وكنت أريد الأجوبة لكل شيء. كان لدي نوع من الإرادة المجنونة للحياة، ولمعرفة كل شيء، لأن أكتشف.... كنت نهماً إلى التعلم، وكانت تجد كل هذا موقفاً مغرقاً في اليهودية.

-: هل كان لشخصية الأب دونيسان، التي جسدتها في فيلم موريس بيالا (تحت سماء الشيطان) والمقتبس عن جورج بيرنانوس، أي دور خاص في بحثك الروحاني؟

-: نعم، بالتأكيد. صحيح، بالفعل لا يمكنك أن تقرأ بيرنانوس كأي كاتب آخر، ولن يخرج الممثل سليماً معافى من دور كهذا الدور. كان الأب دونيسان يظن نفسه خوري الآرس، وكان يتمنى أن يفهم الدوافع الحقيقية للإيمان، من دون أن تكون لديه المعارف اللازمة لبلوغ هذا الأمر. ما هو الخير؟ إنه سؤال مقدس! ويا للمفارقة فقد كان محدود الثقافة وغير قادر على تقديم جواب شافٍ. تأرجح بين القداسة والجنون. وكان أكثر ما يقلق موريس بيالا في أثناء التصوير هو كيف سيوفق في إعلان أو إنهاء مشهد القداسة وأين سيبدأ مشهد الجنون. نرى بوضوح، في الفيلم، كما في الكتاب، مقدار الأهمية التي يوليها المذهب الكاثوليكي للخطيئة، هذه الخطيئة الأصلية، تغدو مرعبة عند الأب دونيسان. أشد ما يغيظني عند الكاثوليك مناجاتهم الله: «ربي، أنا كثير الخطايا...». هناك لدى اليهود، على الأقل، فكرة الغفران الكبير، ولمرة واحدة في السنة، وفيه تغفر جميع الذنوب، وهذا ما يدعو للاطمئنان إلى حد ما. يعيش الكاثوليك حياتهم يتملكهم الإحساس بالخطيئة، والإحساس بالإثم.

-: بيالا نفسه كان ملحداً، أليس كذلك؟

---

(١) Goys: غوييم (اسم يطلقه اليهود على الشعوب غير اليهودية وبخاصة على المسيحيين). المترجم

-: إلحاده كان إلحاداً متطرفاً. كنا نصور الفيلم داخل قصر متداع، تملكه عائلة كاثوليكية صارمة في ممارسة الشعائر الدينية. وأنا شخصياً كنت أقضي أيامي كلها في لباس الكاهن وقبعة الكاهن على رأسي. موريس الخبيث كان يلذ له إثارة أصحاب القصر المحرجين إلى حد ما. «أخبريني سيدتي العزيزة، أنت المواظبة على الصلاة، هل كان يسوع يتغوط؟» حارت السيدة بأي كلمات ترد عليه، وكانت صدمتها كبيرة من وقاحة السؤال ومن تجديف موريس، فأجابته: «لكن.... لكن... لكن... أخيراً سيدي، كيف يمكن أن يجول في خيالك شيء كهذا؟» وطبعاً كان موريس في منتهى السعادة. ثم يبالغ في إثارتها ثانية: «آه، حسناً؟» إذن خلال ثلاث وثلاثين سنة لم يتغوط مرة واحدة؟ هل تصدقين هذا، حقيقة؟ (يضحك) ولك أن تتخيل رأس صاحبة القصر! وبعيداً عن هذا الإلحاد الصريح، كان بيالا ينظر باحتقار إلى ما يسميه «مخزن الدين الكبير» وتجّار المعبد ونفاق المؤمنين، وإلى حد ما نفاق الكاثوليك الممارسين للشعائر...

-: تحدثت في مناسبات عدة عن القديس أوغسطين، ومنذ بداية هذه المقابلة لم تترك أبداً كتابه «الاعترافات». في شباط الماضي تلوت بعض الفقرات من الكتاب في كنيسة نوتردام في باريس، ثم بعد ذلك في أحد المعابد وفي مسرح مارك أوريل في أثينا... وأنا أعلم أنك ستكرر هذه التجربة في كنيس يهودي وفي أحد المساجد. كيف بدأ هذا الشغف لديك تجاه القديس أوغسطين؟

-: التقيت عام ٢٠٠٠، في روما، بالبابا يوحنا بولس الثاني، بمناسبة يوبيله، وكان معه الكاردينال بوبار، وزير الثقافة في الفاتيكان. لقد أذهلتني حداثة أفكار القديس أوغسطين في اعترافاته وقدراته العقلية، وكنت أرى في اعترافاته أنها أقرب إلى الشعر العفيف. كانت اعترافات بالغة الروعة، حتى إني فكرت في اقتباسها في فيلم سينمائي. ثم بعد ذلك، وخلال مؤتمر حواري في الجزائر حول القديس أوغسطين، جمعني الرئيس بوتفليقة بأندريه ماندوز، المدرس الجامعي الكبير والاختصاصي العالمي بالقديس أوغسطين. وهكذا نشأت فكرة تلاوة مقاطع من الاعترافات في الأماكن المقدسة، أمام جمهور ليس من المواظبين على الصلاة بالضرورة.

-: وبعد قراءتك للقديس أوغسطين، هل حصل تغيير في علاقتك الخاصة بالدين؟

-: في الواقع، تغيرت أشياء كثيرة. ليس فقط في علاقتي بالدين، بل أيضاً في اقترابي من الحياة. ولا تنسى أن القديس أوغسطين وقبل أن يتحول إلى المذهب الكاثوليكي، كانت له حياته الحقيقية كإنسان، وأنه أحب امرأة وأنجب منها طفلاً.... وكان يرفض أن يتعمد لأكثر من ثلاثين سنة أو حتى أن يتعرف إلى الكاثوليكية. هذا في الوقت الذي كانت فيه والدته، مونيك، كاثوليكية دائمة الصلاة، أي ما يطلق عليه اليوم بالأصولي integrist. يجدر بالذكر أنها كانت تشرب النبيذ بكثرة، وأنها كانت أقرب إلى الجنون. لا تنسى كذلك أنه كان جزائري الموطن، ونشأته في أسرة متواضعة وقد أكمل دراسته وكان مولعاً بالعلوم ويسافر كثيراً.... باختصار، أمضى القديس أوغسطين سنين طويلة، من عام ٣٩٧ إلى عام ٤٠١، في كتابة اعترافاته وفي اهتدائه إلى الطريق القويم.....

-: وأخيراً تحوله إلى المذهب الكاثوليكي....

-: لكن بعيداً عن هذا التحول، فإن أعظم ما يذكر له، كان ذلك البحث الذي جند له نفسه، وكذلك العبارات التي استخدمها في وصف ذلك البحث. وللأمانة أقول إني لا أوافق القديس أوغسطين في عرضه

لشهوات الجسد، لأن الأسلوب الذي اتبعه والعبارات التي استخدمها، تثير فيّ شيئاً من الهلع. في الحقيقة، بدأ اهتمامي في الكتاب الأول والثاني من الاعترافات، حين أعلن غضبه على الله. كان صاحب أسلوب أخاذ في الكتابة وإيقاع كلماته ساحر.

-: لكن، في الواقع، لماذا تشعر أنك قريب جداً منه؟

-: يجمعنا حب الحياة ورغبة الانفتاح والإرادة الصلبة في اكتشاف المجهول. كان دوماً ذلك الإنسان الحي، قبل وفي أثناء وبعد تحوله إلى المذهب الكاثوليكي. هذا أكثر ما يعجبني في القديس أوغسطين. طبعاً أعلم أن لديه بعض المفاهيم التي يمكن أن تساعد في انطلاق الأصولية integrisme..... ولكن يجب ألاّ نسعى إلى تأويل عباراته، بل ينبغي أن نرضى بذلك الإحساس الذي تخلّفه فينا صدى كلماته. فمثلاً شكّل موت ولده مأساة بالنسبة إليه، كذلك انفصاله عن زوجته، بدافع من والدته، وكان يكن لها أعظم الحب. لا يفارقني كتابه منذ سنتين. وأظن، في الواقع، أن كتابه هذا يساعد في الإجابة على هذا السؤال الأساسي: ما العمل لنتحول إلى الأفضل؟ من عهد القديس أوغسطين، بقيت المسيحية لسنوات طويلة فوق مستوى الشعائر التي تمارس حالياً. إن هذه المواعظ الأبدية حول الخطيئة تخدر الورعين بدل أن توقظهم وتسمو بأفكارهم إلى الأعالي. ولهذا ارتأيت تلاوة بعض مقاطع من الاعترافات في الكنيسة وفي أحد المعابد وفي الأماكن المقدسة، وأتمنى تلاوتها أمام حائط المبكى في القدس. ينبغي أن أتابع العمل في هذا. وغالبية المصلين في كنيسة نوتردام في باريس ليسوا من الكاثوليك. وفي العموم أصحاب المذهب الكاثوليكي لا يمارسون الشعائر، وهذا أجمل ما في الأمر. قبل أن يفهموا عمق أفكاره، كانوا يصغون إلى موسيقى كلماته، وإيقاع عباراته وبخاصة ذلك المقطع عن نشوة سر القربان المقدس، عند وفاة والدته: «لن نسمع في الآخرة، سوى صرير الأسنان». ولكن حاول أن تفهمني جيداً، يمكن أن أستحسن عبارته هذه، لكني لست مع القديس أوغسطين في كل ما كتب. فحين أقرأ كلمة «الاهتداء» لا يعني أني موافق على هذا الأمر. أنا لا أردد اعتباطاً كلمة آمين وراءه، أيضاً ليس معنى هذا أني، أنا نفسي، أرغب في الاهتداء. أنا لست بوقاً للقديس أوغسطين، وكمثال على هذا، أقول إني شخصياً أؤيد موضوع التضحية لكن لا أحتمل فكرة القتل، حتى ولو كانت في سبيل الله. أنا لا أؤمن بالقيامة، لكن في المقابل أؤمن بحياة في المستقبل، كما في الديانة الهندوسية. أؤيد فكرة وجود حياة في الآخرة، بعد الموت. وأنا حين أقرأ أمام المصلين اعترافات القديس أوغسطين، لا أدافع عن الإيمان ولا أمارس أي تطرف ديني، بل أدعو الناس إلى الحب والاستمتاع. أشارك مستمعيّ لحظة الانفعال، لا أكثر ولا أقل. أنا لست سوى ناقل لبعض الأسئلة الأساسية والتي أتردد كثيراً في الإجابة عنها، ومنها مثلاً: هل أنا مؤمن؟ ما هو الإيمان، هل الله موجود؟ أنا شخصياً أؤمن بالحياة، وأن هذه الحياة لم تكن فيما مضى، بالغة السوء. هذه هي طريقتي نحو الارتقاء والسمو، كما أنها منهج لعدم فقدان الأمل للأبد.

-: إن كنت فهمتك جيداً، أقول إنك ترغب في الإيمان الصحيح، مع أخذ الحذر من الدين...

-: لا، فأنا أحاذر من المتاجرة بالدين، أحذر من العاطفة الدينية، ومن الانحرافات القاتلة الناجمة عنها. وكما أن الدين بذاته لا يخيفني، فإن ما يرعبني هو ما يفعله الناس بهذا الدين. ومن أكثر الأمور التي أجلّها في الدين، إعلاؤه من شأن الحب.

-: ولكن هل بإمكان الإيمان أن يمنحك الطمأنينة في الأيام العصيبة التي نمر بها اليوم؟

-: نعم، فالإيمان الهادئ، يخفف الانفعالات ويساعد في تطوير ملكة الإصغاء، ويتيح طرح الأسئلة في هدوء أكثر.... ومن دون ريب أسهمت علاقتي اليومية بالقديس أوغسطين في تهدئة طباعي، كذلك خففت من ذلك الجيشان في داخلي. لكني أعلم أن الطريق لا زالت طويلة. ورغم ذلك، أظن أني لو لم ألجأ طيلة السنوات السابقة للعيادات النفسية لما استطعت، من دون شك، في أن أصل إلى القديس أوغسطين، لأن هذا الأخير ومن خلال وجود الله، يطرح السؤال الأساسي لوجوده هو. وفي الحقيقة سبق أن طرح هذا السؤال عظماء التحليل النفسي من فرويد إلى يونغ عن وجود الله.

-: هل حدث وأن شعرت أحياناً، في أثناء تصوير أحد الأفلام أو أنت على خشبة المسرح، بأنك مسكون بفكرة ما، تتجاوز قدراتك؟

-: نعم في المسرح، بالتأكيد. شيء ما فائق للطبيعة تقريباً يتجاوز قدراتك، لكني غالباً لا أعير هذه اللحظات أي اهتمام. تعريفاً، تلك اللحظات الجميلة التي يمنحها لك عمل الممثل، تفوتك وتفلت منك ولا تستطيع السيطرة عليها. إنها كطاقة داخلية لا تستطيع لجمها، لأنها تفوق قدراتك وتفيض منك، ولا تستطيع اختلاقها متى شئت، وحين تباغتك لن تكون لديك القدرة على إيقافها. أؤكد لك أني لم أجن بعد. فحين أقول هذا لا أقصد بالتأكيد أن لدي شيئاً من التجلي الإلهي. فالمسألة، من دون شك، مسألة تناغم نفسي كامل، كما في الموسيقى، كالنوطة الموسيقية الصحيحة، وهي كذلك حالة روحية، وهي تشبه إلى حد ما كرة القرن bilboquet[1] حين تمسك بها قائلاً: «سأنجح هذه المرة» وبعد لحظة تنجح في أداء اللعبة..... وهذه الحالة، بالمناسبة، هي أكثر من حالة ذهنية بسيطة، إنها تماماً ما يمكن أن نسميه نعمة من الخالق.... وأحياناً تمر سريعاً لبضع لحظات، أو ربما لدقيقة..... دقيقة من الأبدية بالغة القصر، يكون فيها الزمن معلقاً، ولكني أرجح أن الرسام والموسيقي والممثل قد خبروا هذه الحالة بهذا الاختلاف حيث يجب على الرسام، أحياناً، أن لا يعيرها اهتماماً في أثناء العمل بل يأتي هذا بعد إتمام لوحته.

-: هل تتذكر بعضاً من تلك اللحظات الأبدية القصيرة؟

-: نعم، بالتأكيد. ونحن تحدثنا في هذا في لقاءاتنا السابقة. أغلب تلك اللحظات، جاءتني وأنا على خشبة المسرح، ولكن يمكن أن تباغتني هذه اللحظات السحرية في العمل السينمائي أحياناً. وأذكر على سبيل المثال، مونولوج دانتون الطويل في نهاية فيلم أندريه فاجدا، لقد نجحنا في تصوير ذلك المشهد من المرة الأولى. كنت مسكوناً بتلك الشخصية، كنت أعي ما حولي تماماً، لكن لم أستطع ضبط نفسي. انتهى كل شيء، هكذا، من دون جهد. لكأن دانتون كان يتكلم بصوتي، وكنت نصف نائم تقريباً، اجتاحني خدر لطيف، لم أصحَ إلاّ على صوت فاجدا وهو يصيح «اقطعوا التصوير». قلت لنفسي، بعد حين، أن محمد علي راوده الإحساس ذاته، من دون شك، في مباراته الشهيرة والتي أعلن فيها بطلاً للعالم، وكان يردد قائلاً: «أنا كالنحلة، ألسع، ألسع،

---

(١) bilboquet: كرة القرن (لعبة مؤلفة من كرة مثقوبة يصلها حبل بعصا دقيقة الرأس على شكل قرن ويطلب من لاعبها أن يشد بالحبل لينطبق ثقب الكرة على رأس العصا) المترجم

ألسع.....» إنها حالة من نعم الخالق وفي الوقت عينه هي إحساس عظيم بالحرية. إنها لحظات لا يمكن لأي أمرٍ أن يؤثر عليك، ومن أجل تلك اللحظات أريد متابعة التمثيل، وبكلمة واحدة أريد متابعة الحياة.

خاتمة

ولا يزال جيرار مفعماً بالحياة....

-: لوران نيومان: قبل أن نختتم حواراتنا، أريد كلمة أخيرة عن حياتك الخاصة.

-: جيرار ديباردیو: اسمع، لقد مضى على لقائنا الأول ثلاثة أشهر لم نفترق فيها، واستطعت أن تقترب كثيراً من حياتي الخاصة. وبما أنك شهدت ما شهدت فإنه، لم يعد لدي أي شيء مهم أخفيه عنك. أنوي الاستمرار في حياتي هنا، في هذا المنزل، حيث أشعر بالراحة والأمان. عندي حديقتي، وصالة لرياضتي، وبيتي يبعد خمس دقائق عن منزل كارول (بوكيه). صناديقي مليئة بالكتب التي لم أقرأها بعد، والبارحة ابتعت دراجة نارية جديدة، لم أشعر في حياتي بالحرية كما أنا اليوم.

-: حرّ، ولكن ليس على أكمل وجه. متى سيعلن طلاقك؟

-: أخبرتك بذلك، إنها مسألة أسابيع. وإذا لم نتوصل إلى اتفاق، فبئس الأمر، عندها سنلجأ إلى القضاء. ماذا تريد أن أخبرك؟ آمل من كل قلبي ألاّ نصل إلى تلك النتيجة. وأما ما تبقى، فكل شيء على ما يرام. في كانون الأول المقبل سأبلغ السادسة والخمسين، ولا أزال أتناول بعض أدوية القلب، لكني في أحسن حالاتي. أعرف أن كل شيء يمكن أن يتوقف في لحظة ما. تصور، عرفت مؤخراً أن طبيب أسناني قد توفي في السكتة الدماغية وهو في الثانية والستين، لن يفلت أحد، أعرف أن الشيء ذاته يمكن أن يحدث معي أيضاً، لهذا أفيد من الزمن وأستمتع بالحياة قدر ما أستطيع أو ربما في أغلب الأوقات. أما فيما يخص كارول، أفضّل أن أستبق سؤالك وأقول: كارول هي مصدر سعادتي، هكذا....

-: ألن تتحدث عنها أكثر....

-: كلا، لن أضيف شيئاً، ولكن أظن الأمر واضحاً.... (يضحك)

-: هل من كلمة بخصوص غييوم؟ أنت زرته هذا الصباح في العيادة حيث يعالج. كيف هي حاله؟

-: حالته نحو الأفضل. ولكن لا أريد التحدث عن وضعه الصحي. أنت تعرف، لم أكن موافقاً على إنجاز كتابك هذا عني، لا لتبرئة نفسي أو لدفع الآخرين إلى التعاطف معي.... وافقت على إتمام الكتاب، لأني وجدت فيك المحاور الذكي، فنحن الاثنين، لم يكن أحدنا يعرف أي شيء عن الآخر، ولكن بلمح البصر، عرفت أنك قادر على إثبات جدارتك في الإصغاء الحسن وأنك متفهم. لا أود أن أكذب لأني إن فعلت فأنا أكذب على نفسي وليس على أي إنسان آخر. «أمشي وليس في حوزتي شيء يبرق، مسلح بالحرية والصدق» إدمون روستان (سيرانو دوبيرجيراك).... (يضحك ضحكاته الأخيرة...)

في اليوم التالي، صباح الاثنين ٢٨ حزيران ٢٠٠٤، جيرار يقود دراجته الياماها الجديدة (١٣٠٠ سنتم^{٣})، وإذا بسيارة تصدمه في قلب باريس عند إشارة المرور. وبعد الظهر أجريت له عملية جراحية في مشفى سالبتريير، في كسر مزدوج مفتوح في عظم الساق الأكبر وفي قصبة الساق الصغرى... وبعد أن

استيقظ من البنج، كانت أولى مكالماته الهاتفية لجيرار جونيو.... ورغم الوعد والقسم وتحذيرات الأطباء، عمل المستحيل كي لا يتأخر في تصوير دوره في فيلم (بودي الناجي من المياه)، مع احتمال أن يعود إلى إيكس أون بروفانس، متكئاً على عكازه، إن تطلب الأمر....

بعدها بفترة وجيزة، اتصل هاتفياً بمؤلف هذا الكتاب وطمأنه قائلاً: «لا تقلق أنا لا زلت مفعماً بالحياة!».

. ملحق .

«مـاذا تفعل هنـا؟»

كان لقائي الأول مع جيرار ديبارديو في ١٥ نيسان ٢٠٠٠ في مدينة كان وفي مهرجان MIP- TV في الملتقى السنوي الكبير للعاملين في التلفزيون. في ذلك المساء، كان على جيرار ديبارديو أن يحضر العرض التمهيدي لمسلسله الجديد، على قناة فرنسا واحد TF1، المقتبس عن رواية فيكتور هيغو (البؤساء)، حيث أدّى، في هذا المسلسل شخصية جان فالجان. وشاءت المصادفة والحظ أن يكون المقعد عن يساري شاغراً...

-: هل أستطيع الجلوس هنا، لن أزعجك؟

-:.......

-: تأخرت قليلاً، ولكني كنت في كوبا. ظننت أنني لن أستطيع الوصول إلى هنا. هل زرت كوبا؟ آه كم تغيرت هافانا...

-: لم أزر كوبا أبداً. ولكن ماذا كنت تفعل في هافانا؟ هل قابلت كاسترو؟

-: أجل، وأستطيع القول إن فيدل هذا، كان في أحسن حالاته.... ولكن أخبرني هل عرضوا لقطات من مسلسل البؤساء. ليس رديئاً، أليس كذلك؟ سأقول لك الآتي: تتمثل السينما الحقيقية بجمهورها العريض فيما يقدمه التلفزيون اليوم. أحسست بالألفة وكأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ عشرين عاماً، ولكأن الذي يجلس بجانبي لم يكن «أشهر ممثل فرنسي على قيد الحياة»، بطل فيلم تروفو (الميترو الأخير)، وفيلم رابينو (سيرانو دوبيرجراك)، والممثل الذي جسّد دور الأب دونيسان مع المخرج بيالا، ذلك الثرثار المتشدق والمشاكس قليلاً أكثر مما تخيلت، لكنه كان إنساناً هادئاً وطبيعياً، لا يدّعي الحشمة.... كان يروي لي سيرة حياته وكأنها حدثت بالأمس.

: كلا، ولكن حقيقة ما الذي يحدث: في فيلم سينمائي وعبر ساعتين من الزمن، يمكن تسليط الضوء على حقبة أو على مظهر من مظاهر حياة نابليون. ولكن تتمثل السينما الحقيقية بجمهورها العريض فيما يقدمه التلفزيون.... التلفزيون وحده يستطيع عرضه. هناك أوقات محددة لعرض المسلسلات، والسينما من حيث هي فن، تفضل السرعة في العرض وفي أوقات محددة، ولطالما استخف العاملون في السينما بالتلفزيون، ولكنهم جميعاً الآن، ممثلون ومخرجون يتهافتون عليه، وأستطيع أن أخبرك بأن هذا التهافت في ازدياد. تحولت السينما إلى مؤسسة بيروقراطية، ذلك لأن منتجي الأفلام مطمئنون إلى عائدات أموالهم، سواء ذهب الجمهور إلى هذه الأفلام، أم لم يذهبوا، فليس ثمة معيار سوى شباك التذاكر. شخصياً أتكلم باسم الممثلين لا باسم المنتجين. وأنت، هل تتوقع النجاح لمسلسل البؤساء؟

-: مع شهرة فيكتور هيغو، والميزانية التي رصدت لهذا المسلسل، وطاقم الممثلين، كيف يمكن لهكذا مسلسل ألاّ يلاقي النجاح.

-: إليك طاقم العمل مثلاً.... انظر إلى كريستان كلافييه: كان أداؤه رائعاً في دور تيناردييه، وكنت اقترحت عليه أداء دور نابليون في قناة فرنسا٢ (France2)! بصراحة، هل تعرف مخرجاً أو منتجاً سينمائياً يستطيع أن يتصدى لمخاطرة كهذه؟ أمامه كل يوم مشاريع أفلام كوميدية، لديه منها العشرات مكدسة فوق مكتبه، ولكنك لن ترى بينها ولو دوراً واحداً من الأدوار التراجيدية العظيمة! رأيي الشخصي في كلافييه أنه ممثل كبير. إذن التلفزيون وحده سيحقق له انعطافة في فنه وسيسمح له باجتياز السينما، وسترى.

جاءت فكرة هذه اللقاءات، التي يضمها هذا الكتاب، من لقائنا الأول. شاهدت معظم أفلامه، أو أهمها تحديداً، لكن في لقائنا الأول لم يكن ممثلاً، بل كان غارغانتوا [1] Gargantua. عملاقاً جذاباً، جباراً ذا نظرة صافية وضحكة محيرة، وكفّاه المثيران، ذكراني بكفي جدي لأمي وكان يعمل في ترميم الطرق وفي أرضه وكرومه. في تلك اللحظة تماماً تملكني شعور واحد أن ألتقيه ثانية، وأن أطرح عليه أسئلة... فكرت أن أمضي وأكشف النقاب عن بعض أسراره والاستماع إليه واكتشاف الحقائق من فمه ؛ هذا الكتاب خاص بالمقابلات. أما مسألة إقناعه بالكتاب، فتلك مسألة مختلفة كلياً. ففي ١٥ نيسان ٢٠٠٠، كان جيرار ديباردیو قد وصل إلى كوبا لإجراء مؤتمر صحفي لقناة فرنسا واحد، حول مسلسله (البؤساء)، وكان عليه في اليوم التالي إجراء مؤتمر صحفي في مدينة كان لقناة فرنسا واحد، حول مسلسله (نابليون) ذي الإنتاج الضخم بكلفة أربعين مليون يورو، وكان أحد أبطاله كريستيان كلافييه بدور نابليون، كذلك جون مالكوفيشتش بدور تاليران.

-: سأسافر بعد غد إلى الولايات المتحدة لاختيار ممثلة لدور جوزفين بوهارنيه. كنت أمام خيار بين ثلاثة: أورما نورمان، جوليان مور، ديمي مور (لكن أخيراً استقر الدور على إيزابيلا روسيليني). ما هو تعليقك على هذا الاختيار؟ لعلك تفهم، أن ليس هناك ما يدعو للسماح للدول الأجنبية الأخرى أن تستولي على تراثك الوطني، وأنت لا تبدي حراكاً. هكذا نصور نحن هذه الأفلام باستقطاب أسماء لامعة من الممثلين من أميركا وإيطاليا وألمانيا، ثم بعد ذلك يجري تسويقها إلى العالم. يشاع، والكلام بيننا، أن إجراءات تصدير الأفلام الفرنسية، إجراءات عقيمة، لكن من المؤكد أن أربعمائة مليون صيني شاهدوا مسلسل مونتي كريستو! إذا نجح مسلسل نابليون فإن قناة فرنسا٢، لديها الاستعداد لإنتاج مسلسل عن المركيز دو ساد في أربع حلقات. وقناة فرنسا واحد، تعمل على تصوير مسلسل نوتردام باريس، وكان جرى التوقيع تقريباً، لإنتاج ثلاثية ألكسندر دوماس (الفرسان الثلاثة، بعد عشرين سنة، فايكونت دوبراجيلون)، حيث سيؤدي كلافييه دور آراميس، وأقوم أنا بدور بورتوس أو آتوس...فيما بعد، لا أعرف، ربما أقوم شخصياً بإنتاج مسلسل (عناقيد الغضب) لشتاينبك، أو إحدى الروايات الكلاسيكية لوليم فولكنر أو أرنست همنغواي....

---

(١) gargantua: تعني أكول، نهم، (إشارة إلى شخصية غرنتويا العملاق). المترجم

بصراحة، يوجد على أجندة جيرار ديباردیو من الأعمال ما يتطلب إنجازه عشر سنوات قادمة من العمل، علماً أنه لم يخبرني بأي شيء عن مشاريعه في السينما وفي المسرح، ولا عن مبيعاته القادمة في آنجو. سيتابع، بعد عودته من الولايات المتحدة، العمل في فيلم فيدوك Vidocq. وفي العاشر من أيار القادم سيصعد سلم قصر المؤتمرات متأبطاً يد أوما نورمان لإجراء حديث عن فيلم فاتيل Vatel للمخرج رولان جوفيه. بعد ذلك سوف يعود، من دون شك، إلى هافانا لتسوية بعض أعماله هناك.... في شهر تموز من العام ذاته، كان قد أجرى عملية لتركيب الأسلاك في جسمه تحت إشراف البروفيسور درايفوس في مشفى فوش دوسوريزن! ثلاثة أسابيع نقاهة ثم انطلاقة مظفرة: ثلاثة عشر فيلماً في ثمانية عشر شهراً، رقم قياسي! لم أفارقه منذ ذلك الحين، ألححت في الطلب عشر وعشرين ومائة مرة كي يوافق على إنجاز هذا الكتاب. تحملت اعتذاراته اللبقة طوال هذه المرات... قابلت أقرب مساعديه وأصدقائه.... لكن لم أصل إلى شيء! لا وقت و لا رغبة لديه. إلى أن جاء صوته على الهاتف في ١٩ نيسان ٢٠٠٤، أي بعد أربع سنوات، يوم بعد آخر من لقائنا الأول، وخاطبني قائلاً: «ماذا تفعل هنا؟ لا شيء؟ أحضر آلة التسجيل وتعال إلى منزلي....».

كلمات شكر

أبادر أولاً بالشكر إلى جيرار ديباردیو، على حسن استقباله لي وعلى صبره وجهوزيته. والحقيقة أن برنامجه الزمني وتنظيمه للوقت شبيه ببرنامج وزير.

أتوجه، بعد هذا، بالشكر إلى العرّابين كلود دافي وبيرتران دولابيه، الملاكين الحارسين لجيرار، وإلى العرّابة دانييل هيمان، لرعايتهم الخاصة لهذا الكتاب حيث لم يوفروا أي جهد لنشره.

كذلك أتوجه بالشكر إلى ناشرَيْ الكتاب أوليفييه أوربان وأنطوني رولي، اللذين رافقاني بكل تعاطف وفهم، طيلة فترة إعداد الكتاب.

ولن أنسى إيلزا بيسو، التي أمضت ثلاثة أشهر، في عمل مضنٍ حقيقي، وهي تنسخ المقابلات كاملة (وأعدها في المرة القادمة أن أطلب من جيرار التكلم والميكرفون قريب من فمه!)، كذلك لن أنسى أنطوان بورغييو، لتميزه في أبحاثه الوثائقية.

ولن أنسى أيضاً صوفي وليزا وجوليان اللذين تحملوا في صمت، الأيام التي غبت فيها، والليالي التي أمضيتها بلا نوم.

مع إشارة خاصة إلى نونور وإلى آلياس ميشيل بويار الاختصاصي الدولي بزيت الزيتون وبنظام D، على حسن استقباله ؛ وإلى لوران أوديو على لطفه وعلى مطبخه المميز.... وإلى ميشيل غرينر ونصائحه القيمة: وإلى كل من ساندني وساعدني وقدم لي النصح، وليغفروا لي جميعاً عدم ذكر أسمائهم.

وأخيراً الشكر الكبير إلى أندريه تيشينييه، الذي سمح لي، في طنجة، بالتسلل إلى استديو التصوير، في فيلمه الأخير (الأزمنة المتغيرة les temps qui changent)، وإلى جيرار جونيو الذي استقبلني بلطف في قصر سان جان دوغارغييه في جيمينوس، عند تصوير فيلم (بودي الناجي من المياه Boudu sauve des eaux). ومن هنا أتوجه إلى الجميع بواجب الشكر.

فهرس

مقدمة المترجم..... ٣
– فاتحة – ٧
قصة من فرنسا ١٩
كن كما أنت ٣٣
بيرتران، فرانسوا، موريس وآخرون ٥٢
اضطراب المشاعر ٧٦
الرجل العجول ١٠١
الثورة، لكن أي ثورة هذه؟ ١٢١
اعترافاتي..... ١٣٠
ولا يزال جيرار مفعماً بالحياة.... ..... ١٣٧
«ماذا تفعل هنا؟» ١٣٩
كلمات شكر ١٤٢
فهرس..... ١٤٣